أهل النخيل

جنان جاسم حلاوي

رواية

مكتبة الفكر الجديد

دار الساقي

أهل النخيل

مكتبة
الفكر الجديد

صدر للمؤلف:

- عرائس البحر، قصص، وزارة الثقافة العراقيّة، بغداد، ١٩٨١.
- ياكوكتي، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ١٩٩١.
- ظلال الطيور الهاربة، قصص، وزارة الثقافة السوريّة، دمشق، ١٩٩١.
- غادرني نيوتن والوقت غروب، قصص، دار ميريم، بيروت، ١٩٩١.
- رماد الماء حول الجزر، قصص، دار ميريم، بيروت، ١٩٩١.
- تابع الطيران وحدك، شعر، دار نيلسن، بيروت، ١٩٩٥.
- قصص الحب قصص الحرب، قصص، دار المنفى، السويد، ١٩٩٨.
- في المعرفة الشعريّة، مقالات، دار الحركة الشعريّة، المكسيك، ١٩٩٨.
- كُلْ يا طاووسي حتّى تكبر، قصص، دار المنفى، السويد، ١٩٩٩.
- شؤون يوميّة لا تعني أحداً، شعر، دار نيلسن، بيروت، ٢٠٠٠.
- ليل البلاد، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢، ترجمت إلى اللغة الفرنسية.
- دروب وغبار، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٣.
- عربة للصيف امرأة للحريّة، قصص، دار الكنوز الأدبيّة، بيروت، ٢٠٠٣.
- أماكن حارّة، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٦.
- هذا المساء حارّ فعلاً، شعر، دار نيلسن، بيروت، ٢٠٠٩.
- هواء قليل، رواية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٩.
- شوارع العالم، رواية، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠١٣.

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

مكتبة الفكر الجديد

جنان جاسم حلاوي

أهل النخيل

دار الساقي

مكتبة
الفكر الجديد

© دار الساقي 2015
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-834-7

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

مكتبة
الفكر الجديد

إلى ليلى علي موسى
أمي

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

فاتحة الكتاب

في أعقاب ما جرى (١)

برَقَ الانفجارُ في التخوم السود لبرهة، تلته انفجاراتٌ عديدةٌ. الظلمة الدامسة تتضوّأ ثمّ تعود إلى حلكتها، في الفضاء اضطراب، وفي الهواء رعشةٌ غامضةٌ مبهمة. الليل شديد السواد، كتلةٌ مظلمةٌ تلفّ المدينة كجناحي خفّاش هائل.

الأرض تميد مع حدّة القصف كأنّها تنقلب، فترتجّ الشوارع تتفكّك البنايات، تهوي القناطر، وأضواء حرائق تتلامع في أرجاء المدينة المحفوفة بالخطر.

الناس يشردون ثمّ يتوارون خلف البنايات، بعضهم يقع ولا يقوم، وبعضهم يقوم ويواصل هربه، ومن أماكن شتّى تأتي نداءات استغاثة، صيحات تنبيه وصرخات ذعر.

في العراء حيطان منهارة، نوافذ مكسّرة، أبواب مُقْتَلَعَة، هشيم قرميد، حطام سيّارات ودرّاجات هوائيّة، وأشلاء خشب وحديد وملابس في برِك موحلة.

رائحة موت تتسرّب إلى الأنوف من جثثٍ مضى عليها الزمن

مكتبة الفكر الجديد

فتعفّنت، وفي الدروب تعدو الكلاب مذعورة مثلها مثل البشر، تشقّ طريقها في غمار سقوط القنابل، بين الانهيارات والانفجارات وصفير الشظايا وألسنة اللهب.

كلّ انفجار يدوّي يزيد في الخراب خراباً، تنهار أسقف وجدران وشرفات، تندلع حرائق جديدة، تفوح رائحة الفسفور والبارود والدخان، وداخل البيوت يتراكم الردم على الموتى، ويدفن من تبقّى حيّاً لابداً في الأقبية والسراديب، وحين يخفّ القصف تتناهى صرخات جرحى يستغيثون بلا جدوى، فالمدينة باتت تقفر قليلاً قليلاً؛ البشر يركنون إلى الفرار، ينهبون الطرق هرباً من الموت، من قنابل المدافع والطائرات.

الهدير يصمّ الآذان، الدويّ يمزّق الهواء، القذائف تفرقع ونداءات متفرّقة تتواتر ثمّ تخفت، يحلّ محلّها ضجيج معمعة الحديد والنار.

الضوء المنبعث من الانفجارات يشقّ حلكة الليل، الحرائق تعمّ، والنيران المشتعلة تلقي ظلالاً متراقصة على الشوارع التي انقطعت عنها الكهرباء، ودخان انفجار قذائف الفسفور الأبيض وقنابل النابالم يزكم الأنوف بلذعة كيمياويّة كريهة.

المدينة تميل وكأنّها سفينة تغرق، ومع كلّ انحدار تنهار البنايات، تنخسف الشوارع، تتصدّع الأرصفة، تسقط المآذن والقباب، وتقع الجسور.

والناس في حومة اضطرابهم يفرّون، يتوسّلون أية وسيلة من شأنها أن تأخذهم بعيداً من قلب المدينة المتأجّجة باللهيب، نفرٌ منهم يذهبون يميناً، وآخرون لا يدرون إلى أين يتّجهون في معمعان

مكتبة الفكر الجديد

هذا الهجوم الجويّ والمدفعيّ العاصف الماحق الذي طوى الأرض والسماء بالنار والدويّ والموت.

الناس والحيوانات يختلط بعضهم ببعض، والكلّ ذاهلٌ عن نفسه، جماعة يتوقّفون ويحدّقون إلى الحرائق بذعر ثمّ يعاودون الجري، منهم من يشير إلى جهةٍ ما، ومنهم من يصرخ منفعلاً من شيءٍ ما، وثالث لا يتوقّف ولا يصرخ ولا يشير إنّما يولّي إلى طيّته ناجياً بنفسه.

الفوضى تسود المدينة، وقوى الدمار والظلام تتقدّم حثيثاً للإجهاز عليها.

في الضواحي كانت النيران تأكل غابات النخيل: السعف والخوص والليف والجذوع والجذور والعثاكيل، كلّ ذلك يشتعل لهباً يندفع إلى عنان السماء.

أسرابٌ من طيورٍ ليليّةٍ تناور للخروج من دوائر النيران، تحلّق في الأعالي، وتغيب في لجج الظلام.

النخيل يتهاوى، يتساقط فحماً ورماداً وشراراً على التراب المتأجّج بالجمر والحمم. الحيوانات تفرّ: الذئاب والضباع والكلاب والقطط والفئران والقنافذ وبنات آوى والثعابين وكلّ ما هو حيّ يجري طلباً للخلاص.

كان طوق النيران قد اجتاح الأنهار، أضرم ضفافها، فانعكست أضواء الحرائق على المياه السود، وكشفتها بإنارةٍ ليليّةٍ غامضةٍ ورهيبة.

واستمرّت الحرائق أيّاماً طويلةً، صارت فيها بساتين النخيل أعواداً سوداً تنأت على وجه الأرض المسودّ والمترمّد، وغطّت طبقة من

مكتبة الفكر الجديد

الرماد كثيفة وجه الماء في الأنهار.

الحارات، الشوارع، الباحات، البيوت، الساحات، جميعها مقفرةٌ، مهجورةٌ، ومدمّرة.

في الطرق والأزقّة الكالحة الموحشة، في البيوت المنكوبة، في مياه الأنهار، بين الردم والهشيم والحطام، والجدران المنهارة، والسقوف المقذوفة إلى الأرض، والأبواب والشبابيك المُقْتَلَعَة، والثياب الممزّقة، والزجاج المهشّم والحديد الملتوي والخشب المحطّم، وقصاصات الكتب والجرائد وأكياس النايلون السود التي يطيّرها الهواء، بين كلّ ذلك الكثير الكثير من الجثث.

وكان الجنود الغزاة المدجّجون بالأسلحة يتهاتفون بهواتف لاسلكيّة، ويعتمرون خوذاً لها عيون ألكترونيّة راصدة، وفي أيديهم رشّاشات ثقيلة، يسدّدونها على نحوٍ غريزيٍّ بفعل الخوف والحذر صوب كلّ جسم غريبٍ يمرّ بهم أو يمرّون به.

أمامهم تتحرّك مدرّعات ضخمة بمدافع هائلة تدبّ بثقل مثل ديناصورات حديديّة، لاتلبث أن تقصف مثل الرعد قصفاً يفلق السماء، فتنشقّ إثره الأرض، تطير السقوف، تنهار الجدران، وتضطرم النار في المزيد من بساتين النخيل، فإذا ثغرات واسعة تنفتح في أحشاء المدينة قذيفةً إثر أخرى، حتّى غدت لشدّة ما تناوشتها القنابل خرائب وأنقاضاً، يتّصل بعضها ببعضٍ على مدّ النظر حتّى الأفق.

الشوارع محروثة والبيوت مسحوقة كأنّ زلزالاً ضربها، أو صاعقةً أصابتها، أو بركاناً باغتها بحممه فأحرقها.

في بناية تهدّمت واجهتها وشرفاتها على سيّارات أسفلها، ارتقى

مكتبة الفكر الجديد

السلالم مسرعاً رجلٌ وفي إثره امرأة تتبعه. الدرجات نصف المهدّمة تقود إلى الطابق الأوّل.

في الغرف المهجورة التي كانت ذات يوم دائرة حكوميّة، تكوّم التراب والرماد وفتات الآجر والجصّ والإسمنت وكسر الزجاج على الأرض والطاولات والكراسي والخزانات.

ذلك الرجل اسمه رمزي، في الثلاثين من عمره، يتسربل بملابس منسولة حائلة اللون، وينتعل حذاءً رياضياً قديماً ولكنّه لا يزال متيناً.

وتلك التي برفقته هي أحلام، أربعينيّة منثورة الشعر، قويّة العزيمة، ذات عينين برّاقتين ويدين ناعمتين، لكنْ حازمتين.

كانا ينأيان بنفسيهما عن الجنود الذين يشقّون طريقهم خلال الخرائب، يتقدّمون على طول الدرب ويدنون منهما شيئاً فشيئاً.

لجآ إلى إحدى الغرف التي درجا على الاختلاف إليها بين الوقت والوقت، تعانقا وراحا في قبلةٍ عميقة.

في هذه الخلوة التي نُظّفتْ على عجل، خُزِنَت معلّبات وملابس وصابون ومناشف وبطّانيّات، وكلّ ما يحتاجه الإنسان لقضاء فترةٍ من الزمن مختفياً.

حال هذا الطابق لاتختلف عن سواها من طوابق البناية: النوافذ محطّمة الزجاج، أسياخ حديد تنتأ من السقوف والحيطان المتصدّعة والمفكّكة، السلالم تنقطع فجأة بسبب تهدّمها وتشخص صاعدة نازلة إلى فراغ. عددٌ من الجدران يقوم وحيداً لايستند إلى شيء.

الممرّات تنوء بالأنقاض من حجارةٍ وزجاجٍ وألواح خشب، وفي الهواء تملأ الأنوف رائحة ناتجة عن انسداد المجاري وطوفان

مكتبة الفكر الجديد

الحمّامات ودورات المياه.

اقتعدا الخلوة وكان الجوّ دافئاً والدنيا نهاراً، استغرقا في العناق والتقبيل، ثمّ انفلت رمزي ليرمي بصره على حذرٍ من خلال النافذة، مالبث أن التفت إلى أحلام وقال لها شيئاً.

بلغهما حسٌّ من الطابق الأرضيّ، مافتئ أن اتضح دبدبة أقدام تصعد الدرجات.

انسلّ رمزي وأحلام من مخبئهما قاطعين الممرّات راكضين فوق الردم بمهارة حتّى انتهيا إلى سلالم الطرف الآخر من الطابق: سلالم الحريق والطوارىء. نزلاها مسرعين إلى باب خارجيّ جانبيّ أدّى بهما إلى طرقةٍ بين بنايتين لم يبق منها بسبب سقوط الحيطان والسقوف إلاّ منفذٌ صغير مهّدته الأقدام، لا يلجه المرء إلاّ بصعوبة.

تسلّلا عبره كالأرانب إلى فتحةٍ في الأرض مموّهة، نزلا فيها.

كانت الجماعات التي فضّلت الاختباء في المدينة في بداية الاحتلال الأميركي وبخاصّة أولئك الذين آثروا مقاومة الغزاة، قد حفروا أنفاقاً بين البنايات من شأنها أن تقودهم إلى جهات آمنة، وهي أنفاق بدائيّة وضيّقة تتسع بالكاد لمرور شخصٍ واحد، أو عدّة أشخاص يقتفي أحدهم أثر الآخر.

وبحسب معرفةٍ سابقة بموقع النفق ذاك، ولج رمزي وأحلام الحفرة إليه ودبّا خلاله حتّى صارا في الناحية الأخرى من الشارع.

أمامهما انفتحت تخوم مقفرة أتت على نخيلها النيران فخلّفتها جذوعاً سوداً متفحّمة. عددٌ منها انكسر وانهار على الأرض المترمّدة.

المشهد ينبسط حتّى الأفق مهجوراً برمّته، لايميّز سطحه إلاّ هاتيك

مكتبة الفكر الجديد

العيدان السود وأعمدة الكهرباء المقطّعة الأسلاك، وفي البعد يتراءى خيطٌ ناحلٌ لم يكن غير شارعٍ خالٍ يفضي إلى فراغ.

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الأوّل

صرخة في هدأة الليل

في دهمة الليل الغابيّ يتناهى إلى المرء نباح كلاب متشرّدة، لا تجد ما تفعله غير الجري في الأزقّة والحواري المقفرة. تهيم على وجهها جائعة وذاوية، حتّى إذا أصابها السأم مالت إلى الهدوء.

يحلّ السكون حينئذٍ، يلفّ النخيل وأكواخ القصب والسواقي، سكونٌ خاصٌّ ينذر بالتيهِ والمجهول والغموض، يوشّح أعماقه الخفيّة صرير جنادب الليل ونقيق الضفادع: أصوات ملحاحة تتواصل على خلفيّة الظلام السائد مثل موسيقى تصويريّة خافتة لحدثٍ سيقع، قد لا يكون بذي بالٍ للعالم المتكبّر المغرور المشغول بسفاسفه، ولكنّه بالتأكيد سيعني الكثير لبعض المنزوين الرافلين في ثنايا هذا المدى النباتيّ، بهواجسهم الدائمة في مغالبة مصائرهم.

يتسنّى لك أن تشعر بالخوارق وتصدّقها في ذلك المكان البعيد المحاط بغابات النخيل.

ترقّب فتجد نفسك فريسة للتوجّس.

مكتبة الفكر الجديد

يلمع الدرب الترابيّ الضيّق الواصل بين النهر وأكواخ القصب والطين في ضوء القمر. تسقط عليه ظلال النخيل التي تحفّه، ولولا ذلك لبقي غارقًا في الخفاء.

قمرٌ ساطعٌ كبيرٌ أصفر يفيض ضوءًا فضّياً، يرتفع في سماء أبنوسيّة تتّقد فيها نجومٌ متنهّدة، ويزخرفها ضباب درب التبّانة الفاتر الضوء، حتّى ليكاد الفضاء يحتفل بجمهرة الكواكب والمجرّات.

من هذا الدرب تتفرّع وتمتدّ بين صفوف النخيل إلى عمق الأجمات والبساتين دروب أخرى أصغر: مسارات شقّتها الأقدام الحافية بين الترع والسواقي.

وفي جنبات ذلك التيه الأخضر حيث ينام الفقراء محمّلين بالأسى، ويسهر النخيل مسهداً حارساً الأبديّة، يقوم متثاقلاً بيتٌ واهنٌ من طين وقصب وبعض قرميد. وهو، والحقّ، أكبر من مجرّد كوخ وأكثر تواضعاً من مجرّد منزل، تنحني حجراته القصبيّة الثلاث المكسوّة بالطين الجاف على فناء مبلّط بقرميد منهوك يخيّم عليه السكون، على الرغم من أنّ الليلة، ياللمفارقة، هي ليلة عرس وفرح.

والبيت كلّه يقع في منخفض تصل مجازه بالدرب درجتان صخريّتان، تنتهيان بباب خشبيٍّ ثقيلٍ قديم تزيّنه مسامير حديد برؤوس كقبّعات الفطر، ورتاج يغالي في قوّته وقد زُجّ في الخشب المتشقّق العتيق.

في إحدى الحجرات القصبيّة يبدّد ضوء الفانوس بصعوبة كثافة الظلمة، ضوء أصفر باهت يمسّ الأشياء مسّاً خفيفاً، فيما تلوذ الأركان بعتمتها.

مكتبة الفكر الجديد

ينير الضوء في ما ينير امرأتين تجاوزتا سنّ الشباب، وفتاة تقارب الثامنة عشرة من عمرها، هي العروس نادية. تجلس بينهما، شحوبها لافت ووجهها أبيض جميل، وهو أمر غير عادي في تلك البقاع السمر.

ساهمة تمعن النظر في أفكارها، لعلّ الاستغراق في ما يجول في خاطرها يجعلها صامتة. ألأنّها مقبلة على حياةٍ لا تستطيع الإحاطة بها تماماً وإنّما تتصوّرها، فتجنح الصور بها إلى أشباحٍ وضباب؟

لم تعتد نادية الملابس التي ترتديها الآن، لا لأنها إفرنجيّة بل لأنها لم تألفها، بيد أنّ نحولها جعلها مناسبة؛ بزّة من قطعتين: تنّورة بيضاء تصل إلى ركبتيها، وقميص ورديّ بلا أكمام.

كان العريس قد أرسلها إليها فتولاّها الفرح لما في الهديّة من ذوقٍ ولباقةٍ، ولما فيها أيضاً من نغمةٍ ساخرةٍ من الدارج السائد.

وهو وإن كان قد طلب إليها أن تقصّ جديلتيها وتصفّف شعرها قصيراً إلى ما فوق الرقبة ويحيط بالوجه، على غرار الموضة الشائعة في تلك الأيام، غير أنّ أمّها رفضت ذلك. تلك المرأة التي تجلس إلى يمينها بسحنتها البيضاء الموشومة، وملابسها الريفيّة السود الطويلة، وعمامتها الملفوفة على منوال النساء الريفيّات.

الجديلتان لا تناسبان الزيّ الإفرنجي، هكذا قالت أمّ العريس إسماعيل، غير أنّ صوتها تلاشى ولم يلق ردّاً من نادية وأمّها. لا أحد يرغب في أن يكون عنيداً في قرارة نفسه، لكنّ رغبات العريس والحقّ يقال باتت تبعث على القلق والتشوّش مثل قرع طبولٍ في غابة.

بدأ ذلك لمّا قال أوّل الأمر ناظراً إلى أفكاره في الهواء: لا أريد

مكتبة الفكر الجديد

ضجّة عرس. وعلى الرغم من دهشة نادية عندما عرفت ذلك من أمّها، فإنّ دهشتها لم تخل من تشفٍّ بتقاليد البيئة الضارية التي تضيّق عليها أنفاسها وتغيّب أنوثتها.

على فراشٍ فوق الحصران يقعدن، ولم يكن في الكوخ شيء غير صندوق يستخدم خزانةً للملابس، وقرآن في كيس قماشيّ أخضر معلّق على الحائط.

الهواء مفعم برائحة بخور يطلقها عود مثبّت في الجدار، طرفه المتوهّج يرسل خيطاً رفيعاً من الدخان.

أم إسماعيل متّشحة بالملابس التقليديّة السود أيضاً. لا تعتمر بعمامة وإنّما تلفّ رأسها بشملةٍ سوداء تنسدل على صدرها كما درجت العادة في المدينة.

أومأت الأمّ لابنتها نادية، فقامت وانتعلت حذاءها الجلديّ الأبيض الخفيف، ومضت خارجة إلى الفناء المغمور بضوء القمر.

خطت باتجاه الكوخ المقابل وداخلتها إثارة بسبب الصمت والعزلة ولربّما بفعل الليل. ليل مكتوم له مسالك فارغة تطويها أدغال النخيل.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة، ونور القمر يشبه أن يكون ضياء نهار أو هكذا هُيّء لها، فبدا العالم مسحوراً، كلّ شيء فيه يدعو إلى الذهاب بعيداً، إلى آخر التخوم في العالم.

هاجس الترقّب يستحوذ عليها لأنّها لم تعرف رجلاً من قبل، فكيف إذا كانت لم تره قط، لكنّه رآها غير مرّة في السوق مع أمّها.

مكتبة
الفكر الجديد

الثياب المعلّقة على حبل الغسيل، وحبّ الماء، والحوائط، ترمي بظلالها على الأرض.

في الهواء طراوة ليلٍ صيفيّ، وفي الفضاء تترجّع وسوسة السعف في تيجان النخيل المطلّة على البيت القصبيّ.

توقّفت نادية أمام الباب الموارب وضوء نحيل يتسلّل منه. طرقته طرقة حذرة كمن يقدّم طعاماً لأسد.

سمعت صوتاً مقطوعاً لرجلٍ كصوت وقوع شيءٍ على الأرض، ثمّ ران الصمت، وتبدّى الجميع بانتظار الخطوة التالية، وفي البال سؤال عن الكيفيّة التي ستفصح فيها الغرابة عن نفسها مرّةً أخرى.

خطت نادية خطوة أولى داخل الكوخ على استحياء مطرقة، فتملّك حواسها صوت رجوليّ ثخين يروّقه الودّ والترحيب:

- أهلاً نادية، تعالي!

حتّى إذا رفعت بصرها إليه لاح لها مثل رؤيا في النور الواهن ودخان السيجارة وأنقاض العتمة.

كان يجلس وراء منضدة خشب يتملاّها وابتسامة مرحة تتلاعب على شفتيه. تضاربت في صدرها مشاعر الذهول والخيبة والخذلان.

وهي وإن كانت غير متطلّبة وأميل إلى القناعة والتعقّل وتريّث في إبداء الأحكام، غير أنّ خيبتها كانت أكبر من تصوّرها، فالرجل أبيض الشعر.

هذا هو إسماعيل إذاً أستاذ اللغة الإنكليزيّة.

شحّة الضوء والاضطراب والدخان كلّ ذلك جعلها تخمّن أنّه في الخمسين. فالرجل حتّى لو تبدّى في ركام الخمسين فعمره في

مكتبة الفكر الجديد

الواقع يناهز السادسة والثلاثين، عمر زاخر بالكآبة خفّفتها إلى حدٍّ ما ساعة الشراب.

- تعالي خذي كأساً معي!

وكانت أمامه زجاجة وكاسان وصحون نَقْل ومنفضة وعلبة دخان "غازي" ذهبيّة اللون.

أرادت أن تقول إنها لا تشرب فلم تسعفها شجاعتها، فجلست قبالته حيث أشار.

مرّ بخاطرها شعورٌ عابرٌ بالخوف وتوقّعت أنّ شيئاً ما سيثب عليها.

كان إسماعيل أسمر نحيلاً، في وجهه علامات تعب. ملامحه منتظمة وسيمة تعلوها سيماء النباهة والذكاء.

كان يرتدي هو الآخر الزيّ الإفرنجي: قميصاً أبيض وبنطالاً، ويردّ شعره إلى وراء.

بان الكوخ أكثر ضيقاً من سابقه، في جنباته خزانة وسرير وطاولة متواضعة تزيّنها مرآة، وأكداس من الكتب الإنكليزيّة والمجلاّت والجرائد في صناديق ومكاتل وفوق الحصران.

لم تفتح نادية فمها حتّى الآن لذا قرّرت أن تقول أيّ شيء مثل:

- هنا كتب كثيرة.

- آه... لحسن الحظ أو ربّما لسوئه.

فطنت إلى ما في استدراكه من سخرية، وأدركت ثقل الأسى الذي ينوء عليه. ودّت لو يطفئ السيجارة إذ لم تعد تحتمل دخانها.

مدّت يدها إلى الكأس، غصّت بأوّل جرعة ويسكي وسعلت

مكتبة الفكر الجديد

بشدّة، على رغم أنّ إسماعيل خفّف كأسها إلى الحدّ الأدنى وأثقله بقطعِ الثلج التي يحتفظ بها في صندوق خشب مبطّن بالصفيح ومغلّف بالخيش في جوار الخوان.

- هل أنت بخير؟

قال وقد ران القلق على وجهه.

- نعم، لكنّي لا أقوى على المواصلة.

- دعيه! الويسكي قويٌّ عليك.

استردّت أنفاسها وجعلت تختلس النظر إليه بين الحين والحين.

- هل تجدينني غريباً بعض الشيء؟

قال ذلك كأنّه لاحظ فضولها واستغرابها.

- لا.

ردّت تجاملة.

- كيف وجدت الملابس؟

استقصى مغيّراً الموضوع.

- جميلة، شكراً.

- مريحة؟

- جدّاً، وباردة أيضاً، فهي من الحرير.

تلمّست القماش ومسّته لا شعوريّاً تأكيداً لكلامها على نعومته وروعته.

- سأشتري لك بزّات أخرى أجمل مستقبلاً.

خُيّل إليها أنّها تقوى الآن أن تجاهر بما يخامرها فقالت:

- لكنّني لا أستطيع الخروج بها.

وضحكت فتضرّج وجهها، كأنّها في قولها هذا قد خرجت عن الحد الذي لا تودّ أن تتجاوزه.

- ولماذا؟

- أليس القميص شفّافاً؟

تساءلت ونوّرت وجهها ابتسامة افتتان واستغراب في آن. إنّ تساهلها مع نفسها حملها على إبداء رأيها من دون أن تكون مصرّة عليه.

- لا، وإنما ليونته تشي بما تحته، ثمّ لابدّ من ملابس خفيفة تلائم الصيف، وأنت ألست فرحة؟

- نعم، أنا فرحة.

ثمّ لزمت الصمت.

إن هذه المسايرة ستسوقها حتماً بعيداً من أمّها وأهلها، وستجد نفسها معه وحيدة أمام العيون الشبقة أو المستاءة والساخرة على منبر الفرجة والإشاعات، مع ذلك فلقد أسبغ الحديث عليها حالةً من الانشراح، وطفقت روح المغامرة تطوف في خيالها، ونبض الانبهار بالجديد يختلج في صدرها.

قال إسماعيل في أعقاب انتهائه من عالم تمّت تسويته للتوّ بعدما كانت تسوده الفوضى وتستغرقه الأخطاء.

- تعالي معي نادية!

تجرّد من ملابسه فأشاحت ببصرها، وشرعت هي الأخرى تنضو عنها ثيابها في بطء وخجل، لكنّها بقيت محتفظة بسروالها ومشدّ صدرها، سرعان ما خلعهما عنها حين استلقت بجواره على السرير.

مكتبة الفكر الجديد

غمرها وأصابعه تجوب جسدها، تتسلّل إلى ثناياه وتلتقط أعضاءها. شفتاه الشهوانيتان تتحسسان صدرها، لسانه يدغدغها وريقه يبلّل جلدها. التقم نهديها على التوالي ثمّ تركهما ودسّ وجهه بين ساقيها يمضغ لحمها.

كانت تسرّح طرفها بعيداً راغبة في أن ينتهي الأمر بسرعة. جسدها المغلق يكتم ضيقه، شعورها وهي عارية يوتّرها.

ودّت لو أنّ الفانوس مطفأ لتختبئ في كهف الظلمة، بينما إسماعيل يدخلها متمرّغاً فوقها، موغلاً في أنوثتها، مهتاجاً، ينخر ببهيميّة تقرص أعصابها فتجفل، تشدّ قبضتها وتغمض عينيها، يمسي التحامهما لزجاً ويغرقهما العرق في مياهٍ سوداء.

لم تكن نادية لتحير ساكناً وهي تحتهُ، لا تدري ما عساها تصنع غير انتظار نهاية ما يفعله الرجل الجاثم عليها.

سائلٌ ينزّ داخلها كأنّ أحداً ما جرح أعماقها. تملّكها خوفٌ مما يجري في قرارة جسدها. استسلمت متحمّلة. نار الألم تسري فيها، بينما الذكر يدقّ بإيقاع متواصل حيطان رحمها.

ندّت عن إسماعيل أنّة من فرط الشهوة. أنفاسه تترى لاهثة ولعابه يسيل على كتفها. وفي ذروة توتّره وفوران دمه أراق في جوفها وأنشب أسنانه في لحمها، فأطلقت صرخة مروّعة ارتجّ لها ضوء القمر، وتساقط الصمت هشيماً في هدأة الليل.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثاني

بعد عشر سنوات

لفّ جودي الأسود[1] الجسد العجوز الميت المسجى على حصيرة مهترئة ببطانيّة عسكريّة سوداء، وطلب إلى مهيدي[2] المجنون أن يرفع الحصيرة من الجهة الأخرى. بانت قدما العجوز من طرف البطّانيّة عاريتين رخوتين، وحافة منامته مخطّطة بالأزرق والأبيض.

الشمس ترسل أوائل أشعّتها الصباحيّة، والنسيم رخيّ ومنعش.

عبرا به الفناء أمام أعين المسنّين الفزعة من الموت التي مالبثت أن أطرقت، فيما الأفواه تتمتم بأدعية الرحمة والغفران. اجتازا باب المأوى المفتوح ومضيا بحملهما في هدوء إلى حيث عربة نقل خشبيّة بحصانٍ يتململ من ذباب يدوّم فوقه ويحطّ عليه.

بعد أن سجّيا الميت في العربة سحب جودي الأسود الحصيرة

---

١ جودي: نسبة إلى الجود.

٢ مهيدي: تصغيرٌ لاسم مهدي، كما هو دارج لدى العامة في العراق.

مكتبة الفكر الجديد

من تحته وغطّاه بها.

- لمّ حاجات المرحوم، واكنس المطبخ!

قال لمهيدي المخبّل.

ثمّ تسلّق العربة فطاش الهوام مثاراً، وقاد الحصان بخطى وئيدة صوب شارع بصرة - عشّار المفضي إلى مستشفى البصرة الجمهوري، لإنجاز تقرير طبّي رسميّ بالوفاة، هذا إذا كان الرجل قد توفي تماماً ولم يبق فيه رمق حياة أو عرق ينبض. لكنّ جودى المتمرّس بمداراة الأجساد المريضة والآيلة إلى الفناء بات يعرف من بعد طول ممارسة ومران إنْ كانت الروح قد ودّعت صاحبها، أم أنّها لمّا تزل متلبّثة في ثناياه.

يقع مأوى العجزة هذا لدى أطراف محلّتي نظران والصبخة الصغيرة في البصرة القديمة، حيث بساتين النخيل المحيطة بنهر الخندق، وحيث تقوم محطّة السكك الحديد المهجورة[1] وخرائب معمل المسامير.

والمأوى في حقيقته ليس غير مستودع من القرميد الأصفر بناه الإنكليز بعد احتلال المدينة في الحرب العالميّة الأولى، يتألّف من قاعة طويلة صارت عنبر نوم، وغرفتين: واحدة للإدارة وأخرى للحرس، احتلّ إحداهما جودي بينما أصبحت الأخرى مطبخاً ومخزناً للمواد الغذائيّة، أمّا الفناء فمسوّر بسياج من الطين تهدّمت أجزاء منه، وهرّأت عوامل الطقس ما تبقّى من أطلاله.

---

١ أقامها الغزاة الإنكليز عام ١٩١٧ لأغراضٍ عسكريّة، ثمّ صارت محطّة مدنيّة لشحن البضائع قبل أن تُهمَل.

مكتبة الفكر الجديد

تفوح في الهواء على الدوام رائحة مبيد الحشرات الـ(DDT)، الصادرة من مستودع مجاور، تلك المادّة التي تنفثها سيّارات تابعة لوزارة الصحّة وهي تجوب الأزقّة والحارات، والأطفال يجرون وراءها غاطسين في غمامات المبيد البيضاء المنطلقة من ماسورةٍ خلفها.

أمّا جودي فشاب طويل أفريقيّ السمات، جدّي وعادل، في مظهره ثبات وقوّة. عمل خادماً في المستشفى لفترة طويلة قبل أن يستقرّ في المأوى مشرفاً عليه ومسؤولاً عنه، يساعده على نحوٍ غير رسميّ مهيدي المجنون المشرّد الذي يلجأ إلى المكان طلباً للأكل والنوم، حتّى روّضه جودي وأوكل إليه مهام الخدمة والتنظيف مقابل إيوائه.

كان مهيدي ينصاع للأوامر ويؤديها كطفلٍ مطيع من دون أن تأخذه وساوس الحذر، لأنّ الوساوس لا تعرف طريقها إلى نفسه، إذ يبقى بريئاً سليم النيّة في سلوكه لا يمكر، كما لا يتردّد عن إتيان أيّ أمرٍ يطرأ على باله، يحدوه على ذلك شغف طفوليّ، وإذا عارضه أحد أو آذاه اكفهرّ وجعل يصرخ صراخاً نافذاً ينمّ على غضبٍ مكبوت سرعان ما يتحوّل إلى قوّةٍ منفلتة، شرسة، وبهيميّة، تستدعي وقتاً وجهداً ومرونة طبع لتهدئتها والسيطرة عليها، لاسيما أنّ مهيدي قويّ يتصلّب عندما يتوتّر فينتابه الحرد والعناد، له بنية متينة ورأس ضخم حليق، يجزّه له أحد المسنّين من وقتٍ لآخر، وملامح غليظة تشفّ في غالب الأحيان عن تعابير طفوليّة.

ويبقى من نافل القول أن نذكر أنّه لايرتدي صيفاً إلاّ دشداشة

مكتبة الفكر الجديد

خلقة، كانت ذات يوم زرقاء اللون، لها زيق دالع وذَكره ينتأ من تحتها، فحياته الفقيرة غير المستقرّة لم تغدق عليه نعمة لبس سروال داخليّ، وهو إلى ذلك حافٍ ولايعتمر أي شيء. له زغب خفيف على ذقنه وفوق شفتيه، كأنّ نموّ لحيته وشاربه قد توقّف مع توقّف نمو عقله في مرحلة الطفولة.

عاش بلا أب ولا أمّ. تبدّدا كحلم فتركاه وحيداً مهدود الروح، يبحث عن الحنان والأمان في أدغال الرغبات والأسرار والمآرب ولا يجدهما.

لا أحد يعرف شيئاً عن منبته وأصله، ولم يكلّف أحد نفسه أن يسأل نفسه عن ذلك، فلقد وُجد مهيدي منذ البداية هكذا، مخلوقاً هائماً في بساتين النخيل، محطّ شفقة الكبار وتسلية الصغار.

لا يتحدّث وإنّما يضحك عند الموافقة. على وجهه نظرة متفائلة ترجو الخير للآخرين وتتوقّع المثل منهم، لذا فإنّ الدهش يتولاّه عندما يبدي البعض حياله جفاءً وقسوةً، فتنتابه سورة من غضبٍ ورفضٍ لما يراه شرّاً وخطأً وظلماً، وذلك ما يدركه جودي والرجال المسنّون تماماً، فيدارون خاطره ويمحضونه اللطف والمعاملة الرخيّة.

في الظلال صباحاً يجلس الهرمون على الحصران خارجاً، والأرض أمامهم مرشوشة بالماء، يستمعون إلى ما يبثّه مذياع ترانسستور ويتناقلون الأحاديث، أو يتمدّدون مسترخين متكاسلين، تنبعث منهم روائح الأدوية والإفرازات الجسديّة الشبيهة برائحة الجبن، ويهزّ بعضهم السعال.

يدور مهيدي يلمّ صحون الأكل وأقداح الشاي، فيما يلاطفه

مكتبة الفكر الجديد

الشيوخ ويضعون في جيبه شيئاً من الحلوى أو قطعة صغيرة من النقود، ولا يخلو الأمر من إشارات صريحة إلى عضوه الضخم النافر من تحت دشداشته قائلين: لمن تخبّئ هذا؟، ومن هي صاحبة الحظّ السعيد؟ فيغرق في الضحك وينطنط صاخباً فرحاً.

إثر اشتداد حرارة الشمس يلجأ نفرٌ من الشيوخ إلى داخل عنبر النوم وقد أبطأتهم غشاوة الخمول، ويغادر آخرون إلى البساتين يتمشّون متفيّئين بظلال نخيلها الوارف، ملبّين نداء الغاب للانتعاش والتسرية عن النفس، ثمّة حيث يسبقهم بعض الأطفال الذين يغطّون في مياه نهر الخندق ويلتصقون بطين الضفاف البارد.

في حومة الحرّ الحارقة تغدو السماء بيضاء مشعّة بضوءٍ حادٍّ، والأرض تتلظّى بالحرارة ملتهبة تلسع القدم العارية.

تتوقّف الكائنات عن الحركة وتلوذ مثل البشر بالأماكن الرطبة الظليلة، فترى الكلاب الهزيلة تستلقي في ظلال الحيطان والنخيل، لا تقوى على الحركة من فرط الحرّ اللافح، ألسنتها مدلاة وبطونها ضامرة تختلج بانتظام مع تواتر لهاثها.

سلك مهيدي الدرب الترابيّ الذي رسمته الأقدام إلى محطّة السكة الحديد، ومضى مسرعاً في الظلال متحاشياً وقدة الشمس ومشاعر الرضا تتملّكه، مطمئناً إلى أنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّ قلب زهور سيشعّ بنور الغبطة حين تراه فتنفحه فلوساً وحلوى،

بدا له أنّ روحه ترقص في طريقٍ مضيء بين النجوم، وأنّه رائع وجميل وفرح، لكنّه لم يتوصّل إلى إدراك سرّ منعه من دخول

مكتبة الفكر الجديد

الحسينيّة[1]، مثله مثل الكلاب التي طالما اقتربت منه ونظرت إليه بألفة وحزن، ثمّ جرت بخفّة مبتعدة عنه.

مبنى المحطّة مغلق وفارغ: مكعّب من القرميد العتيق لفحته السنون، على بابه الحديد أرقام إنكليزيّة كتبها رجالٌ إنكليز جادّون اعتادوا ترقيم كلّ شيء، بدءاً من الحجارة وانتهاءً بالبشر. على مقربة منه جثمت عربات قطار فارغة، هرمة، مفتوحة، ومرقّمة أيضاً.

إنّ العين اليقظة الفطنة لترى ذلك السعي الفرح الذي عبرت فيه تلك العربات المدن والقرى والأنهار في ما سلف من الأيّام، شاقّةً الفضاء مارقةً عبر الخيال والأزمان. الآن تتراكم فيها نفايات ناس طارئين، اتّخذوها على مرّ الوقت مأوى لممارسات غير لائقة. ولم تكن حال بقايا معمل المسامير القريب بأفضل منها، فعلى الرغم من أبوابه وشبابيكه الحديد المقفلة وجد العامّة طريقهم إلى داخله عبر فتحات حفروها في الحيطان، ومضوا كعادتهم يمارسون فيه ما يريدون من متعٍ ورذائل في الخفاء بعيداً من الأعين، فكنتَ إذا دخلته وجدت نفسك في فوضى من المخلّفات البشريّة المنتشرة بين المكائن المغبرة الصدئة المثبّتة بالأرض والحيطان.

آه من البشر، لا يكفّون عن قطف المتع حتّى بين الغائط والأزبال!

ملاحظة تطرأ على بالك وأنت تجوز خلال المكان متعثّراً للاستطلاع، أو للبحث عن فسحة مناسبة تقضي فيها حاجتك.

طريق المحطّة هذا عريض على رغم قصره ولا ترتاده السيّارات. يتوهّج بالشمس ويرفل بالسكون، والبيوت الواطئة العتيقة التي تحفّه

---

١ الحسينيّة: المسجد لدى الطائفة الشيعيّة.

مكتبة الفكر الجديد

ثاوية تلوذ بالصمت والهدوء. فنادراً ما ترى باباً يُفتح، أو أناساً في الشبابيك يقفون، ما أمر هؤلاء البشر، وما سبب تلك العزلة؟ سؤال ستجد صعوبة في الإجابة عنه هذا إذا كان السؤال يهمّك.

وصل مهيدي إلى جسر الغربان[1] وانحرف يميناً في طريق يحاذي نهر العشّار ويخاصر مدرسة النضال المتوسّطة للبنين.

واصل حتّى ألمّ بقضبان سياج الميتم، يدفعه شغف طفوليّ يأتلق باللهفة والشوق. وقف تحت أشجار اليوكالبتوس وعيناه تبرقان فرحاً. دنا من البوّابة الحديد بخطوات مرهفة وهتف كطفلٍ ينادي أمّه:

– زهور. زهور. أنا مهيدي.

اقتربت فتاة شابّة، بيضاء، حلوة، قويّة البنيّة، تتخايل في عينيها السوداوين نظرات حنون. ثدياها ناهدان تحت قميصها الأخضر الفاتح المنسدل فوق تنّورتها البيضاء.

فتحت البوّابة الواطئة فمرق مهيدي بسرعة، وشدقه مفتوح عن ابتسامة عريضة وهو يقول:

– ماما زهور.. ماما.

هل كان مهيدي ذات يوم طفلاً يسرح مع أقرانه في هذا الميتم قبل أن يُطْرَد منه أو يهرب؟

رافقته إلى بقعة فيء في الحديقة المؤثّثة بأشجار اليوكالبتوس والنخيل والنبق والغار حيث يجد له متّسعاً دائماً، وعادت إلى مجلسها على كرسيّ في الباحة المبلّطة العالية بدرجتين عن مستوى

[1] جسر الغربان يصل محلّة الصبخة الصغيرة بمحلّة الباشا في البصرة القديمة.

مكتبة الفكر الجديد

الحديقة، تتابع الأطفال بعينين يقظتين وهم يلعبون ويمرحون.

يتوقّف بعض الأطفال عن اللعب ويدنو من مهيدي يحادثه ويلاطفه، ثمّ يجري مبتعداً بعد أن ينال حصّته من الحلوى، إلاّ أن الأطفال ليسوا دائماً على قدرٍ جيّد من الطيبة، فبعضهم ماكر وشرّير، يضربه ويهرب، فيفتعل مهيدي الألم والتأوّد على نحوٍ ساخرٍ ينطلق إثره الأطفال ضاحكين.

وهم أغلبهم أطفال ضامرون، وجوههم مشبّعة بالأسى، رؤوسهم حليقة ومرابيلهم رماديّة، ينتعلون أحذية جلديّة مستهلكة: لقطاء، يجدهم المارة أو السدنة لدى أبواب الحسينيّات والجوامع، ويذهبون بهم إلى مراكز الشرطة قبل أن ينتهي بهم المطاف إلى هنا. يموت من يموت ومن يحالفه الحظّ يعش منبوذاً بين الظلال، حائراً بين الوجوه المشفقة والكارهة.

لم تكن حديقة الميتم واسعة، لكنّها تكفي لكي يأخذ الصغار فرصةً ثمينةً في المرح واللعب قبل أن يأووا إلى المبنى القائم وراءها.

هذه المؤسّسة أنشأها أحد الباشوات الأخيار في أواخر العصر العثماني، ثمّ آلت من بعدُ إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعيّة.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثالث

جوني البحّار[1]

ما إن يحلّ المساء حتّى يبدأ الشباب المتجمهرون حوالى دكّان مسعود القزم بالعودة إلى منازلهم، بينما تبقى أبواب الدكّان مشرعة.

تخلو الأمكنة وتتمدّد أهداب السكون في الزوايا والحنايا، تحفل السماء بالنجوم وتفيض الأعالي سواداً. تكتنف الجسور والأبراج وأعمدة الكهرباء وبيوت القصب والطين وأشجار النخيل والمآذن علامات تعالٍ، كأنّها تنفرد بنفسها شاخصةً وحدها مزدرية طبائع البشر المجرّدة من كلّ رحمة، طبائع ماكرة وحشيّة تتسربل بمظاهر مزيّفة من ادّعاء الخير والفضيلة.

يترك أولئك الشباب أماكنهم بعد قضائهم وطراً ليس قليلاً في الثرثرة ولوك التفاهات وتناقل الشائعات للترويح عن النفس. بعضهم يتّخذ صندوق الثلج متّكأً له، فيضطرّ القزم لإبعادهم كما يبعد الذباب

١ جوني نسبة إلى جَوْن: نوع من القطا أسود البطن والجناحين، وبنو الجَوْن بطنٌ من بطون كندة.

مكتبة الفكر الجديد

حين يهمّ بفتحه، وبعضهم يقف على جانبي الدكّان يدخّن وينقّل بصره بين المارّة والمركبات.

على درب نظران هذا الذي تآكل قيره وتهرّأ من زمنٍ لا يذكره أحد، فامتلأت حفره بالمياه المنسابة من الحمّامات والمطابخ، تمرّ السيّارات والدرّاجات الهوائيّة وعربات الزبالة ومواد البناء وبيع النفط التي تجرّها الخيول والحمير، وتخوض في نقيعه قطعان الخرفان، أمّا في المساء فتقطع سكونه مسرعة كلاب شاردة وقطط ضالّة، سرعان ما تختفي في أغوار الظلام مهتاجة في خضمّ صراعها الغابيّ من أجل البقاء.

حين تزحف العتمة وتغمر الوجود بروح الخلود إلى الراحة في حركةٍ تعبيريّةٍ لا تقاوَم، يشعل القزم القويّ الجديّ الذي لا تعرف ملامحه التعبَ ضوءاً خارجيّاً فضلاً عن الضوء الداخليّ، فيتألّق المحلّ وتتلألأ صفوف البرطمانات الملأى بقطع الحلوى والعلكة، وتعكس صفائح السمن والزيت والتمر ومضات لاصفة، ويُسمَع في الهدوء السائد خرير ثلاّجة بيضاء ضخمة.

تشتعل مصابيح الشارع الكهربائيّة المعلّقة على أعمدةٍ من جذوع أشجار المانجروف الأفريقيّة، فتلقي دوائر ضوئيّة تحتها، توحي بقوّة الظلام المحيط بها.

البيوت تغرق في الصمت، منطوية على نفسها كأنّها مرتابة، لا جاذبيّة لها من شدّة مغالبتها الزمن، بيوت من القرميد بأبواب من الخشب العتيق غير المدهون مثله مثل الحيطان، في كلٍّ منها حوش مبلّط بالآجرّ ينفتح على السماء مباشرة، يصير في النهار ساحةً لغسل

مكتبة الفكر الجديد

الأواني والثياب في حوضٍ تتوسّطه حنفيّة مرتفعة على ماسورة قلقة.

تحت أحد مصابيح الشارع، لدى مدخل زقاق يحاذي الدكّان، بقي جوني البحّار واقفاً وحده، ودخان سيجارته يتراقص متصاعداً في مساقط الضوء. في مظهره أناقة وقوّة، بنطلون جينز وقميص أبيض على عضلات مفتولة، وفي سمات وجهه الأفريقيّة المتناسقة فطنة وطيبة، خامرتها الآن مشاعر من الترقّب.

في مثل هذه الساعة، ساعة العشاء، يفتر مرور السابلة وتخفّ حركة المواصلات، بل تكاد تنقطع في مسلكٍ غير مهم كهذا، وفي الأعماق البعيدة تتردّد أصوات الليل من غابات النخيل المحيطة بتخوم الحارة: نباح وصرار ونقيق، وربّما أصوات بشر صاحبوا الليل مفتونين بأسراره وغواياته.

وكان جوني ينتظر سيّارة شحن صغيرة نوع فاكس واغن وفق اتّفاق مسبَق، لكنّه اتّفاق غير مُلْزَم كدأب الناس في هذه الأصقاع.

فهم وإن حملوا ساعات في معاصمهم فهي لاتعدو أن تكون للزينة فحسب، فالوقت يتسرّب من غير أن ينتبه له أحد، كما أن الالتزام بالمواعيد عادة تنمّ على ضيقٍ في النفس ومبالغة لا مبرّر لها، إنّ الأمور لتسير على مهلٍ وهدوء ولا داعي للعجلة، ولا بدّ لكلّ قضيّةٍ أجل تنتهي عنده.

وغير ذلك بما يحتجّ به الناس للتفلّت من قبضة الزمن وشروره، حتّى إنّ نسيانه كليّاً ليعتبر فضيلة تفسح المجال للتفكير برويّة، للعيش برخاء ومن دون متاعب.

في الجانب الآخر من الشارع قبالة جوني يقوم بيت حديث البناء

مكتبة الفكر الجديد

أنيق بشبّاكيه الواسعين المغلقي المصاريع، بمدخله العريض وبابه الخشبيّ الكبير، وبحيطانه العالية المبنيّة بالآجرّ الأصفر الأملس، وهو ما يسمّيه الناس هنا بيت الأستاذ إسماعيل، ناظرين إليه في احترام وريبة، لانطواء قاطنيه على أنفسهم وقلّة اختلاطهم بالناس إلاّ في ما يخصّ حاجتهم، ولكونهم غرباء طارئين وفدوا إلى المنطقة منذ ثماني سنوات خلت، تشوب جذورهم مسحة من الغموض والالتباس.

على أنّ البعض استطاع أن يخترق عزلة البيت ويقيم علاقات وطيدة مع أصحابه.

ها هو بابه ينشقّ ويخرج منه رمزي الصغير ذو السنوات الثماني وثلاثة أشهر آخذاً خطواته إلى الدكّان، فلمح جوني مستغرقاً في التدخين مغموراً بضوء المصباح الكهربائي، وعيناه كعادته مرتفعتان إلى أعلى كأنّه يشعر بالسموّ على بقيّة الكائنات البشريّة. سلّم رمزي عليه فانبسطت أساريره وافترّ ثغره عن ابتسامة مضيئة وقال:

– سأسافر بعد أيّام رمزي، وسنرسي في بيروت، ما اسم المجلّة التي تريدها؟

– بساط الريح.

أجابه وقد ومض في عينيه بريق الفرح، ثمّ واصل من غير تردّد:

– اجلب لي قدر ما تستطيع!

– سآتي لك بكلّ ما أعثر عليه منها.

– لا أريدها ممزّقة.

– لا، سأعتني بها، ستكون جديدة تماماً.

– وإذا أمطرت السماء؟

مكتبة الفكر الجديد

- لا تقلق! سأحفظها في مكانٍ آمن.

شكره رمزي وغاص في الدكّان ثمّ ظهر بعد فترةٍ حاملاً كيساً ورقيّاً، وآب مسرعاً إلى البيت دالفاً من بابه الكبير وروحه مفعمة بالعرفان والسرور.

لم يتعلّم رمزي قراءة المجلاّت على نحوٍ متقنٍ بعد، لكنّ الصور الملوّنه كانت تخلب لبّه.

تراءت من طرف الشارع أضواء مركبة تتقدّم وضجّة محرّكها تعلو كلّما اقتربت. أومأ جوني إلى سائقها فتباطأ عنده، تبادلا التحيّة ثمّ واصل السائق السير بحسب معرفةٍ مسبقة صوب حسينيّة مقام الخضر، منحدراً في الدرب المحاذي للنهر إلى زقاق (الصويلات) الواقع قبل الميتم مباشرة. دخله متوغّلاً فيه بصعوبة لضيق مجاله ووعورة أرضه. بانت البساتين دامسة الظلمة إلى يمينه، والأرض العراء غارقة في العتمة إلى يساره، تبصّ في ثناياها أضواء بيوت متّكئة على منحدرٍ ترابيٍّ، ذلك أنّ محلّة نظران تتمدّد فوق حدبة أرضٍ مثل سلحفاة، تحوّل إلى اليسار واستأنف سيره إلى أن دنا من الأضواء، توقّف وأطفأ محرّك السيّارة ومصابيحها، فران صمت عميق مافتئ أن تصاعد من أعماقه نقيق وصرار متواصلان ونباح كلابٍ متقطّع.

أشعل السائق سيجارة وجعل ينتظر في الظلام.

عاد جوني واجتاز الدرب الخالي الواصل بين الشارع والبيت. دفع باباً خشبيّاً ثقيلاً، دخل وأرتجه وراءه.

نزل عدّة درجات إلى حوش الدار الذي يراوده ضوء أصفر فاتر من مصباحٍ كهربائيّ. تقدّم نحو الباب الخلفيّ، فتحه فأحدث صريراً.

مكتبة الفكر الجديد

الظلام كثيف، أضواء البيوت القريبة تقاوم بالكاد حلكة الليل، الدنيا تسبح في بحرٍ من العتمة.

وقف جوني في الضوء المتسرّب من الداخل وأمامه على قيد أمتار استقرّ هيكل سيّارة الشحن الصغيرة.

خرج سائقها صافقاً بابها ثمّ دلف إلى البيت بصحبة جوني الذي قاده عبر الفناء إلى المخزن، فتحه وأنار الكهرباء فانبثقت في النور لحف وبطّانيّات ومخدّات وفرش قطنيّة مصفوفة على حصرٍ من القشّ الليّن، حذّها شوالات ملأى بمستوعبات سجائر المارلبورو وصناديق الويسكي وزجاجات العطور.

راح السائق يستكشفها مسروراً. نقد جوني ثمنها وشرع بنقلها إلى الشاحنة، حتّى إذا فرغ منها ركب عربته واختفى في الأرض المكسوّة بالظلام.

سيطر الهدوء بعد زوال ضجّة المحرّك، وغرقت البيوت مرّةً أخرى في وهدة العزلة والخدر والنعاس.

ردّ جوني الباب الخلفيّ، نزع بنطلونه الجينز وقميصه الأبيض كأنّه ينضو عنه ظلال الناس في المحلّة والسوق، ولبس الدشداشة البيضاء معدّاً نفسه للاسترخاء في عالم البيت.

دفع باب غرفة أمّه (صديقة) الموارب ودخل. كان التلفزيون المفتوح على القناة الكويتيّة بلا صوت، وأمّه تجلس على فراشٍ منكبّة على أوراقٍ فوق نضدٍ واطئ أمامها.

كانت ملامحها السوداء على الرغم من بلوغها الخمسين تفيض رقّةً وجمالاً، كأنّها ملاك خلق من الحليب والشوكولاتة أضاع طريقه

مكتبة الفكر الجديد

في مجاهل أفريقيا ليستقرّ مصادفةً هنا.

على رفوف وعلى الحائط مباشرة تصطفّ آلات موسيقيّة بعضها قديم العهد: دفوف، ربابة، ناي قصبيّ، مجْوز، مزامير، بُزُق، دَربكّة، طار كبير، وبين يدي الأم عود توقّع عليه أنغَامها بين الفينة والفينة: أنغاماً محمّلةً بالشوق واللهفة والأسى تارةً وضارية تتدفّق قوةً كهبّات الريح طوراً وحلوة ناعمة خفيفة تجري جريان مسيل الماء ثالثة. هي ألحان تعبيريّة حسيّة تلهب الأجساد الراقصة فتنفعل بها في إيماءات نشوةٍ ولقاءٍ وإغواءٍ وفراقٍ ولذّةٍ واشتهاء.

جلس قرِبها صامتاً كدأبه قبل أن يصعد إلى السطح. توقّفت عن الدندنة، شكّت الريشة البلاستيك البيضاء في ذيل آلة العود وأبعدتها عن حضنها، أشعلت سيجارة من علبةٍ في جوارها، قرّبت منفضةً كانت قد ركنتها جانباً وحطّتها أمامها، ثمّ خاطبت ابنها لاستجلاء خفايا أفكاره:

- ماذا قلت جوني؟

- ماذا أماه؟

- بشأن زهور.

- لا أنوي الزواج حاليّاً.

- الخطبة.

- ربّما بعد عدّة رحلات أخطبها، حينئذٍ أكون قد جمعت مالاً يكفي للتجارة والاستقرار على اليابسة.

- الناس تحكي جوني.

- لتحكِ!

مكتبة الفكر الجديد

- ملاّ جعفر يحوم حولها.

- لن يستطيع شيئاً.

- بدأ يلمّح إلى التهريب في خطب عاشوراء ورمضان.

- وإذا تزوّجتها، هل يكفّ عنها؟ سيلجأ إلى الابتزاز مرّةً أخرى لكي أطلّقها أو لإلقائي في الحبس.

- حسنٌ، اترك البنت تنتهِ المشكلة!

- لن أتركها.

- ملاّ جعفر سيوقع بك لدى الشرطة إذا لم ينل زهور.

- أعرف كيف أدبّر شأن هذا المنافق.

- لا يا ماما، لسنا في حاجةٍ إلى المشاكل.

بارح أمّه وألحانها. حمل معه من المطبخ زجاجة ويسكي وقدحاً في سطل ثلجٍ صغير ومنفضة بلّوريّة وارتقى السلّم الحجريّ إلى السطح.

النجوم دانية ترفل في السماء الشاسعة الحالكة السواد، الهواء لمّا يزل مشبّعاً بالرطوبة. على السطوح أسرّة النيام. أضواء تنطفئ، وحوار خفيض يتسلّل من سطوح الجيران.

بساتين النخيل القريبة من البيوت مغمورة بالظلام، مجرّدة من ألفتها الصباحيّة، تملؤها حياة ليليّة خفيّة.

وضع ما بين يديه على الأرض، رفع الحصيرة التي تغطّي الفراش المطوي على السرير، بسطها على الأرض ثمّ فرش الفراش عليها وجلس. صبّ لنفسه كأساً مثلجةً وراح يحتسي مشروبه مفكّراً في كلام أمّه. أشعل سيجارةً فتوهّجت جمرتها في عتمة السطح التي تخلّلها ضوء المصباح الخافت المنسلّ من فناء الدار تحت.

مكتبة الفكر الجديد

الظلمة الباهتة طفّفت من حضور الأشياء، كستها بشواشٍ قاتم: الغسيل، أزيار المخلّل، هوائيّ التلفزيون، السريران، سياج الحجر الواطئ، كرسيّ قديم هرّأه الطقس، وصناديق محشوّة بالعُدَد المكسورة والأسلاك والأنابيب وأوعية ألمنيوم مستهلكة ومهملة.

* * *

قطعت زهور حوش الدار إلى غرفة أبيها جمعة. أردية الليل تكاد تطوي البيت المفتوح على السماء لولا الضوء المُنار في نافذة الأب والمتوهّج على أرض الحوش. الحركة منقطعة في الزقاق ولا أصوات غير نباح كلابٍ سائبة. والنجوم ترفّ في فضاء تعبره طيور ليليّة بريّة.

يدها الصغيرة المنمنمة دفعت ظلفة الباب الموارب، انسابت برقّة ثمّ اتّخذت مكانها إلى جانب أبيها الذي سارع إلى إغلاق المذياع. مدّ يده، تلمّس يدها وشدّ عليها وقد أشعّ وجهه بتعابير الرضا والاطمئنان، وإن لم تومض عيناه الخامدتان القابعتان في وهدتين بشيء.

كان قاعداً إزاء نضدٍ عليه شراب ودخان ونَقْل، وكان يمسّ الأشياء قبل أن يلتقطها، فهو برغم لمساته الرقيقة والواثقة يتردّد أحياناً ويتوقّف عن الحركة؛ لم يكن عماه خلْقيّاً وإنّما اعتوره في فترةٍ متقدّمةٍ من عمره بعد إصابته بمرض الرمد.

عانقت زهور أباها وباسته من خدّه غير الحليق ملتذّة بتشوّك بشرتها. تورّدت قسمات العجوز فرحاً من تفهّمٍ لا تخالطه ريبة، وقبولٍ

مكتبة الفكر الجديد

لا تخامره شكوك في ما تودّ ابنته أن تفضي به إليه، هو العارف بذلك من سريان أنفاسها واختلاج قلبها، الذي يختلج له قلبه بالحبّ والحنان.

– أنا ذاهبة إلى (صديقة).

كاد أن يحتجّ بتأخر الوقت قائلاً: الآن؟ لكنّ قرب المكان الذي تنوي الذهاب إليه سيضعه موضع الرافض والمعارض.

– لا تتأخّري ابنتي فالليل غدّار!

– سلوى منذ البارحة عند الخاتون، أتريد منها شيئاً؟

– لا، دعيها في حالها!

كان العجوز جمعة يعرف ولكنّه لا يفصح عن معرفته ولا يبرّر إخفاءها، إنّ ما يسعى إليه هو سعادة ابنتيه لا أكثر وإن لم يخفِ قلقه، فيتحدّث بتوريةٍ عن عبث الشباب الجميل ونتائجه المؤذية رغبة منه في تجنيب ابنتيه آثاره.

فتح المذياع على إذاعة القاهرة ومضى ينصت لأمّ كلثوم كأنّه يهشّ بصوتها أخيلةً شيطانيّة شرعت تتناهبه.

كانت الوحدة تحاصره وتؤذيه بعد وفاة زوجته.

جازت زهور الزقاق القصير الذي يفصل بيتها عن بيت جوني وإحساسٌ مثقلٌ بالريبة يخامرها من شبابيك البيوت وأبوابها.

الزقاق مقفرٌ ومُنارٌ بمصباحين: واحدٌ في أولّه والآخر في نهايته. أرضه مبلّلة بفعل المياه الجارية. فتحت الباب الأحمر الثقيل بمفتاحٍ لديها فتصاعدت في الصمت الموشّح بضوء أصفر قلقلة القفل. دخلت، أرتجت الباب وراءها ونزلت الدرجات إلى الحوش. لاحت في النور الفاتر برشاقتها وبياض بشرتها وسواد عينيها الذكيّتين

مكتبة الفكر الجديد

والفضوليّتين مثل ملاكٍ يعبر المكان فيُسْمَع لخطوه حفيف.

تلبّثت لدى باب حجرة الأم صديقة، قرعته وقالت بصوتٍ خافتٍ ذي جرسٍ مسموع وهي تدفع الباب برفق:

- أم جوني.

فجاءها صوت صديقة رقيقاً:

- ادخلي زهرة!

- شكراً خالتي، جوني عندك؟

- جوني فوق.

ارتقت الدرجات بخطى تأخذها إلى أعماق رغبتها. في عينيها السوداوين بريق لهفةٍ، وفي جسدها العشرينيّ شوق واضطرام. فتحت باب السطح فاشتبك الجسدان في عناقٍ يتباوسان.

تعرّيا وتمرّغا على الفراش مهتاجين بقوّة الشهوة وعنف الرغبة. التقم جوني حلمتيها الورديّتين على التوالي. تأوّهت ملتهبة ومفتوحة تحته. جسده الأسود يحتويها ويوغل في بياض لحمها. رمت رأسها بين ساقيه وأخذت لحمه المتوتّر بين شفتيها، انقلب بدوره إلى فخذيها والتهم ما بينهما وهي تتلوّى وتتأوّه ملتذّة، اعتلاها ويداه تعصران نهديها، ولجها عميقاً، فمه على فمها، يداها تضمّانه، رجلاها تطوّقانه، تشدّان جسده إلى جسدها حتّى صارا جسداً واحداً في بياضٍ وسوادٍ وعرقٍ وأنينٍ وشهوة. جوني يعلو ويهبط عليها، حتّى إذا بلغ ذروته انفصل عنها في اللحظة المناسبة وأراق على بطنها.

من الغرفة تحت كانت تتأدّى موسيقى عودٍ تنغّم ألحاناً أفريقيّةً جميلةً يتهادى بينها غناء بان مثل حلمٍ طيّبٍ في أعماق النوم.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الرابع

شتاء العام نفسه

للريح صفير يعتري هيجانها واندفاعها. يختلج المطر المنهمر ويموج صافعاً الحيطان والجسور والسقوف والأبواب برشّاش منهمرٍ متواصلٍ، في فورات وهبّات ترجّ الأشجار واليافطات وأسلاكَ الكهرباء والمصابيح والمصاريع غير المقفلة، جارفةً العلب والقشور وأكياس النايلون والأوراق والخرق والحيوانات النافقة، في مسيلٍ هادرٍ يغمر الدروب والأرصفة وعتبات البيوت.

الأنهر تطفح بمياهٍ عكرة، تطغى على الجروف فتغرق حشائشها وشجيراتها وجحور حيواناتها، وقد تعلو فتدهم الشوارع والجسور والقناطر والمُسنّيات الإسمنتية.

السماء مكفهرّة، تدمدم غاضبةً ملبّدةً بالغيوم، ينسلّ من بينها ضوء النهار خافتًا كأنّما تلبّسه الحذر.

والسماء حين تكون كذلك تصبح أقرب إلى الأرض، وتكاد أن تجثم عليها.

مكتبة الفكر الجديد

لتقصّف الأغصان وقرقعة يافطات الدكاكين وتفلّعها وتكسّر خشب المصاريع وأعمدة الكهرباء، صخب يختلط بولولة الريح وهزيم الرعد وهطول المطر.

إنها العاصفة ولا ريب، تجتاح الحارات والأحياء كأنّما لتغسلها بعد طول ركودٍ وخمودٍ وخمول.

تصير المسالك وحلاً، تغرق الطرق وتنقطع، يصبح المشي كالسباحة في الموج، إذ لا شبكات مجارٍ ولا مصارف مياه.

يمسي العالم خزّان مياه، يفيض غامراً الكائنات بسيول المطر، بهبّات الهواء ودويّ الغيوم وبرقها.

غير أنّ المياه المتدفّقة بجيشان الريح لا تلبث بعد حينٍ من الزمن أن تستقرّ في الحفر والمنخفضات والسواقي الجافّة، لتغدو بمرور الوقت مستنقعات وبركاً ومناقع ضحلة آسنة يستوطنها وحش الملاريا، وتذرعها الكلاب الشاردة بين النفايات وأسراب البعوض وقبائل الجرذان.

ما الذي يفعله سائق الدرّاجة الهوائيّة في يومٍ عاصفٍ كهذا، يرقى الطريق ووجهه يضطرم بالقلق؟ الماء يسحّ من شعره على وجهه ويتسلّل إلى ظهره. قطرات المطر تضرب عينيه فتطرفان، تعوقه السيول، تنفحه الريح، لكنّه يمضي منحنياً على مقوده في إصرارٍ مشوبٍ بالتحدّي.

الدروب خالية، تحفل بالنوافذ المبلولة والشرفات المنقوعة، تتفرّع منها أزقّة تتلفّع بالنسيان، تنزوي في عزلتها واهنةً تحت رحمة المطر ووطأة العاصفة.

مكتبة الفكر الجديد

المخلوقات لابدة في مآويها، في عبق الدفء وألفة الظلال، الكلّ يتّقي عصف الريح والبلل مغموراً بخرائب أيّامه، مطموساً بالوحشة، مترعاً بالهواء المتبّل بروائح السمك والبخور والنخيل والطين.

كان جواد يندفع بدرّاجته من محلّة الصبخة الكبيرة وفي خاطره تجول فكرة واحدة هي الوصول إلى مبتغاه في أسرع وقتٍ لتفادي الأسوأ.

لم يكن يأبه لسفع المطر ولا لنفح الريح، كان يرفع عينيه أحياناً يمسح الاتجاه بنظرةٍ ثمّ ينحني على المقود. مطبّات الدروب الموحلة المتعرّجة وجريان المياه تحدّ من حركة درّاجته وسرعتها، على الرغم مما يبذله من جهدٍ في المناورة وتجنّب ما يعوقه. شبابه وقوّته يساعدانه على أن يسوقها بأقصى ما يستطيع، طاوياً الأزقّة، خائضاً في السيول إلى محلّة الصبخة الصغيرة. البيوت على جانبي الطريق تتطامن تحت المطر، شرفاتها مسترخية مغسولة، أبوابها العتيقة مثقلة بالصمت، وحيطانها العالية تجثم رطبة، تتوّج أعاليها أسيجة خشبيّة متهالكة وميازيب تصبّ مياهاً عارمةً في الشارع.

الأرض تتصاعد مما يضاعف صعوبة السوق والقيادة، لاسيّما أنّ ملمس المقود بات زلقاً، وقدما جواد العاريتان من الجوارب تفلتان الدوّاستين الدافعتين لتشبّع حذائه بالماء. على سلّة الدرّاجة الخلفيّة حقيبة سفر جلديّة مربوطة بحبل.

السيل ينحدر بسرعة فتشقّه العجلتان مثل زورقٍ يقاوم الموج. الأرض تلمع من المطر. أديم السماء مدلهمّ، تعلوه تقطيبة سخط.

مكتبة الفكر الجديد

خلّف جواد وراءه جبل خمّاس[1] ومدرسة الموفّقيّة الابتدائيّة.

كان يمسح الماء عن وجهه بذراعه اليسرى. أذناه تحرقانه بفعل البرد، ولمسة خدر مسّت أصابع رجليه فضلاً عن معاناته من تشقّق شفتيه وظاهر كفّيه كلّ شتاء.

ملابسه منقوعة: سترته، قميصه، بنطلونه، وحتّى سرواله الداخليّ.

لم يكن من الأمر بدٌّ، لا مفرّ من المواصلة، يحثّه إصرار على بلوغ مراده، غير عابئ بما يدور حوله فالساعة ساعة خطر والموضوع لا يحتمل التأجيل، وأيّ دقيقة قد تؤدّي إلى ما لا يحمد عقباه، فالأيّام علّمته أنّ الضعف البشريّ لا حدود له، لاسيّما حين يُمْتَحَن المرء بالألم والعذاب.

يالهذا الطوفان، كأنّ بلايا الأرض لسوء حظّه تواطأت مع رزايا السماء.

على أنّه في كلّ شتاء وبعد كلّ عاصفةٍ مطريّة تنتابه لذّة غامرة، إذما تفغم أنفه رائحة المطر المنتشرة في الفضاء: شذا البيوت المستحمّة حتّى عمق آجرها بالماء، أريج التراب المجبول طيناً، وعبير روائح النخل وعبق حشائش النهر وأشجاره وأشناته.

انتهت الدرّاجة المكدودة إلى ذروة الارتفاع في محلّة الصبخة الصغيرة، ثمّ شرع الدرب السيئ الرصف المحفور والمنقور ينحدر فيسهّل نزولها منسابةً في مسارب المياه، تمخرها في غير عناء.

ساق جواد درّاجته قدماً حتّى باتت ناحية محطّة القطار القديمة

---

١ جبل خمّاس ربوة تكتظّ بالبيوتِ في البصرة القديمة، لا ترقي إلى ارتفاع جبل بالتأكيد، وأهل البصرة يسمّون كلّ مرتفعٍ ترابيّ في المدينة جبلا.

مكتبة الفكر الجديد

إلى يمينه، استقام الدرب أمامه ومضى محاذياً النهر يريد محلّة نظران.

مياه النهر موحلة والضفاف مطيّنة، نباتاتها ترتجف في حفيف الهواء، خضرتها لامعة تنقط ماءً. بين المويجات المضطربة تسبح جرذان مشرّدة، جرفت المياه جحورها.

لم يكن في شارع المحلّة الذي وصله للتوّ أحد باستثناء كلبٍ راكضٍ مبلولٍ ومقرور. فارق جواد النهر والمخبز باتّجاه دكّان مسعود القزم، وكان المساء يهبط والسكون يعمّ الشارع.

أخذت الأرض ترتفع مرّةً أخرى، لا نجوم في السماء، السحب متكتّلة والمطر لا يبرح ينثال من دون توقّف. اشتعلت مصابيح الجادّات غير أن ضوءها بقي مشوباً بضباب المطر، ضعيفًا يختلج في الريح.

وصل جواد إلى أطراف محلّة نظران حيث أكواخ القصب وبساتين النخيل تكتنف جهتي الدرب.

الوهدة وراء الأكواخ أمست غمراً غطّى جذور النخيل الناتئة، وعلا حتى أسفل جذوعها. أنوار الشارع تنعكس على المياه قبل أن تبتلعها الظلمة، فيما ومضت بين الخصاص أضواء فوانيس.

ساق جواد درّاجته بيديه صوب كوخ قصبيٍّ كبيرٍ يتألّف من غرفتين وحوش. الحيطان من قصبٍ مشدود ومكسوٌّ بطين يابس متشقّق. في الهواء رائحة نفط ودخان تنبعث من المدافئ والمواقد في الأكواخ المنزوية خلف أبواب من تنك الصفائح.

طرق الباب بقوّةٍ وكلّ خشيته ألاّ يكون أحد في البيت. فتحه

مكتبة الفكر الجديد

حسين العامل وقد قبّضه المطر، فلمعت ومضة فرح في عيني جواد الخضراوين.

وجواد قصير القامة كحسين، بيد أنّ بشرته بيضاء مشربة بالحمرة وفي ملامحه الوسيمة شقرة لافتة، بينما حسين أسمر، فكّه الأسفل بارز في تشوّه جعل أسنانه ناتئة فيبدو حين يتحدّث كأنّه يلوك الكلمات.

تبادلا التحيّة، ولم يثر مجيء جواد المفاجئ أيّ استغراب، فهما غالباً ما يلتقيان بمناسبةٍ وبدونها.

دخل جواد الحوش قائداً درّاجته بيديه وركنها إلى الحائط. أرض الحوش المرصوفة بالآجر مغسولة بالمطر الغزير وقناة التصريف التي تتوسّطها تتدفّق ماءً.

ولجا الغرفة فلفّتهما العتمة على الرغم من نور الفانوس المدلى من السقف بسلك. ارتسمت ظلالهما على الحيطان وغشيتهما موجة دفء مصدرها المدفأة النفطيّة التي تتصدّر الكوخ.

للمطر وقع على سطح الكوخ، ولنقيع القصب في جوفه رائحة كرائحة النهر. بلل واضح أصاب الجدران المكسوّة بعناية بطبقةٍ كثيفةٍ من الطين المتبّن. الأرض تراب مدكوك مفروش بحصيرةٍ من القش الليّن، والمدفأة الأسطوانيّة السوداء طراز علاء الدين في الوسط تشتعل بنارٍ زرقاء وصفراء تشعّ من ثقوبها.

إلى يمين الداخل تصطفّ أكياس خيش وسلال ولوازم مطبخيّة وزير ماء تحته جرّة، وإلى يساره توجد خزانة خشبيّة وتنكة نفط وموقد نحاسيّ مُطْفَأ طراز بريموس. الحرارة تسري في الهواء، تسمُ

مكتبة الفكر الجديد

الأشياء بحسّ الألفة والدعة. هذا مأوى مثاليّ للراحة، بخاصّة بعد رحلة مطريّة عاصفة على ظهر درّاجة هوائيّة.

البّاب المُغلق تنكيّ أيضاً وبرزّاتُ حديد.

غمر جواد المدفأة بجسده وراح ينشّف نفسه باسطاً يديه على المعدن الساخن تارةً، ودائراً ظهره له تارةً أخرى. وكان قد نزع حذاءه ووقف على الحصيرة حافياً فبانت قدماه مبلولتين لامعتين.

دعا حسين جواداً إلى العشاء إلاّ أنّه لم يبدِ رغبة في تناول شيء، ثمّ قال وفي صوته رنّة أسى:

- ألقوا القبض على جبّار اللاتينيّ[1].

- متى؟

ردّ حسين مبغوتاً.

- قبل قليل كان معه الرفيق سلام ولكنّه استطاع الإفلات، علينا نقل الأوراق إلى فوق.

- في هذا المطر؟

- أيّ تأخير قد يؤدّي إلى كارثة. جبّار الآن في التحقيق وقد نتعرّض إلى مداهمة.

- تعوزنا حقيبة جلديّة ثانية.

- معي أكياس نايلون. نضع القسم الأعظم من الأوراق في حقيبتي، وما تبقّى نعبّئه في الأكياس ونضعها في صندوق كارتون ثمّ نلفّه بغطاء مشمّع يقيه من المطر.

- هيّا إذاً!

---

١ لُقّب باللاتيني لحديثه الدائم عن الثورات اليساريّة في أميركا اللاتينيّة.

مكتبة الفكر الجديد

خرجا إلى الحوش الغارق في مياه الظلام. كان العالم يبحر في المطر، والريح تحدث جلبةً في سعف النخيل. فكّ جواد الحقيبة وحملها معه إلى الغرفة الثانية. كان حسين قد سبقه إليها وانهمك من فوره في إشعال الفانوس. أضاء النور الأصفر حيّز الغرفة المكتوم وحام ظلاّهما على الجدران كالأشباح.

الرطوبة والبرد والعتمة تعمّ المكان الذي بدا اللحظة ككهفٍ ضيّقٍ في ذبالة الفانوس المتراقصة. بان فراش مطويّ على سرير من الجريد، وصندوق خشب كبير تستخدمه العامّة عادةً كخزانة، وكرسيّ، وعلب كارتون ودرّاجة وطاولة قديمة من الخشب.

نشّف جواد الحقيبة بمنشفةٍ التقطها من على السرير، فرّغها من أكياس النايلون والغطاء المشمّع، ثمّ راح يملؤها بالتقارير الحزبيّة والمنشورات الإعلاميّة والنشرات التنظيميّة الداخليّة وكدس من جريدة طريق الشعب[1]. وكان حسين بدوره يعبّئ الأكياس بما يقع تحت يده من أوراق وكرّاسات وملفّات وما تبقّى من أعداد الجريدة ويدسّها في صندوق كارتون، ما عتم أن غلّفه بالغطاء المشمّع وربطه بسلك إلى سلّة درّاجته الخلفيّة.

شقّت الدرّاجتان تيّارات المطر والريح، جازتا شارع نظران الخالي وانزلقتا مسرعتين بمحاذاة النهر صوب جسر الغربان، ثمّ انعطفتا نحو سكّة القطار القديمة.

نور المصابيح يكشف جانباً من رذاذ المطر، وينعكس على أديم الدرب المغمور بالماء الجاري.

---

١ طريق الشعب: جريدة الحزب الشيوعيّ العراقيّ.

مكتبة الفكر الجديد

في الأعالي تكاد السماء تهوي من ثقل غيومها عليهما.

صارا ماءً. شعرهما، ملابسهما، أحذيتهما.

طريق محطّة القطار القديمة نهكته الأنواء، يبحر في الظلام والعزلة، يلبّده الطين وتنتشر في جنباته برك الماء، توغّلا فيه حتّى بلغا الجسر المتهالك الذي ما إن سلكاه حتّى أنّت أخشابه تحت عجلات درّاجتيهما، كأنّها توشك أن تتهاوى في نهر الخندق. بلغا مأوى العجزة، الكلّ هاجع لابد، المنطقة مقفرة، تضمّها غابات النخيل الملتحفة بالظلمة. الصمت يهيمن على المبنى المعزول ومصباح ينير فناءه. الدرب الموحش مضاء هو أيضاً بعمود كهرباء.

طرق حسين البوّابة الخشب غير مرّة فانفكّت عن جسد مهيدي الضخم. حيّاه جواد وسأله عن جودي، فانصرف مهيدي من فوره يناديه ويعلمه بالزيارة.

دخلا وراءه من دون انتظار وركنا درّاجتيهما في جوار المخزن. خرج إليهما جودي وحيّاهما. أبلغه جواد بقصّة اعتقال اللاتينيّ وبرغبتهما في وضع الأوراق في المخزن، وكانت تلك الرغبة بمثابة قرار تنظيميّ. لم يعترض جودي بل أبدى للفور تعاوناً وترحيباً، وهو وإن لم يكن منظّماً معهما لكنّه كان ولا يزال صديقاً للحزب الشيوعيّ العراقيّ وأحد مؤازريه السريين.

- مهيدي ينام هنا؟

استدرك حسين وقد ساورته الظنون بعدم كفاية سريّة المكان.

- لاتشغل بالك!

قال جودي حاسماً الأمر بثقة.

مكتبة الفكر الجديد

نقلا الحقيبة والصندوق إلى المخزن، ومهيدي يتململ يريد إبداء مساعدة ما، حتّى أفلح أخيراً في إبعادهما وترتيب وضع مناسبٍ للغرضين الغريبين بين صناديق الأغذية المعلبّة وعدول المؤونة وعلب الصابون. شكراه وأعطاه حسين خمسين فلساً فطفح وجهه فرحاً وعجّ ضحكاً.

غادرا المأوى سريعاً ومضى كلّ إلى سبيله.

استمرّ المطر في الهطول والريح في الهبوب. سعف النخيل يتلاطم والأنهر والسواقي تفيض. الغيوم تتماسك أكثر وأكثر، لا تريد الفكاك من السماء ولا من الأرض.

انهارت سقوف بعض الأكواخ القصبيّة، استحال مرور السابلة، توقّفت حركة المواصلات وشمل البلل أقطار الكون، غاصت مخلوقاته في الطين والمطر الغزير، وصار الناس يلعنون الشتاء وساعة الشتاء.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الخامس

العالم سينما

الغرفة دافئة، تتأرّج برائحة النهر الآتية من النافذة المفتوحة، رائحة الطين والأشجار المبتلّة والغرين والنباتات المتفسّخة إضافةً إلى رائحة التبغ العالقة بالهواء.

ضوء النهار يضيئها بأشعّة شمس العصر الباهتة، الشمس التي كانت قد أضنتها الغيوم وهبّات المطر في منعطفات الشتاء.

الأثاث القليل بسيط وضروريّ: كرسيّ وطاولة خشب بدرج، خزانة من الخشب الخفيف الصقيل، تلتمع في درفتها الوحيدة مرآة، مدفأة معدنيّة، سرير فرديّ يذكّر بالعزلة الأبديّة للبشر، وبساط من القطن الملوّن على أرضيّة من القرميد الأصفر. على الحائط رفّان مثقلان بالكتب، وفي الركن مروحة منضديّة كهربائيّة متروكة لأيّام الصيف.

من السقف تتدلّى ظُلّةُ مصباح بيضاء على الطاولة مباشرة.

الغرفة تلك تقع في الطابق الثاني من بيت يشرف على التقاء دروب

مكتبة الفكر الجديد

حارات ثلاث: الصبخة الصغيرة ونظران والباشا، من طنفه تتطاير سنونوات وواجهته متهدّلة من فرط شيخوختها.

إنّه مبنى نهريّ من بقايا مباني الباشوات العثمانيين.

استأجر بدر تلك الغرفة فيه لرخصها وشاعريّة موقعها. فأمامها جسر ونهر وضفاف معشبة، وفي روح البناء برمّته أثر من الطراز المعماريّ العثمانيّ، أثر من تلكم الخانات والقصور والمدارس الغابرة، بناءات تقيم في ذلك الماضي البعيد الساكن الجميل والثري بالراحة والمتعة والغموض.

لكنّ عقبة كأداء جهدته وأربكته، كانت حائلاً دون حريّة حركته كما يريد: المرافق مشتركة: المطبخ ودورة المياه، لذا اتّفق مع أهل البيت على ابتياع وجبتين يومياً منهم متخلّصاً بذلك من مؤونة الطبخ في مطبخهم، ومتخفّفاً من مشقّة ارتياد المطاعم، إلى مانعٍ آخر ظلّ مستعصياً عليه ولم يتيسّر له اختراقه: الزيارات ممنوعة إلاّ في حالات محدودة، فللبيت حرمته وخلوته المصونة، ففيه نساء، زوجة وبنات وغيرهنّ من الأناث الداخلات الخارجات، جارات ومعارف يقتلن الوقت بالثرثرة والنميمة وشرب الشاي والقرفة المنكّهة بالليمون والطبخ وقصقصة اللب وحفّ الوجه وصبغ الأظفار وحتّى التدخين، وكنّ لا يبخلن عليه بأقداح الشاي وسواها. ولم يكن يستطيع شيئاً حيال قرقعة الأواني وصخب الراديو والتلفزيون والضجيج السائد دائماً في الطابق السفليّ خلال انهماكه في كتابة قصّة أو مقالة، أو انغماره في التأمّل أو استغراقه في النوم، لأنّه كنزيل لا يجرؤ على الحدّ من حريّة أصحاب الدار، ثمّ من

مكتبة الفكر الجديد

يقوى على الدخول في مشادّة مع جمهرة نساء مدعومات برجالٍ شرسين؟ دع عنك صعوبة استئجار غرفة رخيصة وبمواصفات جماليّة مناسبة، بالتالي ما عليه إلاّ أن يتحلّى بالصبر، فالمرء لا ينال كلّ ما يريد مرّةً واحدة.

سعديّة: البنت الظريفة ذات الوجه المنمنم، والنحافة المحبّبة، والابتسامة البديعة، والنظرة الفضوليّة، والنشاط الجمّ، صلة الوصل بينه وبين سكّان البيت، تدقّ بابه فتناوله الطعام، وإذا تباطأ تضع الصينيّة على الأرض وتمضي. يناديها إذا احتاج إلى شيء، وكان في كلّ مرّة يكرمها ببعض المال، حتّى قالت له أمّها ذات مرّة وهو في طريقه إلى الخارج:

- معذرة أستاذ، لا تعطِ سعديّة نقوداً!

فابتسم محرجاً وقال منتقياً ردّه في أناة واختصار:

- لشراء الحلوى.

- أبوها لا يقبل ذلك.

- حسناً.

قال والابتسامة لا تزال معلّقة على وجهه تكاد تسقط على الأرض، وهو والحقّ يتجنّب هذه المرأة أم سعديّة، فيها شيء من القوّة والجرأة، كما يخالجه إحساس بأنّها ترغب في معرفة كلّ شيء عنه أو هي عرفت تقريباً، فبدا كأنّه واقع تحت سيطرتها.

كان إذا نزل يتفرّس فيه بفضول، هي وبناتها وربّما إحدى صاحباتها، ولا تخلو شفاه إحداهنّ من ابتسامة مرحة، ولكن مشوبة بسخرية ما، حتّى إنّ وشوشة تتداعى إليه وهو في خطواته الأخيرة

مكتبة الفكر الجديد

ماضياً خارج الدار، تتلوها كركرات مكتومة، لكنّه يمضي في سبيله غير آبه لهنّ.

ظهراً في أيّام الشتاء يلوذ بالشمس والعزلة جالساً إلى طاولة الكتابة، ودخان سيجارته يتراقص متصاعداً أمام النافذة المفتوحة المطلّة على الميتم وجسر الغربان ونهر البصرة القديمة. يرمي بصره إلى المارّة ويحاول أحياناً التمعّن فيهم بسبب شعوره بالوحدة.

على طاولته أدواته الدائمة: قلم وممحاة وورقة بيضاء، وهو ما اعتاده منذ أن استهواه عالم الكتابة. ميله إلى البساطة والوضوح يعود إلى سذاجة طفوليّة جعلته متقشّفاً إلى حدٍّ ما وقانعاً، كما أن رقّة مشاعره تحمله على الأسى مما يرى حوله من فقر. إنّ عاطفته القويّة لتنزع به إلى أن يكون شفّافاً ومتأمّلاً، ثمّ وذلك أمرٌ حتميٌّ أن يكون منحازاً.

لم يكن بدر في واقع الحال إلاّ شخصاً رقيق المشاعر أكثر من كونه سياسيّاً، بيد أنّ أغلب أصدقائه الكتّاب يساريّون أو قريبون من اليسار، فصار بالتالي في مناخ سياسيٍّ من دون أن يقصد ذلك.

لقد سلك درباً لا تحبّذ الحكومة أن يطرقه أحد، وإلاّ جلب على نفسه غضبها وعقابها، حتّى وإن لم يكن منتمياً إلى حزبٍ سياسيّ. إنّ مجرّد الارتياب بأحدٍ ما يكفي في نظرها أن يكون شخصاً مثيراً للمتاعب لذا ينبغي تأديبه، فنال بدر مانال من سجن وإقصاء من وظيفته كأستاذ للغة العربيّة في مدارس البصرة القديمة، مما اضطرّته الظروف إلى العمل كمدير لإدارة سينما الشعب لإقامة أوده.

يضع يده على خدّه والورقة قدّامه تمضّه وتعذّبه، كأنّه يحر في

مكتبة الفكر الجديد

الظلمة للعثور على الأفكار، كأنه يمدّ يده في الظلام ليستخرجها ويصوغها قطعاً من النور تضيء أنامله.

يمكث صافناً أحياناً لفترةٍ طويلةٍ من دون أن يخطّ حرفاً واحداً، فينتهي به الأمر إلى شتات ذهنيّ ويشرع يحدّق هنا وهناك، فتغريه الحال لأن يقوم فيحلق ذقنه أو يفتح المذياع أو يقرأ، لكنّه يكبت هذه الرغبة وتلك ويلبث متسمّراً حيال الورقة يعاني الأمرّين.

وكان يعتمد أسلوباً خاصّاً في الكتابة: اختيار عنوان للقصّة أوّلاً ومن ثمّ يناور في مسارات السرد وفخاخ اللغة، ينحت، يتأجّج، ويهمس.

حسنٌ، هو الآن قد اختار عنواناً موحياً يستطيع من خلاله نسج سردٍ قصصيّ يناسب بيئة الحدث: رائحة الشتاء.

والحقيقة أنّ العنوان جميل كعنوان قصّته الأولى الناجحة: القطار الصاعد إلى بغداد، والتي أثارت عاصفةً من الاستحسان حينما نشرها قبل تسع سنوات في مجلّة الآداب البيروتيّة.

يكتب قصّته أوّلاً بالقلم الرصاص ممعناً في الحفر والمواراة، دابّاً في دهاليز متشعّبة تحت السطح كالخلد، حتّى ينتهي بعد ثلاث مسوّدات إلى تثبيتها بالقلم الحبر قبل إرسالها إلى النشر. وهو حتّى في هذه المرحلة تعروه وساوس تعذّبه خشية أن تكون جملة ما معفّرة وغير مرصوفة، أو أنّ كلمة تكرّرت غير مرّة في السطر الواحد وحتّى في الصفحة الواحدة، حينذاك تنتابه لو حدث ذلك رعدة كما لو أن عاراً لحقه. يتفحّص المترادفات واحدةً واحدةً مثلما يفحص المرابي دفاتره، ويعيد صوغ بعض الجمل المرّة تلو المرّة لا يكلّ ولا يملّ،

مكتبة الفكر الجديد

لذا فإنّ القاموس لا يفارق طاولته، منجد متقن وضخم مجلّد بجلد زيتونيّ أخضر طُبِعَ في لبنان العام ١٩٤٧ لصاحبه العلاّمة الأب لويس المعلوف، مع عدّة مراجع للنحو في مقدّمها كتاب الشيخ مصطفى الغلاييني. حصون يمترس بها يقينيّاته واضعاً حدّاً لشكوكه ومطفئاً مفاجآت اللغة، يعود إليها بين الفينة والفينة لنفض الريبةِ عن مسألة لغويّة تعترضه.

في خضمّ انشغاله في الجري وراء جملةٍ تنزلق وتتفلّت يصفن طويلاً غائراً في أدغال تصوّراته، ثمّ يعود من هيمانه ويحدّق مليّاً من خلال النافذة إلى الدروب وأشجار الميتم والسابلة وجسر الغربان، فتنتابه الرغبة مثل كلّ مرّة في ترك الكتابة. ينتبه كأنّه ارتكب ذنباً ويطرق على الطاولة محاصراً بإيقاع الورقة والقلم.

في هذه اللحظة وقع بصره على رمزي وهو يتسكّع، يمشي في خطٍّ مستقيم في محاذاة الضفاف ثمّ يتأنّى، يلتقط شيئاً ما، يرميه ويضربه برجّله. يطلّ على النهر ويبصق ثمّ يواصل سيره متفحّصاً النباتات والمياه.

تعقّبه بدر بنظره مشدوداً إلى مساره حتّى إذا شاهده يعبر جسر الغربان باتجاه البيت خفق قلبه، فذلك الفتى مثل ملاك يذرع الأماكن موزّعاً هداياه. أشرق وجهه واحتدمت روحه بالفرح حاشداً أحاسيسه، منتبهاً ومصيخاً السمع، فوصله ذلك الطرق المعتاد على الباب الرئيس مترادفاً مع خلجات قلبه، طرقٌ له جاذبيّة ساحرة.

تناهت إليه أصواتٌ منغّمة بالسلامات والتحيّات، ثمّ سمع خطوات مندفعة سريعة تتناهب الدرجات وتخبطها، وأخيراً قُرِع

مكتبة الفكر الجديد

باب حجرته. توقّعه في مكانه. استدار عن كرسيه ناحية الباب وقال في نبرةٍ مرحّبة:

- ادخل رمزي!

دلف إلى الداخل رمزي الصغير النحيل والوسيم، بسحنته السمراء التي لوّحتها الشمس فأدكنتها، وبيجامته التي تخيطها له أمّه فيظلّ متسربلاً بها في البيت والشارع، بنعله البلاستيك المترب بغبار الدروب، وشعره القصير المقصوص الذي أبان أذنيه كبيرتين وعاريتين.

تطلّع في بدر بعينين مرتبكتين وقال من بين أنفاسه المبهورة:

- مرحباً عمّي.

- أهلاً رمزي تفضّل!

- سلوى تقول: اليوم الساعة الحادية عشرة عندها في القصر.

باحت عينا بدر بالغبطة وحفلت الأشياء من حوله بالبهجة، صارت مهرجان نور. وكان يودّ لو يسأله ولماذا ليس في السينما غير أنّه كبح اندفاعه لائذاً بابتسامة عرفان الجميل، وسأله للتمويه على فرحته المباغتة برغم أنّ رمزي لا يفقه شيئاً في أمور العشق والعشّاق:

- واين رأيتها؟

- جاءت إلينا في البيت.

قال رمزي وتريّث، ولمّا لم يكن مهتمّاً بمغزى ما يجري حوله، أجال نظره في أرجاء الغرفة ماسحاً بعينيه الأثاث الفقير فلم ينشدّ بصره إلى شيءٍ معيّن، ثمّ تابع قائلاً مبلّغاً رسالة تلقينيّة تبعثها أمّه قبل كلّ زيارة للسينما، للاحتفاء بهما هي وزوجها إسماعيل:

مكتبة الفكر الجديد

- أبي وأمّي قادمان الليلة لمشاهدة الفيلم.
- أهلاً وسهلاً، وانت الا تأتي معهما؟
- لا، سأبقى في البيت، فالفيلم طويل وغير مناسب للصغار، قال أبي.

ردّ في جديّة مشوبة بالكآبة.
- صحيح، في المرّات القادمة سأجلب أفلاماً مناسبة وستدخل مجّاناً كالعادة.

لم تنمّ ملامح رمزي على فرح ما، إذ ماذا تعني الوعود بالنسبة إليه، فهي سرعان ما تنسى، بل هو يجد أنّ الكبار يكذبون بسهولة ويلوحون غير مقنعين. كان يسوؤه عدم الاكتراث هذا الذي يواجهونه به.

- مع السلامة عمّي.

ختم الحديث بسرعة وانكفأ راجعاً فناداه بدر وأعطاه خمسين فلساً. شكره رمزي ونزل الدرجات جرياً إلى الخارج قاصداً بائع سندويتشات الفلافل الواقف في جوار مدرسة النبراس الابتدائيّة.

* * *

على عربة خشبيّة تصرّ لشدّة قدمها، يجرّها حصان نحيل أحمر يدبّ بطيئاً في الأزقّة، تنتصب لافتة إعلانيّة ملوّنة ضخمة لفيلم لورنس العرب، تهتزّ مع اهتزازات العربة وارتجاجاتها. يظهر فيها محيّا لورنس أبيض طموحاً مكسوّاً بإيماءات الكبرياء، وعيناه الزرقاوان

مكتبة الفكر الجديد

تنظران إلى المستقبل في ثقة ترومان الهدف المرتجى، وملابسه العربيّة البدويّة تناسب أفكاره ومغامرته وتفارق في الوقت نفسه سماته الانكليزيّة، فتعطي انطباعاً قويّاً بحقيقة مغامرته. هاهو يطلّ شامخاً على الدروب والحارات مثل لعبةٍ حلوةٍ تريح الناس، ولو إلى حين من عناء كراهيّتهم للإنكليز.

لصقها لافتة أخرى ترتجّ كصاحبتها، تطالعك فيها صورة ثانية مستنسخة يدويّاً للورنس نفسه ولكن في وضعٍ آخر: مدمّى، مكبّل، ملقى على مصطبةٍ خشبيّة نصف عارٍ، وعيناه الذليلتان ترنوان جانباً إلى المارّة، تنضحان ألماً ورجاءً، تناشدهم المعذرة على ضعفه وقلّة حيلته وما سيحلّ بجسده من تلوّث وبشرفه من عار، وفوقه يقف ضابط تركيّ شهوانيّ الوجه حادّ الملامح، ينظر إليه فارجاً ساقيه كأنّه يهمّ باغتصابه.

يقود العربة تلك تومان الأسود: شيخ طويل مفتول العضلات، يصادفه السابلة أحياناً في الشوارع مزهوّاً كالديك، ولعلّ مبعث فخره وكبريائه كما يقال هو ظهوره في التلفزيون لعدّة دقائق عازفاً على الناي بأنفه في البرنامج المحبوب (مواهب من بلادي).

والمعروف أنّ إيقاع حياته ينوس بين العمل الشاق الوقتيّ نهاراً، ومنادمة الغلمان والسكر في بساتين النخيل ليلاً.

تمرّ عليه أوقات طويلة يتشرّد فيها، يخبط في الشوارع، لا مكان معروفاً لديه،لا بيت ولا أسرة، ينام حيث يعمل، إذا كان ذلك متاحاً له، ويعود في أيام البطالة إلى غابات النخيل حتّى شاخ وابيضّ شعره. يتسكّع في الجوار، يقف لدى دكّان مسعود القزم، غير أنّ أحداً

مكتبة الفكر الجديد

لا يجاذبه الحديث، ومن يأبه لشيخ أسود متهتّك، متسكّع وسكّير؟ فيروح يجلس على جرف شطّ نظَران يتناول رغيفاً ساخناً وقنينة بيبسي وحيداً، خلق الأسمال، غير مبالٍ، يشخص ببصره إلى المياه؛ لكنّه والحقّ يقال لا يزال متوقّداً بالحياة والقوّة، حتّى لتظنّه سيفزّ اللحظة للقيام بأشقّ الأعمال لدى أدنى إشارة أو نداء.

وكان تومان لحسن حظّه وشهرته قد لعب دوراً صغيراً في إحدى قصص بدر، فاصطفاه بدر لمّا بلغته حكايات تشرّده عاملاً في سينما الشعب، لحظة استلامه إدارة شؤونها.

وهاهو الآن يطوف في الحارات سائقاً العربة في سيرٍ بطيءٍ متلكيء، وهاتفاً بصوتٍ عالٍ على بضاعته:

تعالوا إلى سينما الشعب!

اليوم لورنس العرب

البطل الحلو أبو عيون الزرق

يركب الجمال ويلبس العقال

معارك طاحنة ومشاهد فاتنة

تعالوا إلى سينما الشعب، تعالوا!

* * *

يبدأ بدر عمله في حدود الساعة السادسة. يدخل جوف السينما من بابٍ صغيرٍ خلفيّ فتدهمه رائحة عفن خاصّة بالأماكن المغلقة. تحتويه الظلال وتتدفّق أمام عينيه الإعلانات السينمائيّة، صور

مكتبة الفكر الجديد

الممثّلين، ومشاهد الأفلام وتداعياتها الدراميّة.

يتفحّص مدخل السينما والقاعة الداخليّة ويوجّه العمّال إذا وجد نقصاً خدمياً. يتملّكه شعور بأنّ السينما كائنٌ معتمٌ تكتنفه عزلة مريحة، يمتلئ بالأنفاس والأصوات وتلاحق أضواء اللقطات.

وهي حال يعيشها المشاهد عموماً فتنقله من يومه المتعب، المأزوم، إلى عالمٍ آخر مريح ومكتنز بالأحلام، فيتخفّف من عناء حاضره صائراً فيَ زمنٍ وهميّ، طائفاً في مياه الظلام حتّى الذوبان والاختفاء.

يفتح أحد العمّال الباب الحديديّ ساحباً جناحيه المشبكين إلى جانبيه فيتدفّق الجمهور المنتظر، ويعلو الضجيج متردّداً في الباحات والأروقة، طاغياً على نداءات العمّال المشرفين على حفظ النظام.

يدخل بدر قمرةً قائمةً تجاه المدخل ويغلقها عليه، ثمّ يتّخذ مكانه إزاء منضدة تعلوها دفاتر التذاكر وحاوية الفكّة المعدنيّة. أمامه كوّة واطئة تغلق وقت الإقفال، عبرها يتمّ البيع وتبادل الحديث مع الجمهور. لا أحد يرى أحداً. لوهلة وبينما هو في خضمّ عمله يقطع التذاكر لم تمتدّ يد عبر الكوّة ولكنْ طَرَقَ سمعه صوت مألوف:

- مرحباً أستاذ بدر.

أغلق الكوّة وانسحب من القمرة المضاءة بمصباحٍ واحدٍ إلى الصالة المنوّرة بمصابيح الفلورسنت فصار في مواجهة إسماعيل وزوجته الفاتنة نادية. كانا يقفان بين جمهور ينظر إليهما في فضولٍ ومهابة، فأناقتهما تدلّ على انتمائهما إلى طبقةٍ أرقى، تنأى بنفسها عادة عن التردّد إلى سينما شعبيّة كهذي.

مكتبة الفكر الجديد

هتف بدر من فوره صاخباً مهتمّاً متهلّل الوجه:

- أهلاً، أهلاً بأبي رمزي وأم رمزي، يامرحباً، تفضّلا!

ثمّ دعا بجفاف الواقفين في فوضى أمام شبّاك التذاكر إلى الانصراف والعودة بعد ربع ساعة، هازّاً يده كأنّه يهشّ غمامة من الذباب، فانفضّ الجمع متذمّراً مستاءً.

بان الكبر على إسماعيل ولكنّ قامته لا تني معتدلة وخطواته ثابتة باندفاعها المتعالي، ووجهه الجاد يسبغ عليه سمات محايدة. بذلته رماديّة، رباط عنقه ملوّن، شعره أبيض، وصلع خفيف يعتور مؤخّر رأسه. أمّا نادية فكانت واثقة من نفسها، ممتلئة من دون بدانة، وجهها مشرق وسلوكها أكثر حيويّة وانفتاحاً.

- اختصرنا من الفيلم أستاذ إسماعيل ما يقارب الساعة وأربع دقائق.

قال بدر وهو يقود ضيفيه إلى أعلى عبر درجات إسمنتيّة كالحة، وحيطان مدهونة بلونٍ أصفر، ماضياً بهما إلى الشرفة الخاصّة بالمقصورات المطلّة على الصالة.

- وماذا بقي منه؟

استفسر إسماعيل مستغرباً مستاءً.

- ما يناهز الساعتين والنصف، فالفيلم طويل جدّاً.

- وماذا حذفتم؟

- المقدّمة وكلّ مشاهد الجنرال اللنبي في القاهرة والقدس ودمشق، ولقاء الصحفي بنتلي الملك فيصل الأوّل ولائحة الكادر في الخاتمة.

مكتبة
الفكر الجديد

وصلوا إلى رواق الشرفة. أزاح بدر ستارة قرمزيّة ثقيلة داعياً ضيفيه إلى الدخول ولبث ممسكاً بها إلى أن مرّا؛ ثمّ اصطحبهما إلى مقصورةٍ أنيقة بمقاعد وثيرة منجّدة بالمخمل الأحمر ومسوّرة بحاجز خشبيّ.

اتّخذ كلّ من إسماعيل وناديه مكانه.

– ألم يؤثّر ذلك على مسار الفيلم؟

استفهم إسماعيل مواصلاً الحديث.

– بالطبع، لكنّ الجمهور معنيّ للأسف بمشاهد الحرب والإثارة ولا تهمّه كثيراً مؤامرات اللنبي ومساعديه، أظنّك أستاذي العزيز قرأت مذكّرات لورنس: أعمدة الحكمة السبعة.

ردّ بدر وهو يتّكئ على الحاجز فرغب إليه إسماعيل الجلوس في مقعدٍ شاغر لمتابعة الحديث، لكنّ بدر شكره مفضّلاً الوقوف لياقةً واحتراماً.

– نعم قرأتها.

– عظيم، إذاً لن يكون من الصعب عليك ملاحقة سياق الفيلم واستكناه الغموض الناجم عن القطوع.

– أقصد ألا يربك ذلك الجانب الفنّي من الفيلم؟

– من سيلاحظ ذلك؟ سترى بعد قليل أيّ نوع من المتفرّجين نستقبل يوميّاً، مع ذلك فالقرار يعود في النهاية إلى صاحبة السينما، اتّخذته بسبب طول الفيلم.

– ومن تكون؟

– عفيفة.

مكتبة الفكر الجديد

رفّ شبح ابتسامة على شفتي نادية فيما زوجها يقول:

- لابدّ أن تكون هذه المرأة مثقفة حتّى تختار فيلماً كهذا.

- دلّتها عليه إحدى صديقاتها.

اتّسعت الابتسامة الحيّة على فم نادية كأنّها تعرف جانباً من الحديث متوارياً، وغمر وجهها مرحٌ مهذّب متحفّظ حتّى إنّها بعد انصراف بدر، كأنّها كانت تنتظر انصرافه على أحرّ من الجمر، مالت على زوجها قائلة وعيناها تلمعان بخبثٍ طفوليٍّ يعبّر عمّا يجول في خلدها:

- ألا تعرف عفيفة؟

- أنّى لي أن أعرفها؟

ردّ إسماعيل لاوياً شفتيه مستخفّاً شأنه حينما يرى الموضوع غير جديرٍ بالاهتمام:

- عفيفة المسترجلة، ألم تسمع بها؟

- لا.

- قال صديقاتها قال!

- وما أهميّة الأمر؟

- حريّاً به أن يقول عشيقاتها.

- وما الضير في ذلك إذا كنّ مثقّفات، دعينا من هذا الهذر نادية بالله عليك!

لزمت نادية الصمت. اكفهرّ وجهها حتّى خيّل إليها أنها على وشك الدخول في شجار مع هذا المخلوق الشرس الذي لا يتفاهم، أو لعلّه يظنّ نفسه فوق الناس والطبيعة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد نفاد البطاقات أعلن بدر بدء العرض وأغلق الكوّة.

دبّ حسيس الاستهجان وتلكّأت جماعة غير راغبة في الانصراف، فقام العامل المساعد بطردهم إلى الخارج، وسحب مصراعي باب السينما محدثاً صلصلة غاضبة، ثمّ أغلقهما بالسلاسل والأقفال كأنّه يرتّج باب سجن. خلا المجال أمام السينما من الناس وبقيت على الأرض أعقاب السجائر وفوارغ المرطّبات وبقايا السندويتشات يدوّم عليها الذباب، ووجه لورنس العرب يطلّ من الواجهة الإعلانيّة على الدرب الفارغ ناظراً في طموحٍ وكبرياء إلى البنايات النهريّة العتيقة الصامتة.

مضى بدر إلى غرفة الإدارة ليودع غلّة اليوم في خزانة حديديّة هائلة مثبّتة إلى الحائط، ثمّ عاد وارتقى الدرج إلى الرواق المحاذي لشرفة المقاصير، سلكه حتّى منتهاه ودخل غرفة مضاءة بمصباح فلورسنت.

في الوسط يقوم جهاز العرض السينمائيّ وكرسيّ واطئ له حشية إسفنج قديمة، ومنضدة مدبّقة بآثار أقداح شاي سالفة، تعلوها منفضة سجائر، وفي الخلف تقبع مروحة كهربائيّة وسلّة مهملات وطاولة عمل وخزانة بعدّة أدراج وبكرات أفلام بعضها على الأرض والبعض الآخر معلّق على الجدار.

الأرض الإسمنتيّة مكشوطة وملوّثة بآثار زيت بفعل الأعمال التقنيّة، وفي السقف منفذٌ للتهوية.

في الحاجز أمام جهاز العرض فتحتان: الأولى ينبثق منها وقت التشغيل شعاعٌ نفّاذ يمتدّ فوق الجمهور نحو الشاشة والثانية لمراقبة

مكتبة الفكر الجديد

مسار الفيلم، تليهما لوحة مفاتيح الإضاءة والتحكّم والطاقة الكهربائيّة والصوت.

على الحيطان قصاصات ملاحظات وتقويم كوكاكولا قديم وخرابيش وآثار مسامير وصور ممثّلين وممثّلات ومشجب للملابس ورفّ تتراكم فوقه خرق وقنّينة وقدح وملفّات وأقلام.

توقّف المطر فجأة كما هطل في موجةٍ مباغتةٍ شديدةٍ أوشكت السماء معها أن تنهار على الأرض في جلجلةٍ استحوذت على حواس بدر.

الآن لا تبلغه إلاّ جلبة الجمهور وهتافات بائع اللب والبيبسي والعلكة.

أشعل سيجارة، عبّ منها نفساً ثمّ وضعها على حافة المنفضة. شعر بأنّه غير راغب في العمل وأنّ الزمن يجري ببطء، لعلّ لهفته إلى لقاء سلوى تجعل كلّ ما ينشغل به باهتاً وفارغاً، ولعلّه لم يُخلَق ميكانيكياً أصلاً، إذ لاميول لديه إلى العمل اليدويّ الحرفيّ. لقمة العيش تريك المشقّة وتعلّمك الصبر. لحسن الحظ أنّ الموظّف الميكانيكيّ يقوم بالقسط الأعظم من الأعمال في نوبته الصباحيّة.

أدار بدر أحد الأزرار فانطفأت الأنوار، غمر الظلام الصالة وخفت الصخب. أدار زرّاً آخر فانفتحت الستارة القرمزيّة ببطء عن الشاشة وانشدّ النظارة إليها منجذبين إلى سحرها، ثمّ انبعث ضوء قويّ من الكوّة، تراءت عبره غمامات دخان السجائر.

أزّت آلة العرض دائرةً في هريرٍ رتيبٍ متواصل، فاندلعت أولى صور الصحراء العربيّة بهيّة أخّاذة ومهيبة، كأنّها ستغرق المشاهدين

مكتبة الفكر الجديد

الجالسين تحتها بالرمال، في حضرة موسيقى تصويريّة هائلة التأثير على الأسماع والنفوس.

كان المتفرّجون يضجّون ويصرخون مستثارين متهلّلين حين يشنّ الثوّار العرب في حميّة وشجاعة هجمات قاتلة على القوّات التركيّة المرتبكة والمنسحبة، وكانت تُسْمَعُ هتافات التشجيع وصيحات السباب والشتائم تتعالى مع أزيز الرصاص وقصف المدافع وصهيل الخيول وهدير الجمال.

وعندما وقع لورنس في الأسر تحت رحمة ضابط تركيٍّ راح يحقّق معه متحسّساً جسده العاري في شهوانيّة واشتهاء، اهتاج المشاهدون وصفّروا وتعالى زعيق أحدهم معبّراً عن رغبة الجمهور:

- اركبه! اركبه!

لكنّ اللقطة المثيرة انتهت برمي لورنس خارج المخفر بعد منتصف الليل من دون الولوج في تفاصيل الاغتصاب بكاملها، فلقد اكتفى المخرج بالإيحاء إلى الحادث فقط، مما حمل المشاهدين على الصراخ والاحتجاج شاتمين المشرف على العرض (وهو هنا بدر بالطبع) لظنّهم أنّه هو وراء قطع المشهد الساخن لأسباب أخلاقيّة.

- رعاع.

نبر بدر في غيظ واحتقار.

غطّت نادية وجهها بيديها حياءً وجسدها يهتزّ ضحكاً تريد أن تكتمه، ثمّ أدارت عينيها الضاحكتين إلى زوجها ليشاركها مرحها لكنّها وجدته مستغرقاً في متابعة الفيلم غير آبه لما يجري في الصالة،

مكتبة الفكر الجديد

وجمرة سيجارته تتوهّج في الظلام كأنّها تنبض باهتمامه وتمتّعه بما يدور أمامه على الشاشة.

سرعان ما خفتت الجلبة بأصواتها المبهمة المتقاطعة حتّى ليلوح أنّ الجموع قد هدأت وراقت، بيد أنّ الهدوء لم يدم طويلاً حتّى عجّت الصالة وضجّت بأزيز الرصاص وصهيل الخيول، ولورنس يشهر سيفه طائراً على جمله يهجم على الأتراك المنسحبين ويهتف في لؤم وشهوةٍ إلى الانتقام:

- لَا أسرى.

مما زاد في هياج المتفرّجين وحماستهم، فاصطخبوا بالصراخ والتهليل وترامت صيحات التشجيع والإعجاب، وعندما انتهى المشهد المثير وبدأ مشهدٌ فاتر خفّ الضجيج وعاد الهدوء النسبيّ إلى الجموع المستثارة، في هذه اللحظة تناهى إلى مقصورة نادية وإسماعيل همسٌ شهوانيّ مليء بالفحش، بالإثارة والرغبة، مهيّج ومتهيّج.

- آآآه.. ياقاسيٌ.

- إيْ، هكذا، حلو، هاه؟

- يخبّل.

لهاثٌ وأنين وصرير خشب وبوح حارّ متأجّج بالاشتهاء.

جذبت انتباههما الأصوات واستولى عليهما الفضول. التفتا إلى المقصورة متفرّسين في ما تبدّى منها، مرهفين السمع لما يبدر من صاحبيها، فلمحا جزءًا مما يمكن تصوّره من امرأةٍ تتأوّد في حضن صاحبها صاعدةً نازلةً على وسطه والوشوشة ملتهبة جذّابة:

مكتبة الفكر الجديد

- آآآه.

- كلّه، إيْ كلّه، املأني!

- على مهلك، ارتفعي قليلاً، الآن، آه.

- آه حبيبي، ما أحلاه!

ألقت نادية نظرة مترعة بالحرج على زوجها فإذا عيناه تلتمعان إثارة وتهيّجاً.

العاشقان سادران في مرحهما، الجوّ يعبق بنداء الشهوة، الحواس تتفتّح مهتاجة بالشبق، والرغبة تحفّز الأعصاب. فار الدم في عروق إسماعيل وانتعض عِرْقُهُ منتصباً فبدا له أن يتلذّذ هو أيضاً في مكانٍ مفتوح، أن يتعهّر على المكشوف، شأنه شأن العامّة. فتحرّكت يده في لهفةٍ وغمزتِ نادية فجفلت، تحسّس يدها، شدّها إليه ووضعها فوق آلته مشتهياً.

سحبت نادية يدها مستغربة وهمست مستاءة:

- هنا، هل جننت؟

- لمَ لا؟

ردّ لاهثاً.

- لا.

- لا أحد، المكان مظلم، تعالي!

قال متوسّلاً وقد استبدّت به الشهوة.

- لنذهب إلى البيت إذاً!

- هيّا نادية، اللعنة، ألا نستطيع أن نفعلها هنا مثل الناس؟

- وهؤلاء ناس؟

مكتبة
الفكر الجديد

– ماذا هم؟

– أوباش.

قهقه إسماعيل في خفوت مدارياً خيبته وعاد بعينيه إلى الشاشة مختلساً النظر من حين إلى حين إلى مقصورة الغرام.

إثر انتهاء الفيلم واشتعال الأضواء حدّقا معاً إلى مقصورة العاشقين فوجداهما قد غادرا، فبارحا بدورهما السينما مع الجمهور الضاج المتدفّق خارجاً من المدخلين الأماميّ والآخر الخلفيّ الضيّق المخصّص لأصحاب الدرّاجات الهوائيّة التي يصفّونها تحت الشاشة مباشرة، فتحتدم عندئذٍ الصلصلة ورنين الأجراس والمشاجرات والتعليقات.

أشرف بدر وعلى وجهه علامات التعب وفي دخيلته شعور بترقّب المسرّات، على توجيه العمّال لتفقّد الصالة وكنسها وتنظيف المدخل ودورات المياه. أودع الحارس الوحيد المقيم فيها ماعنده من مفاتيح وغادر إلى الشارع، وكانت الساعة قد قاربت العاشرة وخمسين دقيقة.

الليل يغلّف محلّة السيمر. البيوت يخيّم عليها السكون، الشارع هادئ تقلقه بين آونة وأخرى سيّارة مارقة. آثار الأمطار مازالت ماثلة على الأرصفة والجدران، وأصوات نباح تُسمَع في الأزقّة.

الدروب تخلو من المارّة مع حلولِ المساء والدكاكين تغلق أبوابها.

قمر في السماء يعاند طيّات الغيوم بأشعّته الفضيّة الباهتة وأضواء الشارع تنوّر الفراغ فيبعث الخلاء في النفس وحشة.

مكتبة الفكر الجديد

حثّ بدر خطاه إلى قصر النقيب يدخّن ويمعن التفكير في واقعيّة دخوله القصر ليلاً. إنّها المرّة الأولى، سابقاً كان يلتقي سلوى في السينما. لابدّ أنّ أمراً ما قد استجدّ.

سار بمحاذاة شطّ العشّار ماراً بالبيت القديم الجميل الذي بات مخزناً لمديريّة تربية البصرة[1] حتّى بلغ محلّة الباشا. رفع رأسه على نحوٍ لاشعوريّ ورمى بصره إلى نافذة غرفته المظلمة. عبر جسر الغربان ومشى حتّى اجتاز الميتم. تريّث أمام السور العالي للقصر، مجّ دخانه ورمى سيجارته. الشارع فارغ، حسينيّة مقام الخضر مقفرة معتمة، وجسر نظران معلّق في الفراغ فوق مياهٍ وجروفٍ عتّمها الليل.

أما قصر النقيب فبناء رثّ يضمّ غرفاً عديدة وأروقة من بقايا العهود العثمانيّة البائدة: مظهر بائس يقاوم فناءه مستنجداً بأمجادٍ زائلة.

تقطنه أرملة الباشا العجوز الكرديّة شيرين خاتون[2]، وتسمّى غالباً الخاتون فقط.

وهي أقرب إلى المومياء منها إلى الكائن الحيّ؛ لاتفعل شيئاً غير الاستغراق في النوم والأكل وتدخين النارجيلة وتناول الأدوية،

---

١ كان مقرّاً للقنصليّة البريطانيّة في العهد العثمانيّ وقد قطنه لورنس العرب نفسه إبّان الحرب العالميّة الأولى وهو في طريقه إلى منطقة كوت العمارة لرشوة الضبّاط الأتراك، رجاء فكّ الحصار عن الجيش الإنكليزيّ بقيادة الجنرال طاوزند، غير أنّ الأتراك رفضوا العرض ودمّروا الجيش المحاصر وساقوا طاوزند أسيراً إلى الأستانة. بعد الحرب الأولى صار ذلك البيت مركزاً لإدارة مدينة البصرة بإشراف قوات الاحتلال البريطاني، ثم تحوّل بعد نصف قرن إلى مخزن للكتب المدرسيّة، وأخيراً جعلته الدولة متحفاً قبل أن يُنهب خلال الاحتلال الأميركيّ العام ٢٠٠٣.

٢ خاتون: لقب تركيّ شاع بين العامّة لتكريم المرأة مثل مخاطبتها بالسيّدة والآنسة.

مكتبة الفكر الجديد

ولاتحبّ من اللهو إلاّ التلفزيون والاستماع إلى أغاني محمّد عبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش هي سلوتها في فراغ أيّامها ورأسها، على الرغم من معاناتها عدم فهم اللغة العربيّة على وجهٍ صحيح، إلاّ أنّ الألحان نفسها تنقلها إلى ذلك الزمان الرخيّ: زمان البزق والعطر والأفيون.

تطبخ لها وتخدم مزاجها المتطلّب والمتقلّب الفتاة الصبور سلوى، ينظّف صباحاً ويحرس الرثاثة ليلاً العم صالح، الحرامي الذي شيّخته السجون قبل السنين، فاختار الانحياز إلى عالم الحرّاس لأن الضحيّة غالباً ما تأخذ سمات الجلاّد كما يخبرنا بذلك الراسخون في العلم.

تتعيّش الخاتون وتصرف على خادمتها وحارسها من كراء بساتين النخيل التي تركها لها زوجها المرحوم حامد النقيب، الباشا الإقطاعيّ العثمانيّ الولاء، والذي غدا بعد احتلال البلد شأن سائر أبناء طبقته عميلاً للإنكليز، ثمّ مات من وطأة البطنة والإدمان والكسل. ولم يخلّف ولداً، مما حدا أهل نظران على الغمز بسيرته مشنّعين عليه قائلين إنه كان مريضاً في إحليله لمصاحبته الغلمان وبنات الهوى، لكنّ أحداً لم يستطع تأكيد ذلك فاندرجت الأقاويل في باب الشائعات. على كلّ حال فالعم صالح لا يني يؤكّد في خلوته لأبناء المحلّة أنّ الخاتون لا تكنّ ودّاً للمرحوم وقد اعتادت لعنه حين يأتي مصادفة ذكره.

ألقى بدر نظرة على ساعته، إنّها الحادية عشرة بالضبط. دنا من البوّابة العالية، دفعها في رفق فانفتحت بسلاسة، مرق من فرجتها وردّ درفتها وراءه. تجاهه حديقة القصر المهملة مقفرة، يعمّها الصمت

مكتبة الفكر الجديد

وينوّر عتمتها ضوء واحد فوق الباب الداخليّ المزجّج. غرفة الحارس ساجية يندلق من شبّاكها نور واهن، كانت في الأصل غرفة للخدم. انسلّت من الداخل سلوى، كانت على الأرجح تراقب البوّابة من إحدى النوافذ. عانقته واصطحبته إلى رواق أضاءته ثمّ تواريا في غرفةٍ بنافذة تنسدل على جانبيها ستارة مذهّبة النسيج، قرض العثّ أطرافها.

الأرضيّة بلاط في معينات زرق وبيض متصدّعة، تتوسّطها سجّادة فارسيّة منسولة ناصلة الزخارف.

ينتظم الغرفة أثاث عثمانيّ الطراز: خزانة خشبيّة مهترئة كانت تضمّ في ما تضمّ ثياباً حريريّة من الأطلس والقطيفة وفرو السمّور والموسلين الأبيض والمزركش وملابس موشّاة بالذهب والفضّة وقمصان ذات رسوم مطبوعة وسوى ذلك، أمّا الآن فهي فارغة.

وطاولة زينة مزخرفة كانت سابقاً ملأى بالأمشاط والمكاحل والأقراط والأطواق والخلاخيل والأساور والقلائد والأبازيم وزجاجات العطور وحِقاق المراهم وعلب الذرور وأوعية الخضاب؛ وخوان محلّى بزخارف صدف تساقط بعضها، ومزهريّة خزف عملاقة مزيّنة بالورود خالية ومثلّمة الحواف، ومدفأة معدن مشتعلة، وثريّا تتدلّى من السقف، وسرير عريض اعتنت سلوى بفراشه وشراشفه ومخدّته، تلقاءه مرآة ذات إطارٍ فضّيّ صدئ تطل عليه.

في الجدران رواشن تضمّ نسخاً من القرآن الكريم في أكياسٍ قماشيّةٍ خضر ودوارق وكؤوساً من زجاجٍ ملوّن.

الغرفة نظيفة وجذّابة على الرغم من شيخوختها.

استلقيا على الفراش متعانقين يتباوسان. أجال بدر الطرف في

مكتبة الفكر الجديد

جنيات المكان وسألها مستغرباً انفراج الوضع على هذا النحو المريح الذي يسهّل لقاءهما:

- خلوة حلوة مثل لوحةٍ قديمة، أهذه غرفتك؟

سأل ولم يكن قد رأى الغرفة من قبل.

- بلى، هي في الأصل غرفة الباشا، حلوة برغم قدمها.

- ولماذا غيّرت رأيك؟

- بشأن ماذا؟

- اللقاء في السينما.

- ذات مرّة وأنا عندك استفاقت الخاتون، أرادتني لأمرٍ ما فافتقدتني، فحدست بأنني أتسلّل تحت جنح الظلام إلى الخارج. صباحاً قالت لي بصراحة "هات صاحبك عندي في البيت حين ينام الناس، لاضير، ولكنْ ليس كلّ يوم"، كلّ ما يهمّها أن تجدني ليلاً حين تطلبني.

- والعم صالح؟

- القرار قرار الخاتون، العم صالح مجرّد خادم يخدمها، لكنّه ثرثار، قال لمّا عرف بالقصّة: إذا كان يحبّك لماذا لا يتزوّجك؟ ثمّ ضحك وتساءل مازحاً: هلاّ دبّر لي الأستاذ واحدة حلوة مثلك؟ العم صالح ليس أكثر من عجوزٍ عابث.

- هذا قصر المركيز دو ساد بحقٍ وحقيق.

قال بدر في مرحٍ ظاهر.

تعرّيا، تعانقا، جسد سلوى يتضوّع بعطرٍ طيّب، مدّت يدها أسفل بطنه وجعلت تفركه تملّسه وتمسّده. التقم حلمتيها ورضعهما

مكتبة الفكر الجديد

الواحدة تلو الأخرى. وضعت رأسها بين فخذيه وتناولت لحمه بفمها، مرّر لسانه بين ساقيها وراح يداعبها.

اشتدّت اللذة في جسده، تصلّب ودخلها غائراً فيها، وهي تحته مفتوحة تتلوّى وتئنّ ملتذّة. ضمّته إليها بقوّة شادّة جسده إلى جسدها.

كان يطؤها بكامل ثقله، يبوسها، يدعك نهديها، ويلحس أذنيها، حتّى إذا بلغ الذروة سارع فانفكّ عنها مريقاً ماءه على بطنها، فيما هي مستلقية على ظهرها خدرة باللذّة منتشية وشبعى.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السادس

منامات الغابة

لا يمكث الشتاء في هذه المدينة الاستوائيّة طويلاً، بل يلوح متعجّلاً سريع التململ، فينسحب فجأة كاللصّ ويختفي كأنّ شيئاً لم يكن.

والناس وإن كانوا كشتائهم يضيقون ذرعاً بحرارة الصيف، لكنّهم لا ينسون أن البرد يكلّفهم مالاً للتدفئة والفرش والألبسة، وإعمار ما خلّفته نوازل المطر والسيول بزراعاتهم ومآويهم.

أمّا في الربيع فيهلّ الدفء، تشرق الشمس ولا تتّقد، الهواء ينسم، تينع النباتات النامية على ضفاف نهر نظران، الطلع يتفتّح في بساتين النخيل فيشيع في الهواء عبير الخصب والنماء، وتكتظّ السماء بطيور السنونو والهدهد والذُعرة والفواخت والعقبان والزرازير، وتحوّم الحشرات على علوٍ منخفضٍ تزحم الجروف، تطنّ وتئزّ في صمت موقّر على زهور البِرسيم في الحقولِ، تحيي رقصة النهار في هذا الربض المخضرّ من العالم.

صوب النهر ينحدر شارع نظران ثمّ ينعطف فجأة عند حسينيّة

مكتبة الفكر الجديد

مقام الخضر. إنّ تلك العطفة الحادّة التي يحجبها جدار الحسينيّة غادرة لمن لا يعرفها من السوّاق، ومربكة لمن درج على المرور بها؛ وطالما انقلبت السيّارات وعربات الخيول في النهر، إذ لا توجد أسيجة ومصدّات لمنع تدهور العربات المندفعة الغافلة في النهر، ولا إشارات مرور للتنبيه كما هو معهود في أماكن أخرى.

على مقربةٍ من هذا المنعطف المتربّص بحركة السير، وبعد مقام الخضر مباشرة يقع بيت الملاّ جعفر، بواجهته الباهتة الرثّة المشرفة على فسحةٍ ترابيّةٍ، أصبحت على مرّ الزمن مدخلاً لزقاقٍ ينتهي بمنزل جوني البحّار.

لبيت الملاّ القرميديّ الواطئ سمات لا تختلف عن غيرها من بيوت المحلّة في طراز البناء المكوّن من غرفتين وفناء داخليّ، أمّا جانب الدار المواجه للنهر فعبارة عن دكّان ضئيل، يبين من جوفه المعتم الممحوّ المعالم رأس ابنة الملاّ أحلام أو أمّها.

والملاّ رجل نحيل، غامق السمرة، وخط الشيب شعره القصير ولحيته وشاربيه، في عينيه صفرة جرّاء مرضٍ أصابه في صباه، رأسه صغير مثل الفأر، ولحيته قميئة تضفي على سحنته أمارات الخبث والنكد وضيق الخلق.

اللحظة في غرفة النوم يقعد على حصيرٍ من القشّ متربّعاً، ويلمّ ذيل دشداشته البيضاء في حضنه، ولدى الباب نعاله الجلد.

المصباح الوحيد في الغرفة مُطْفَأ، فالشمس تغمر الباب المفتوح فتسبغ على أنحاء المكان ظلالاً فاترة تغلّف الأثاث: السرير العريض، دولاب الملابس، طاولة الزينة، الكوميدينو، منضدة عليها مقْرأ

مكتبة الفكر الجديد

للقرآن، وصورة كبيرة مؤطّرة على الحائط المواجه للباب للإمام عليّ بن أبي طالب، بكوفيّته الخضراء وملامحه الجميلة التي رسمها فنّان إيرانيّ على نحوٍ يقارب سمات أهل فارس: الوجه الأبيض المدوّر، الشعر الأسود الضارب إلى اللون البنّيّ، والعينان الواسعتان البرّاقتان.

يجلس الملاّ وقدّامه على سماط نايلون صحنا مرق بامية ورز وطبق من الأغصان المضفورة فيه خبز وبصل.

أخذ يمعن النظر في الملعقة، يقلّبها وغمامة من التوجّس تظلّل وجهه.

- يا امرأة هذه الملعقة غير نظيفة.

صاح متبرّماً فأتاه صوت زوجته غير المكترث كأنّها تهشّ ذبابة طرقت أذنها:

- نظيفة غسلتها الآن.

ثمّ تلتها غمغمة خمّنها الملاّ عبارة استياء، فتلك المخلوقة تكرهه ولا شكّ، قال لنفسه مستغرقاً في هواجسه، ثمّ انكبّ على الأكل يتذوّقه لشكّه في وجود ملحٍ فيه، فهو منذ إصابته بداء ارتفاع ضغط الدم تلبّسه وسواس الملح، بعدما حذّره الطبيب من الإفراط في استخدامه.

- في الأكل ملح.

صاح مخاطباً امرأته ثانية.

- لا.

ردّت وفي نبرتها ضيق.

- مالح قليلاً.

مكتبة الفكر الجديد

أجابها متشبّثاً بظنونه.

- ولا ذرّة ملح.

- اللعنة.

- مالك تلعن؟

مضى يمضغ بسرعة محدثاً صوتاً مسموعاً. كانت نفسه تجيش غضباً على امرأته، وفكّه يطحن الأكل متوتّراً، فعضّ طرف لسانه وأدماه. تقلّصت تقاسيمه ألماً وجعل يشدّ الخبز على الجرح ويتفرّس في بقع الدم التي تلطّخه، ومن فمه تنطلق شتائم ولعنات.

لسوء الحظّ كانت زوجته قد بلغت باب غرفته، تحمل إليه دورق ماء وقدحاً زجاجيين. وقفت وقد غمرها ضوء الشمس، فسألته مغتاظة:

- ما خطبك أنت؟

لم يعرها انتباهاً.

- إذا لم يعجبك الأكل اتركه!

وامرأته لاتقلّ عنه نكداً وشراسة.

توقّف عن الأكل وصاح:

- اغربي عن وجهي، لعنة الله عليك!

ثمّ رماها بسبحة سوداء كانت حذّه فاستقرّت في الحوش. جفلت المرأة وهي تصرخ:

- ماذا دهاك بحقّ السماء؟ إذا كنت تكره عيشتنا فاذهب إلى الساقطة عشيقة السخل الأسود.

كان لديها إحساس مرير بأنّه يفتعل الشجار لتبرير محاولاته

التقرّب من زهور، ومن ثمّ الاستيلاء عليها، وحتّى الزواج بها إن أمكنه ذلك؛ لقد أخذت الفتاة عقله وصار يرى أهل بيته مثل حجر عثرة في طريق غرامه الميؤوس منه.

قطعت المرأة الحوش بجرمها الضخم ومشيتها المنفعلة. بان لوقع خطواتها على الأرضيّة الآجريّة طقطقة، فبعض الطوب قد تخاخل على مرّ الزمن، دلفت من باب مفتوح إلى داخل الدكّان المزدحم بالرفوف وعلب الكارتون وأكياس الخيش فألفت أحلام ابنتها ذات السبعة عشر عاماً جالسة تبكي، وضعت ما في يديها على الطاولة، احتضنت ابنتها وباست رأسها.

– كفى أحلام، ألا تعرفين مزاج أبيك؟

قالت تداري خاطرها وهي تقتعد كرسيّاً في جوارها، ثمّ استرسلت كأنّها تؤكّد لنفسها ظنونها.

– إنّ قصده واضح ونيّاته مكشوفة وعاطلة.

– بتّ أكره هذا البيت ماما.

نهنهت وأمّها تمسح دموعها بيدها وتقول:

– حسنٌ أحلام، ما عسانا نفعل؟ ليست الأمور سيّئة إلى هذا الحد. غمامة وتمضي.

– لماذا تلمّحين إلى زهور؟ إنّها فتاة جيّدة، أنا أعرفها وإنّك لتظلمينها.

– أبوك حاط عينه عليها، لا يستحي، فتاة بعمر ابنته، والأنكى يعرف علاقتها بجوني.

نظرت إليها أحلام نظرة عاتبة ومتأمّلة:

– طيّب، لماذا تلومينها؟ ما ذنبهما إذا كانا يحبّان بعضهما بعضاً؟

مكتبة الفكر الجديد

- جوني لن يسكت على تطاول أبيك، وسينال منه يوماً.

قالت الأمّ ذلك وكأنّها ستنال منه بقبضة جوني.

- سأذهب ماما إلى بيت أم يوسف.

نبرت بصوتٍ ضعيفٍ يخامرة التعب.

- اذهبي ابنتي وروّحي عن نفسك! واتركيني مع ملاّ النحس هذا!

انفرجت ابتسامة واهنة على وجه أحلام وقبّلت أمها.

* * *

قبل ثلاث ساعات، في التاسعة صباحاً من يوم الجمعة ذاك، كان النهار رائقاً مشمساً والسماء زرقاء صافية، تسرح في أفقها زرازير وفواخت. الشارع الرئيس يضجّ بالمركبات العابرة إلى باب الزبير، الزحمة على أشدّها والمارّة يحثّون الخطى في كلّ الاتجاهات المؤديّة إلى سوق البصرة القديمة، يقطعون الطرقات غير مكترثين لنفير السيّارات.

في الهواء غبار وجلبة خاصّة يصعب تمييز أصواتها، على أنّ المرء لا يلبث أن يألفها، وهي على الأرجح ضجّة السيّارات والشاحنات التي تغلب ضوضاؤها على حركة عربات الخيل والدرّاجات ولغط المارّة ونداءات الباعة.

على مقربة من المكتبة الأهليّة لصاحبها فيصل حمود في محلّة السيمر، تأنّت أم يوسف على الرصيف المندرس المدفون في الأرض، بملاءتها السوداء المنسدلة عليها وحذائها الجلديّ الأسود كي تعبر الطريق، وعلى وجهها يقظة خاصّة لبلوغ مرادها، وشعور بالنشاط

مكتبة الفكر الجديد

يتملّكها، حتّى استطاعت بعد لأي المروق مع بعض المارّة إلى الجهة المقابلة العاجّة بالمتاجر والمقاهي والمطاعم وباعة الرصيف.

كانت تحمل سلّة خوص تضمّ لفّةً من اللوحات والورق الشفّاف، غلّفتها بمنديل من الساتان الأزرق لوقايتها على الأرجح مما يعتري المشوار من غبارٍ ووحلٍ وتراب.

التزمت جانب الظلّ فعباءتها تشبّعت بأشعّة الشمس وبثّت في جسدها حرّاً ماانفكّ يضايقها.

قادتها قدماها إلى محلّ حلاّقٍ عالٍ، ارتقت بضع درجات ودخلت، فنفحتها نسمات المروحة الطريّة الرقيقة التي أشاعت فيها الراحة، وخفّفت عنها وطأة حرارة عباءتها التي لا تستطيع أن تخلعها بالطبع. مسحت العرق عن جبهتها بيدها.

كان الحلاّق العجوز ينحني على رجلٍ مشتملٍ بملاءةٍ بيضاء يقصقص شعره. ألقت أم يوسف التحيّة فردّ الحلاّق عليها أثناء انهماكه في عمله، ثمّ استقصى:

– ها أختي؟ أمر، خدمة؟

لم يلتفت زبونه، وإنّما لبث صافناً ينظر إلى وجهه في المرآة.

– عندي تصاوير جميلة تزيّن بها محلّك.

– آها!

ردّ بلا مبالاة من دون أن يتوقّف عن عمله. ثمّ لزم الصمت كأنّه يقلّب الأمر في ذهنه، وهو لطيبته لم يشأ أن يخجلها برفضه، فقال أخيراً وفي لهجته شيء من الضيق:

– هاتِ أريني!

مكتبة الفكر الجديد

حطّت السلّة على الكنبة المواجهة للمرآة، تناولت اللفّة في أناة واستلّت منها لوحة واحدة ثمّ أعادتها إلى مكانها. عرضت اللوحة على الحلاّق، فيما أتلع الزبون عنقه وقد تملّكه الفضول فانبهر الاثنان.

غابةٌ من أشجارِ نخلٍ تتألّق خضرة يفترشها مرج من كلّ الجهات، ومن عثاكيلها تتدلّى حبّات تمر صفر طويلة كأصابع الموز. بين الجذوع شجيرات سرخس أوراقها عريضة حادّة الحواف كالأنصال. في الوسط تسمق زهرة عملاقة زرقاء تظلّل أسداً ينشب أنيابه ومخالبه في غزالٍ منتهكٍ مذعور. في الخلف تتسلّل شمس برتقاليّة عبر السعف، حيث تقف بومة ترمق المشاهد بعينين نفّاذتين. على المرج في الجوار يستلقي نمر يحدّق إلى المشاهد أيضاً.

نظر إليها الحلاّق وقال:

- حلوة.

استحوذت أجواء اللوحة على مشاعر الزبون وهو يتملاّها بعينين مكتنزتين بالدهشة والإعجاب والحيرة، كأنّه رأى مثل هذا المشهد في مكانٍ ما، في السينما أو المجلاّت المصوّرة.

- ما اسم هذه اللوحة؟

استفسر.

- أسد جائع.

- وهل هناك أسود في البساتين اليوم؟

تساءل يمازحها.

- لا، كان ذلك في الزمان الأوّل.

مكتبة الفكر الجديد

- أنتِ رسمتها؟

- نعم.

أجابت مزهوّة وأشرق محيّاها مبتسماً.

- جميلة حقّاً. كم تطلبين فيها؟

- نصف دينار.

أمسك ناوياً المناورة مع تشبّث غريزيّ بالشراء استولى عليه. انسحب الحلاّق إلى غرفةٍ داخليّة موقتاً فاسحاً المجال للزبون كي يأخذ راحته في المساومة والتمتّع بالشراء، بينما ساور أمّ يوسف شعور برقي عقل الرجل ورفعة ذائقته، مما جعل قلبه يتعلّق بغابتها، فسرّها ذلك.

- أعطيك ربعاً.

قال وعلى وجهه ابتسامة مائعة.

- خذها!

لفّتها له في ورقة شفّافة طالتها من سلّتها. تناولت مالها وانصرفت.

أمّ يوسف: سليمة السعد، في الخمسين من عمرها؛ وجهها أقرب إلى وجوه الفلاّحات سمرةً وإرهاقاً وحزناً مقيماً في العيون السود. نظراتها نائية، فأفكارها تستغرقها والتأمّل غالباً ما يأخذها إلى السهوم والغفلة. تستمدّ ثقتها من عنادها وقوّة شخصيّتها. تضع لنفسها تصوّراً وتلتزمه مما جعلها غير أليفة لدى الرجال، وأقرب إلى نفوس بنات جنسها، وإذا ما كان البعض يرى في سلوكها شيئاً من التمرّد فلأنّ الرسم كما يظنّون لا يليق بالنساء، ولا حتّى بالرجال، لأنّه شغل المتبطّلين، ولكنّها ترسم حينما تدرك في نفسها رغبة في

مكتبة الفكر الجديد

الرسم، وتواصل ما وجدت لتصاويرها سوقاً ورواجاً، وقتئذ خفّت وطأة التقوّلات، نالها الحسد وانفتحت عليها العيون، فتلك امرأة تخلق المال من لاشيء. طفقوا يغبطونها على نجاحها متمنّين في الوقت نفسه زوال نعمتها.

وهي وإن لم تكن فلاّحة إلاّ أنّ أهلها نزحوا من مناطق فلاّحيّة من أرباض بلدة القرنة، شمال البصرة.

على سهوٍ وبدافع فطريّ كانت تخطّ رسوماً على الأرض تارةً وعلى الورق تارةً، كما كانت تسترعي انتباهها وتشدّ مشاعرها تصاميم الملابس والملصقات وأغلفة المعلّبات وحتّى الرسوم الدينيّة.

ذهبت ترسم. رسمت الكثير، التمست أفكاراً واكتشفت أساليب وحدها. أبواب تفتح أبواباً في عقلها ومخيّلتها.

علّمها خلط العناصر المختلفة من ألوانٍ وورقٍ وقماشٍ وخشبٍ وماءٍ وزيت المغامرة وارتياد آفاق جديدة، كما دلّتها العناية برسم التفاصيل والتأنّي في إبرازها على ملاحظة الواقع الذي تعيشه، واستيعابه على نحوٍ أفضل وأدق.

الألوان قادتها إلى تتبّع تقلّبات الطبيعة والتعلّق بها، كما قادها تخطيط الشكل الإنسانيّ إلى فهم البشر والعناية بهم والتعامل مع ردود أفعالهم بذكاء وفطنة.

أمّ يوسف الرسّامة كما يسمّونها ملكت قلوب العديد من الناس في محلاّت البصرة القديمة.

اتخذت طريقها الآن قدماً في دربٍ ينبسط للسيّارات وعربات الخيول، على جانبيه تتراكم البيوت والحوانيت بعضها فوق بعض،

مكتبة الفكر الجديد

والمارة في غدوٍ ورواح على رصيفيه الضيقين المتهالكين. الحرّ يشتدّ والغبار يثور في الفضاء.

وصلت إلى سوق الجمعة، وهو ليس غير مسالك تتلوّى بين بيوت شائخة. الباعة يتوقّفون في الظلال، يعرضون بضائعهم المستهلكة على جرائد مفروشة على الأرض، والمارّة يدبّون، يحدّقون في الأشياء المعروضة، يقلّبونها، يتفحّصونها ويسألون.

اجتازت السوق وهو صغير لا هيبة له، وأغذّت خطاها إلى حيّ وراءه، جمّ الأسرار والألغاز، في أجوائه إغراء ودعوة وجاذبيّة لا تخطؤها العين.

بيوته عالية هرمة يسودها الهدوء، الدروب تتفتّح كأنّ حجباً منسدلة تنفرج الواحدة تلو الأخرى كلمّا عبر المرء من خلالها.

ومن حينٍ إلى حين يمرق رجال، يناديهم أحدٌ ما طالباً إليهم ولوج المنازل، فيسرعون بالفعل إلى دخولها.

الأبواب مواربة، تبعث الأمل في القلوب والشوق إلى قطف المتعة. أغلبها مزيّن بمقرعةٍ على نحو كفٍّ ملمومٍ على ورقة عنب، وأحياناً برأس غزالٍ محنّطٍ مثبّتٍ أعلى الساكف درأً للحسد. الشبابيك نصف مفتوحة، تنظر إليك وتحبّك.

إنّ حضور الشمس القويّ ليجلّل الأمكنة بنورٍ ساطع. الظلال تتمدّد على الحيطان والأرض، عارية وطازجة كأهل الحي أنفسهم.

يراودك شعورٌ مريحٌ إذما تسير في الحيّ كأنّك تنعتق من المدينة، تتحرّر من أغلالها وتتنفّس الصعداء. تنطلق مستمتعاً بذلك الهدوء الذي تبعثه في قلبك تلك المنازل، حيث اللذّة متاحة رخيصة ومبتذلة.

مكتبة الفكر الجديد

تأنّت أمّ يوسف أمام بابٍ خشبيّ عريض موارب. وهي كما يتبيّن من عدم تحيّرها قد اعتادت التردّد إلى هذه المطارح.

دخلت البيت فشملتها ظلال أشاعت في جسدها طراوة، خفّفت من غلائل الحرّ والغبار. فغم أنفها مزيجٌ من روائح العطور والدخان والصابون، وبلغتها أصوات وضحكات ووقع خطوات.

البيت كناية عن طابقين يصل بينهما درج من القرميد.

اجتازت مجازاً قصيراً منوّراً بضوء الصباح إلى الفناء المكشوف الواسع المبلّط بآجر صقلته الأقدام على مرّ الزمان، فأبصرت ثلاث بنات خفيفات الثياب مسترخيات على الأرائك يدخنّ. نظرن إليها ثمّ عدن إلى الثرثرة مع بعضهنّ بعضاً.

على أخونة أمامهنّ علب سجائر ومناديل ورقيّة ومنافض وكؤوس وصحون حلوى ولب. من الأعلى تهادت أصوات رجال، تلاها صوت امرأة تردّ في نعومة. بعض الأبواب المشرفة على الفناء مفتوح.

وثمّة خادمة في ذهاب وإياب تقوم على راحة البنات، ما لبثت أن أقبلت على أمّ يوسف إذما رأتها وعلى وجهها طيف سؤال.

- كيف أخدمك؟

أعطتها أمّ يوسف وجهاً باشّاً، ألقت عليها التحيّة واستفهمت:

- أين المعلّم؟

- فوق.

- أَأَصْعَدُ إليه؟

- خيراً؟

- أريده.

مكتبة الفكر الجديد

– شريف، ياشريف.

– ماذا؟

أتى الصوت من فوق.

– مطلوب.

– من؟

– الشرطة.

واستغرقت في الضحك.

– يارب!

– ناس حلوين، تعال!

هبط الدرج في تؤدة، وتقدّم إلى أم يوسف شاب جميل الوجه، حنطيّ اللون، يكتسي دشداشة بيضاء تشفّ عن ملابس داخليّة بيض أيضاً، له شاربان رفيعان محفوفان بدقّة، ذقنه حليق وشعره مُعتَنى به. تشي قسماته بلطفٍ يخفي وراءه ولاشك حزماً وقسوة.

بعد التحيّة قالت أمّ يوسف توضّح غرض الزيارة:

– عندي تصاوير خاصّة لكم، ستعجبكم.

قبل أن ينبس الرجل بكلمة وضعت السلّة على الأرض، رفعت اللفافة منها وراحت تعرض عليه ما لديها، وهو يتململ سئماً واللامبالاة تتجلّى في عينيه. كان يتطلّع ولايرى وكأنما الأمر لا يعنيه ولا يروقه.

التمّت البنات عليها، وأجسادهنّ في عري ملابسهنّ مشرعة للعيان، أثداء مضرّجة بالشهوة تغوي وأرداف مثيرة ترتجّ.

رحن يتأملن اللوحات الواحدة تلو الأخرى، عيونهنّ مترعة

مكتبة الفكر الجديد

بالدهشة، وشفاههنّ الحلوة تعلّق بأصوات هادئة رخيمة، ورائحة عطريّة طيّبة تتأرّج منهنّ.

توقفن عند لوحة لفتت انتباههنّ واستولت على أحاسيسهنّ، فتشبّثن بها، ورحن يمعنّ النظر فيها مشدوهات.

على أريكةٍ وثيرةٍ وسط غابة نخيلٍ باسقة كثيفة شديدة الخضرة كالزبرجد، استلقت فتاة بيضاء عارية ملأى بالثقة. جديلتاها تنسدلان على نهديها الثقيلين بحلمتيهما البارزتين. فخذاها متناسقتان ممدودتان في استرخاء ودعة، ومحيّاها غجريّ السمات. اللحظة أشارت إلى فتاة سوداء تتقدّم من جوف الدغل، تعزف على الناي وتأتزر بإزار ملوّن. من بين شجيرات السرخس المحتشدة برز أسد يمشي على مهلٍ ويحدّق إلى المشاهد في دهشة.

في الخلف من خلال خصاص الأغصان والأوراق والسيقان ظهر فيل يرفع خرطومه كأنّه يطلق نفيراً. على الأغصان تنطنط قرود صغيرة تلعب في عباب الظلال، وعلى شجرة تفّاح مثمرة وقف طير لا مبالياً، بينما تسلّلت بعيداً في الخفاء بين الحشائش حيّة برتقاليّة اللون.

السماء زرقاء صافية يرصّعها قمر أبيض. للشجيرات المعربدة في كلّ مكان أوراق خضر وصفر. بستان النخل شامخ ومتماسك مثل غابة بكر. حدود النباتات والحيوانات واضحة ودقيقة.

- يا إلهي كأنّه منام.

قالت إحدى البنات وقد أضاءت الدهشة وجهها، ونهداها المكشوفان المندلقان في الغلالة الشفافة والعابقان بعطرٍ نفّاذ، يغريان المرء بأن يمرّغ وجهه فيهما.

مكتبة الفكر الجديد

طالعتها أمّ يوسف سعيدة وقالت:

- نعم إنّه منام.

- حلوة، صحيح حلوة، ما اسم هذه اللوحة؟

- المرآة.

ثمّ أخذت تقاسيم الغجريّة تتغيّر فتصبح شبيهة تماماً بوجه البنت التي تنظر إليها، فإذا البنت تصرخ في دهشٍ:

- هذه أنا.

التصقت الوجوه بعضها ببعض تحدّق وتدقّق في محيّا غجريّة الغابة التي جعلت تبدّل ملامحها بما يحاكي ملامح أيّ بنت تقع عيناها عليها، فتصيح تلك التي تشاهد فيها صورتها وقرينتها: هذه أنا.

فإذا كلّ واحدة منهنّ ترى في الغجريّة نفسها وذاتها، حتى مضين كلّهنّ يهتفن في فرحٍ وجلبةٍ واندهاش في آنٍ واحدٍ على وقع تحوّلات سمات الغجريّة:

- هذه أنا، هذه أنا...

"والله فنّانة" "يا للخيال" "وحدك من دون مساعدة؟" "والله شاطرة" "أنّى لك هذه الأفكار؟" "أترسمين أحلامك حقّاً؟" "مثل السحر والله"

اندفعت البنات متحمّسات يدين إعجابهنّ وانبهارهنّ وقد أثارهنّ أن تقوم امرأة مثلهنّ بالتحليق في سماوات الخيال على هذا النحو البديع والفائق الجمال.. لماذا؟ لأنّ الرسم ليس شغل النسوان، فالمرأة تفتح قلبها للمطبخ وساقيها للرجل فحسب.

وكانت أمّ يوسف تعلّق مختالة فرحة، وشريف يتجلّد في وقفته

مكتبة الفكر الجديد

نافد الصبر يعدّ كلمات الاعتذار، على أنّ الفتيات أظهرن له رغبة ملحاحة في اقتناء اللوحة، فسأل في نبرةٍ ندّ عنها التبرّم والنفور:

- كم تكلّف الصورة؟

- نصف دينار.

بدرت منه زفرة ضيق وأمسك. رانت على الجمع لحظة ترقّب، فلمّحت البنات إلى استعدادهنّ للشراء. حدجهنّ شريف بنظرةٍ غاضبة مستاءة، غامت على إثرها وجوههنّ. دسّ يده في جيب دشداشته وأخرج محفظة جلد، استلّ منها نصف الدينار البنّي وحطّه في يد أمّ يوسف. أنا السيّد في النهاية يابنات، فشعّت الفرحة في وجوههنّ، سلّم شريف وعاد بوجه جادّ جامد إلى الطابق الأعلى.

دعتها البنات ضاحكات إلى فنجان شاي، فلقد أَمِلْنَ بجلسةٍ شائقة مع هذه المرأة الغريبة المكتنزة بلا شكّ بقصص عجيبة غريبة، وإن كانت من بنات خيالها، لا ضير.

سارت معهنّ إلى الأريكة طلقة المحيّا، وشرعت تلاطفهنّ في مودّة وتكشف لهنّ عن عربات عالمها الملوّنة المجنّحة بأخيلتها وموهبتها. وهنّ يصغين إليها منفعلات ذاهلات، وأفخاذهنّ السمر والناصعة البيضاء تتفتّح من تحت ثيابهنّ القصيرة الرقيقة حرّة منفرجة عن سراويل داخليّة حريريّة ملوّنة، ضيّقة، منتفخة بأعضائهنّ، يتفلّت من حوافها اللاّزة باللحم شعر عاناتهنّ المجزوز، وأثداؤهنّ الممتلئة حلوة مكوّرة بحلماتها الناتئة، تندلق تحت غلالاتهنّ الشفافة عابثة مترجرجة، شهويّة وشهيّة، تغري الناظر بمداعبتها والإقبال عليها.

في غيمةٍ من دخان السجائر سادت روح من الألفة، وأمّ يوسف

مكتبة الفكر الجديد

مشرقة الوجه تقهقه معهنّ وقد تملّكها السرور، كأنّها بين أحبّائها وأخواتها؛ فيبدون جميلات مثل ملائكة ترفرف بأجنحتها في فضاء الحوش.

أرواحها صافية ولكنْ معذّبة.

كانت الشمس قد تسنّمت ظهر السماء صعوداً إلى الذروة، ودبّ الوقت لاهثاً من الحرّ متوقّداً في عزّ الظهيرة عندما أنهت أمّ يوسف تسوّقها بما التقطت من رزق وأخذت طريقها عائدةً إلى محلّة نظران، تغمرها ظلال الجدران وأفياء اليوكالبتوس حتّى وصلت إلى زقاق (الصويلات) الهادئ المترب المؤدّي إلى بساتين النخيل. سلكته وقد أدركها التعب قاصدة بيتها، وهو منزل صغير من القرميد نال منه الزمان، تؤنسه نافذة بقضبان صدئة، بابه خشبٌ حائل اللون، ومن سطحه يشرئبّ ميزاب عتيق.

ارتفعت قلقلة القفل في سكون الزقاق الفارغ لمّا ادارت المفتاح فيه ودخلت، فغشيتها الألفة الخاصّة بمكان تعوّدت رائحته ومرآه.

تناهت إلى سمعها أطراف حديث زاخرٍ بالانفعال، فأدركت أنّ ابنها في اجتماع حزبيّ مع حسين العامل.

دخلت المطبخ، وضعت أحمالها على الأرض وجعلت تعدّ الغداء، فكّرت في طبخ الكمأة واللحم والبصل والبيض المسلوق مع الرزّ بالتوابل، إلى جانب صحنٍ ثانٍ من شرائح الباذنجان المقليّ: أَكْلَةٌ يحبّها يوسف. الطبخ مسلاة للهموم كما يقولون.

كانت إلى ذلك مستاءة، فهي لا تملك أن تمنع يوسف ابنها الجامعيّ من إقامة اجتماعات كهذه، إلاّ بالتوسّل إليه مخافة أن يصل

مكتبة الفكر الجديد

الأمر إلى أبيه أو إلى السلطات.

إنّ شرّاً مستطيراً لينبعث من تلك اللقاءات الغريبة والخطيرة. مالهم وللروس هؤلاء الشباب؟ أهي نزوة السعي وراء الفوضى؟ من أين أتت رياح الشيوعيّة لتستولي على عقولهم؟ لعلّ مردّ ذلك إلى حبّ المغامرة وروح التحدّي؟ هل تسعى إلى منعهم من الاجتماع في البيت؟ إذا منعتهم سيلتقون سراً في بساتين النخيل؟ وما عساها تفعل؟ الجدوى الوحيدة هي في نشدان التروّي وإسداء النصح، ولتترك الزمن يبدّد على توالي الأيّام تلك الأوهام والخرافات من عقولهم.

الحبّ والزواج في الحقّ وحدهما يرويان عطش أولئك الشبّان الراكضين وراء السراب في صحراء الموت الأحمر. الأسرة تجعل الحياة عزيزة وتطرد الترّهات والهلوسات.

سمعت طرقاً على الباب، من يكون؟ أهو جواد ثالث أهل الكهف؟ قامت وفتحته فإذا أحلام ذاوية الوجه من وطأة الحرّ والأسى تتلفّع بعباءة سوداء. غمرتها أمّ يوسف ودعتها إلى الدخول. المسكينة تهيم على وجهها هاربة من شقاء البيت.

ثوب أحلام الصيفيّ السابغ المورّد، مشرق الألوان، تجسّدُ انثناءاته فخذيها الجميلتين وصدرها الناهد. كانت تبدو حائرة بعض الشيء.

- الغداء سيجهز بعد قليل.

قالت أمّ يوسف وهي تعدّ لها كأس عصير ليمون.

- لا أشتهي شيئاً، بعض الماء فقط.

وقدّمت لها الكأس.

مكتبة الفكر الجديد

كانت أمّ يوسف منبسطة الأسارير، متهلّلة الوجه وسعيدة بزيارتها، تمازحها لتخفّف عنها بعضاً من شقائها.

وضعت قبالتها صحون اللب والرُّطب وشرائح المشمش المجفّف (قمر الدين).

طرقت مسامعهما حيث كانتا تجلسان على حصيرةٍ في زاوية المطبخ جلبة خروج الشابّين من الغرفة: وقع أقدامهما، ضحكهما، وصرير الباب؛ حتّى إذا بلغ صوت حسين العامل أذني أحلام احمرّ وجهها وأضاءته للحظةٍ ومضة فرح. وكانت لأمّ يوسف فكرة عن هوى قد جرى بين البنت والعامل عبر الحانوت، فتأجّج قلبها بمشاعر الحماسة.

أطلّ يوسف على المطبخ بوجهه الفتيّ الأسمر وشعره الكستنائيّ الذي يردّه إلى وراء، حتّى ليخال المرء أنّ ثمّة خيلاء في حركاته، وبحيويّة الشباب ألقى السلام وخصّ أحلام بنظرةٍ ذات مغزى، لم تلقَ في نفس البنت صدىً مريحاً، مما استرعى انتباه الأمّ فداخلها ضيق، ولم تشأ أن تلمّح إلى ذلك في حينه كيلا تدخل في مشادةٍ مع ابنها فيوغل في إيذاء مشاعر ضيفتها، تاركة الأمر إلى وقتٍ تالٍ مناسب تتحدث فيه إليه على انفراد؛ فتصرّفت وكأنّ السلوك الاستفزازيّ الذي سلكه يوسف ليس بذي بال، ولكنّها سارعت إلى سؤالٍ تعرف بالطبع جوابه:

– حسين هذا الذي معك؟

– نعم.

– ليبق أنا أدعوه إلى الغداء.

مكتبة الفكر الجديد

- ولكنّنا ذاهبان.

- ألا تبقى للغداء؟

- عندي موعد مع أستاذ بدر في نادي الفنون.

انبرت أحلام قائلة لتخفيف حدّة التوتّر، وإن كانت مكفهرّة الوجه:

- هل تنجزان شيئاً في النادي؟

- نعمل على إخراج مسرحيّة لبريشت.

ردّ يوسف في ضيقٍ ظاهر، ثمّ أسرّ إلى حسين ببعض الكلمات وقاده إلى غرفة الجلوس. خرج يوسف فران على البيت سكون يتخلّله نشيش الحلل على النار وغطغطتها.

قالت الأمّ في دخيلتها " تبّاً، ماله الصبيّ يبالغ في فظاظته؟ ".

المروحة الكهربائيّة القائمة على الأرض تبدّد الهواء المحبوس وروائح الطبيخ، فتشيع جوّاً لطيفاً تشوبه وحشة ما: وحشة الأم التي تخيّم الهموم على صدرها كالضباب على النهر.

- قومي نجلس مع حسين!

قالت الأمّ.

قطعتا الحوش المتّقد بالشمس، فيما الظلال تلتمّ منسحبة حتّى حافات الحيطان. الظهيرة تتربّع الآن على عرش العالم.

دخلتا غرفة الجلوس فوجدتا حسين جالساً واجماً.

قام، حيّاهما بأدب وقسماته متهلّلة. لم تشأ امّ يوسف أن تطيل المكوث معهما أطول مما تقتضيه طقوس المجاملة، فتركتها متعلّلة بمشاغلها وقفلت راجعة إلى المطبخ.

مكتبة الفكر الجديد

بارح حسين مكانه واتخذ مجلسه إلى جانب أحلام، أمسك بيدها يرنو إليها. كانت مكتئبة مطرقة، تكسو محيّاها غلالة حزن مما أثار استغرابه:

- ما خطبك؟

سألها.

- لماذا يرمقني يوسف باستياء وازدراء؟

أمعن حسين في التفكير متأنياً مقلّباً مايوشك أن ينطق به في وضعٍ كهذا، وإن كان رأي يوسف لا يعبّر عن رأيه الشخصيّ:

- أتريدين الصدق؟

- نعم.

- يوسف يظن أنّ أباك مخبرٌ في مديريّة الأمن العامّة.

- أبي، أنا، جاسوس؟

- هكذا يظن.

- لا، غير صحيح، وأنت؟

- أنا لا أعتقد ذلك.

ابتسمت عيناها وسألت:

- لماذا؟ ألأنك تحبّني؟

- نعم أنا أحبّك، ولكن هذا الأمر لاعلاقة له بموضوع أبيك.

نهض وأغلق باب الحجرة، غمرها وقبّلها فأذكى نار الشهوة في جسدها. استغرقا في الضمّ والعناق والتبويس، دلك نهدها تأوّهت، مدّ يده بين ساقيها وداعبها فأنّت وتبلّلت، وأوغلا في قطف اللذّة حتّى أوشكا أن يدخلا بعضهما بعضاً.

مكتبة الفكر الجديد

تهادى إليهما صوت أمّ يوسف الواضح العالي من عمق الحوش يقول إنها ذاهبة إلى بيت الجيران لقضاء بعض الحاجات، وإنّ الغداء جاهز إن كانا يرغبان في تناول لقمة، ثمّ سمعا صوت اصطفاق الباب الخارجيّ.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السابع

شارع بشّار بن برد

هذا هو الاسم المثير للتساؤل والدهشة الذي أطلقته الدولة الشقيّة على الشارع الجديد المارّ بالمبغى العام[1] في البصرة، فصار بالتالي اسماً للمبغى نفسه، على الرغم من مرور الشارع بمناطق شعبيّة أخرى يزاول قاطنوها مهناً عاديّة، لا يبيعون فيها أجسادهم وإنما عرق جبينهم، وفي بعض الأحيان ضمائرهم وشرفهم، مع ذلك لا يراود الشكّ أحدً في أنّه على أعتاب عالم غير مألوف يستدعي التوقّف عندّه، حين يخطو خطوة أبعد متوغّلاً في الجوار الموسوم بالشبهة والجاذبيّة في آنٍ واحد، والذي يُقرَن عادةً إذا ما أتى ذكره بالعالم السفليّ الذي أطبق عليه غسق السقوط الأبديّ، كما لو أنّ المرء حين تسوقه قدماه إليه سيهوي في حفرةٍ لا قرار لها من العتمة.

يقوم المبغى على نشزٍ من الأرض يحاذي الشارع، فيبدو للناظر

١ وتطلق العامّة عليه أسماء عديدة مثل: المنزول، الحارة، الحكّاكة، الكلّجية، بيوت الدعارة...

مكتبة الفكر الجديد

بيوتاً منهوكة استلقت هناك بعد أن زحفت صاعدة من القاع وتراكمت على المرتفع، يشدّ بعضها بعضاً كأنّها تقاوم حصاراً مفروضاً عليها، ولكنّها تمتدّ كجسدٍ متغضّنٍ يتشبّث بالأرض واهناً مستنفد القوى حتّى تخوم منطقة جسر العبيد.

وللمبغى امتداد آخر في منطقة المشراق تفلّت على حين غفلة من ناصية شارع بشّار إلى ماوراء سوق الجمعة، حيث كانت أمّ يوسف قبل قليل تبيع غاباتها الملوّنة.

غير أنّ الشارع ليس مسترخياً مستغرقاً في السكون، وإنّما تزحمه السيّارات والدرّاجات وعربات الخيل القادمة من منطقة السيمر نحو جسر العبيد في طريقها إلى محلّة الجزائر. في كلّ حال فالمرء ليس معنيّاً تماماً بخطط هاتيك المحلاّت القديمة أكثر من أهل البصرة أنفسهم[1]، أو من عابر سبيل في الغبار والزحمة ودخان عوادم السيّارات والضوضاء والحرّ، واختلاجة كدر تعمّ محيّاه المندّى بالعرق.

ولكننا آثرنا الحديث عن ذلك طامعين في طول بال القارئ، لأنّ بيت علاّوي الأعرج يقوم في سوق السيمر على مقربةٍ شديدةٍ من المبغى، في زقاق يتلفّع بالظلال الكثيفة الثمينة ساعة النهار، لعلوّ جدران بيوته، مما يمكنك ان تهمس على استحياء وشبح ابتسامة ساخرة يطوف على شفتيك أنّه يقع في الحدّ الفاصل بين الرذيلة والفضيلة، بين العار والشرف، بين باعة الأجساد وباعة حاجاتها،

---

١ تجدُ وصفاً شعريّاً مزداناً بالحنين إلى تلك الأماكن في كتاب البصرة جنّة البستان لشاعر المدينة الراحل مهدي محمد علي.

مكتبة الفكر الجديد

حيث تختلط الحدود وترقّ ويسود التساهل والتسلّل ويدخل الأسود في الأبيض.

حتّى إنّ العامّة كانت تهزل في مزاج رائقٍ حين يرد ذكر تلك الحافة الملتبسة بين البرزخين، فتذكر متندّرة مسرورة بحاسة النميمة التي تعتورها مصيبة أصحاب البيوت المستقرّة هناك بسبب جهل الزبائن بجغرافية المنطقة، لذلك رفعوا على الأبواب يافطات تقول "هذا بيت شريف"، ولكن كيف الحال مع من لا يتقن القراءة؟

في غرفةٍ صغيرةٍ مضاءة بمصباح يرسل ضوءاً باهتاً، فيشيع جوّاً مظلّلاً شاحباً، يقضي علاّوي الأعرج أيامه في ما يشبه الزهد في الدنيا.

الظلال هي ما توحي به معالم البيت الضيّق، الضعيف الإنارة، والمؤلّف من حجرتين وفناء ومشتملات. والنوافذ في مثل تلك البيوت لا تثير الانتباه وغير مُعْتَنى بها، تقتصر غالباً على نافذة واحدة لكلّ بيت، تغطّيها قضبان رفيعة وشبك سلكيّ لصدّ الحشرات، عادة ما يكون مكسوّاً بطبقة سميكة من الغبار تحدّ من نفاذ الشمس عبره.

وعلاّوي الطالب في السادس الثانويّ أعرج مُذ ولد، تعتمل في أعماقه معاني الاختلاف وتغمر نفسه المرارة، إذ لايملك مجاراة أقرانه الأطفال في لعبهم ومرحهم، فيضطرب وينزوي وقد بلغ به التأثّر مبلغه من عجزه، ومن خواطر اليأس التي تتملّكه.

وهو فضلاً عن عرجه يتميّز بكفّين عريضتين عرضاً غير معهود، وأصابع طويلة طولاً غريباً كالمراوح، وهكذا أصبح على مرّ الزمن على مسافةٍ من مجايليه، يتقن فنّ التواري، يؤثر العزلة ويرتاب في

مكتبة الفكر الجديد

النظرات والابتسامات، إذما يحمّلها معاني قد لا تكون في محلّها.

لازمه الحزن واستحوذت عليه مشاعر التردّد وعدم الثقة بالآخرين، فبنى بينه وبينهم حاجزاً. انقطع مجرى التفاهم وجعل يتفادى الناس مثلما يخشاهم، يغضّ النظر كأنّما يتجنّب أن تلتقي عيناه عيونهم، وبعض الناس لا يرحمون، رعاع، يحبّون الأذى ويسعون إليه، وما النقص البدنيّ عندهم إلاّ سبّة مثل العورة في العرض، وعندما رأوه يستنجد بالعزلة على لقياهم قالوا يشعر بعقدة نقص، فهو معقّد إذاً، متكبّر ومتعجرف، ولكن من يدرك أنّ تحرّره من غلالات ريبته وخوفه خليقٌ بأن يجعل منه مخلوقاً لطيفاً جدّاً، مهذّباً شفوقاً طيّباً، ومحبّاً للمرح والمزاح، لاسيما إذا تبيّن المرء سرّه وتفهّم فداحة معاناته؟

وكان علاّوي أبيض الوجه حلو التقاسيم، يعروها شحوب ونظرة حزينة. غالباً ما تميل النساء إلى عينيه الملائكيّتين ورقّة ملامحه، وإن لم يحدث أن اجتمع بواحدة منهنّ إلاّ في حدودٍ ضيّقة جدّاً، لبعضٍ من خجلٍ ينتابه وندرة المصادفات التي تجمعه وإيّاهنّ، إلاّ ماشغله آنذاك من ميلٍ وتعلّقٍ بصديقة طفولته الجميلة فاتن الغزالي، الفتاة التي تيتّمت في ما بعد وابتلعتها مهاوي الفقر والمسغبة، فتلقّفها تجّار الأجساد وسارت معهم تسلك درب الشبهة الذي نقلها إلى الجانب الآخر من الحي، تفتح فيه ساقيها لكلّ طارقٍ فلا تعرى ولا تجوع، إلاّ روحها الممزّقة تعذّبها، ولكن من يأبه، ومن يصغي إلى خلجات قلبها الجريح في عماء الأيّام وقسوتها.

وكان أن اتخذت لها اسماً آخر فنيّاً كعادة البنات اللائي يتقلّبن في

مكتبة الفكر الجديد

طيّات مهنتها: بديعة، ثمّ حمّله المعجبون لفظاً منحوتاً منه للتوكيد والدلع فصار: بديعة بَدَع.

يعيش علاّوي مع أمّه وأبيه العجوزين اللذين تشوبهما رائحة الملابس العتيقة والصابون، وتعروهما سكينة الشيخوخة وبطؤها.

أبوه المؤذّن والإمام قصير، نحيفٌ، أصلع، شبه منحنٍ، وعطوف، تكسو وجهه التجاعيد، يمشي متثاقلاً ومصغياً بصعوبة إلى كلّ شاردة وواردة، ويميل إلى نصح الآخرين. قضى ردحاً من عمره شرطيّاً حتّى بلغ سنّ التقاعد، ثمّ حالفه الحظّ فأمسى بالواسطة رجل دينٍ حكوميّاً يتولى شؤون جامعٍ صغيرٍ في زقاق قريب، لا يتردّد إليه أحد إلاّ أبناء المنطقة نفسها. مع مرّ الزمان اندرج العجوز في غبار النسيان. لم يبقَ له صديق يذكره ولا قريب يسأل عنه.

أمّا أمّه فهي أشبه بالظلّ منها إلى كائنٍ محسوس؛ ضئيلة، تتوجّس خيفةً من كلّ ضجّة في الخارج، تقضي وقتها في المطبخ، تلوذ بمشاغله أو تنغمس في الظلال في غرفة النوم، تجلس، تستمع إلى صوتٍ خافتٍ من راديو سانيو عتيق الطراز. لا تكاد تتبادل الحديث إلاّ لماماً مع ابنها، ولكنّها تعنى به عناية خاصّة، تهتمّ برغباته وتقضي حاجاته بسرعة ودقّة، فعلاّوي أضحى وحيدها بعد أن تزوّج أخوه وانتقل.

ذلك أنّ علاّوي ميّالٌ بطبعه إلى الوحدة، ينأى بنفسه عن الثرثرة وتبادل الحديث، يقضي وقته في غرفته يقرأ أو يصفن سادراً في فضاءاته الخاصّة به، فغرفته مملكته تسبغ عليه الطمأنينة. خزانتها تغصّ بالكتب التي تحقّق رغبته في امتلاك الحقيقة والمعرفة، كما

مكتبة الفكر الجديد

تمنحه سعادة التفوّق على الآخرين. كتب يبتاعها من المكتبات وباعة الحاجات المستهلكة، أو يستعيرها من المكتبة العامّة والأصدقاء ومن أستاذه في المدرسة الثانويّة إسماعيل.

وقد أفضى به نفوره من متاريس العقليّة العشائريّة السائدة إلى التعلّق بالنظريّات الثوريّة: مبادئ جيفارا وتروتسكي وماوتسي تونغ، علاوة على ولعه بمجسّات الفلسفة الوجودية: كتابات سارتر وكامي وسيمون دو بوفوار، الموضة السائدة يومذاك.

لقد كان لنزعته الثوريّة المتطرّفة، وعقليّته الكفاحيّة الجذريّة الراديكاليّة دور في ارتياحه ليوسف واقترابه منه، ذلك الدور المؤثّر والحاسم في تحوّله من القراءات الثوريّة الكلاسيكيّة الماركسيّة اللينينيّة إلى دفاتر اليسار المتطرّف أو "اليسار الطفوليّ" كما ينبزه الشيوعيّون التقليديّون بازدراء، زاعمين أنّ أولئك اليساريين المتسلّلين إلى منعة حصونهم الفكريّة ليسوا غير منشقّين خطرين، بل هم أشدّ خطراً من الرجعيين والبرجوازيين والإمبرياليين.

ويوسف وإن كان عضواً في الحزب الشيوعيّ العراقيّ الكلاسيكيّ، إلاّ أنّه وجد في نفسه توقاً إلى الانعتاق من الأسيجة الفكريّة السائدة في الحزب، متّخذاً لخطواته مساراً آخر يحرّره من القطيع ويبحر به إلى آفاق الحسم الثوريّ، فغدت أفكار الكفاح المسلّح تهبّ في أشرعة عقله هبوباً عاتياً كأنّها ريحٌ تنفخها الجان. وقد وجد في ابن محلّته علاّوي رفيقاً يرافقه في خطاه السادرة تحت شمسٍ أشرقت عليهما فجأة، فبدّدت من عقليهما ضباب برامج الحزب الشيوعي العراقيّ البطيئة والباردة، لكن ذرذرات خلافٍ بسيطٍ مابرحت عالقة

مكتبة الفكر الجديد

بينهما، وهي أنّ علاّوي يرود أدغال الفلسفة الوجوديّة من غير داعٍ، ويعجب أشدّ الإعجاب بمفكّريها الفرنسيين من دون مسوّغ، ممّا جعل يوسف يعيب عليه ضياعه في براري اللغو الفرنسيّ، منهكاً عقله في متاهات الفكر البرجوازيّ الصغير الذي لا يرى في الشيوعيّة إلاّ شكلاً من أشكال المقصلة.

في كلّ حال فهذا الخلاف بسيط وطفيف ولاخوف منه، ولكن ينبغي عدم الأخذ بهراء الفرنسيين على نحوٍ جدّي، لما فيه من مضيعةٍ للوقت كلعب الدومينو.

حينما خطا علاّوي خطوته الأولى خارج البيت وأمرّ ما يدور في خلده، دهمته الشمس فانساب ظلّه تحت سماء حرّة ورفّت عيناه.

اقتحمت أذنه أصوات السوق الممتلئة بالنشاط والحيويّة: نداء الباعة، طَرْق الحدّادين، عجيج الناس، وهدير السيّارات وزماميرها، فيما روائح عوادم المحرّكات والنفايات وفضلات الحيوانات والمياه الراكدة تطيش في الفضاء، وغبارٌ تثيره المركبات يدوّم في الهواء.

كان الزقاق الذي يقع فيه بيته والذي قطعه للحين ضيّقاً، تتقارب فيه الجدران العالية والنوافذ الواطئة، فيحسّ الخارج منه كأنّه ينسلّ من جوف المباني القديمة إلى جادّة سوق السيمر، متفلّتاً من غلائل خفيّة شفّافة تشدّه إلى عمق الحيطان العتيقة، كأنّه يغادر بحيرةً من سكون إلى ضجيج الحركة.

كان لشحوب محيّا علاّوي، لنظراته الكدرة الكئيبة، ولشعره الأسود المنسدل على جبهته أثرٌ على انطباعات المارّة، حتّى ليساور الواحد منهم الظنّ بأنّه مريضٌ أو معتوه، ذلك لوهلة فحسب، إذ لا

مكتبة الفكر الجديد

أحد يشغل باله بأكثر من ذلك، فالوجوه مثل الدخان سرعان ما تتبدّد.

وكان علاّوي بسبب العيب الذي يعتور رجله اليمنى، وهوعيب خَلْقيّ، يلوي جسمه حتى ليصبح في مقدوره نقل خطواته إلى أمام، فيلوح كأنّه يصعد ويهبط بجرمه حين يمشي.

تبدّى من نظراته المكفهرّة أنّه ينوي أمراً، وأنّ الأفكار التي تحضره تتلبّد في عينيه، وتنتشر على وجهه ظلالاً من عذابٍ وحزن، من إصرارٍ وحدّة.

أغذّ السير، خلّف السوق وراءه وانحدر إلى شارع بشّار بن برد. السيّارات تتناهبه مسرعة، والحركة محتدمة في دوّامةٍ تمور بالشمس والغبار والضوضاء.

اتّجه نحو تلك البيوت اللائذة بمرتفعٍ من الأرض، وغشاوة من السرّ والغموض والعزلة تغلّفها.

ارتقى الجانب الصاعد إليها عبر نهج سوّته أرجل السابلة، وسلك سبلاً ضيّقة غير معبّدة تحفّها بيوت من الطوب العتيق، عارية من الدهان وممحوّة السمات. أبواب بعضها مواربة تدعوك إلى الدخول، وشبابيكها مفتوحة نشداناً للهواء. إنّك لترى أحياناً أمامها نساء واقفات يدخنّ، عيونهنّ تغوي وتجذب، عاريات إلاّ من بعض ملابس شفّافة تكشف عن أفخاذٍ شهيّة، لا تخلو مرّات من آثارِ زرق، وصدور مغرية منتصبة، تضمّها الحمّالات وتشدّها، ومؤخّرات تضيق بسراويل صغيرة تلتصق بتكويراتها وشقوقها، فتشعل أجساد الناظرين إليها بالشهوة والرغبة، والهواء أينما كنّ يعبق بعبير العطور والصابون، يتضوّع بنكهة التبغ.

مكتبة الفكر الجديد

وفي الدروب يطالعك من حينٍ لآخر رجال يتسكّعون مهمومين بشهواتهم، منهم من يغيب داخل البيوت، وبعضهم يمكثون واقفين بصحبة النساء يتبادلون الحديث معهنّ، يضحكون ويدخّنون.

دنا علاّوي من أحد الأبواب متوجّساً خيفةً من عدم الترحيب به، وكانت تقتعد عتبته قوّادة داكنة غليظة السمات تدخّن مسرّحة الطرف في الدرب، حتّى إذا رأته عرفته، فأشاحت بوجهها عنه غير راغبة في اقترابه منها.

تريّث علاّوي قليلاً في ما يريد أن يقول، ولم يثنه عن عزمه الأكيد في المضي في ما جاء من أجله عدم التفات المرأة إليه وكراهيّتها له، فأطلق سؤاله كأنّه يكلّم جداراً:

- بديعة موجودة؟

نظرت إليه المرأة غاضبةً نفوراً، وعيناها تهتفان أَنْ أغرب عن وجهي، سوى أنّها تحاملت على نفسها من شدّة بغضها وغيظها فردّت بسؤالٍ جافّ:

- ماذا تريد منها؟

- سأدفع مثل الآخرين.

ردّ في ازدراء.

- أنا صاحبة الدار ولا أريد نقودك، امضِ ودعنا في سلام.

- لماذا؟

- لأنّك لن تدخل، أرني ظهرك، يااللاّ!

زأرت ووجهها يحتقن غيظاً.

- وإذا لم أذهب؟ سأقف هنا، وهل ملكت الجادّة أيضاً؟

مكتبة الفكر الجديد

قال لاهياً وعلى محيّاه تترقرق ابتسامة ساخرة، ولمّا كانت الشمس قد أزعجته والقوّادة تقعد في الظلّ تجاهه، نقل خطوته قريباً منها فجفلت وهي تصيح:

– قلت لك غادر بالحسنى وإلاّ جلبت على نفسك المتاعب يا أعرج النحس!

– لماذا تكرهينني أنت يا وجه السخل؟

– ابتعد يا كلب، لا ينقصنا إلاّ العرجان!

ثمّ هتفت بأعلى صوتها تنادي أحدهم:

– كَنَش، يا كَنَش.

فانبثق من الداخل شابّ قويّ البنية، وسيم الصورة، يفحّ غضباً، وهجم على علاّوي من فوره، لطمه بقوّة ودفعه فطرحه أرضاً.

علا الصياح وطاشت الضجّة، والتمّ بعض الفضوليّين يتفرّجون، وعلاّوي يصيح بأعلى صوته باسم حبيبته الذي ألفه في طفولته:

– فاتن، فاتن.

عساها تسمعه فتقبل عليه من جوف الدار على الرغم من حرّاسها.

تتألّف هذه الدار التي شيّختها السنون من فناء مكشوف تتحلّق من حوله الغرف، ودرج آجرّيّ يصله بطابقٍ ثانٍ ذي حجراتٍ وممرٍّ ودرابزين.

في إحدى غرف الطابق السفليّ غرفة صغيرة متقشّفة الأثاث، مُنارة بضوءٍ واهنٍ، ومفروشة بسجّادة قديمة، إلى يمين بابها مشجب تتدلّى منه ملابس، وفي السقف مروحة كهربائيّة تدور فتطفّف حرارة المكان، مشيعةً في الهواء طراوةً ما.

مكتبة الفكر الجديد

وعلى سرير تصرّ نوابضه انهمك رجل عاري الساقين والمؤخّرة في فعلته، يحثّه هاجس ملحاح على الاستمرار فيها حتّى يفرغ منها. يتحرّك صعوداً ونزولاً ساحقاً بكرشه الناتئة هشاشة جسد فتاة حلوة مُجْهَدَة، تشيح بوجهها المكسوّ بأمارات القرف والسأم.

ساقاها منفرجتان متخاذلتان، وأنفاس ذلك العاري تزكم خياشيمها برائحة عفنة كرائحة المرحاض، ولعابه يلطّخ رقبتها كأنه سائل لزجٌ خلّفته بزاقة.

اختلج قلب الفتاة وجفلت تريد النهوض عندما بلغ مسمعها اسمها يتردّد بصوتٍ عرفت صاحبه، فتوجّست أمراً وهجست بمصيبة، فحاولت إزاحة الجسد السمين المضرّج بسوائله والمرتفع فوقها، يحرثها كثورٍ مهموم بغريزته، طالبةً إليه أن يكفّ لأنّ وقته انتهى، غير أنّ الرجل لم يتزحزح من مكانه، بل شدّ عليها بأعضائه متسمّراً بها وهو يغمغم في خضمّ هياجه وحمّى متعته:

- سأدفع اسكتي!

لكنّها كنسته من فوقها بقوّةٍ لا تنمّ عليها هيئتها الناعمة، ونهضت متملّصة من سطوته وثقله، فاستشاط الرجل غيظاً شدّها من شعرها ولطمها على وجهها، فتهاوت أرضاً. غشيها دوار وغامت عيناها، التقطت أنفاسها وتناولت نعالها البلاستيك ورمته به ثمّ جرت هاربة وهي تصرخ موجوعة خائفة.

عاد المارد كَنَش إلى الداخل هائجاً وسدّد إلى الرجل السمين لكمةً أطارت صوابه، ثمّ أشبعه ضرباً وركلاً وإن حاول الدفاع

مكتبة الفكر الجديد

عن نفسه، إلاّ أنّ مقاومته انهارت تمامًا أمام عنف القوّاد الذي أنشأ يجرجره مثل كيس من القمامة ثقيل، ثمّ طوّح به خارجاً عارياً. لحقتهما إحدى بنات الدار وألقت على السمين ملابسه وهي تدوّي بالشتائم متشفّية، لعلّها مرّت هي أيضاً بموقفٍ مماثل، بينما المارّة وأهل الدور المجاورة يتفرّجون، يضحكون، ويعلّقون ساخرين، متمتّعين بفصل ساخن لطالما شاهدوا مثله، وعلاّوي ينتحي جانب الدرب متألّماً مدمّى، يرفض الرحيل قبل رؤية بديعة.

خطفت بديعة رجلها إلى الحمّام حاملة ملابسها. اغتسلت على عجلٍ، لبست سروالها، ارتدت ثوبها ووضعت عباءة سوداء عليها، ثمّ تركت الدار مندفعة إلى الجادّة وشعرها لمّا يكد ينشف، فصاحت بها القوّادة غاضبة منذرة:

– إلى أين بديعة؟ لن تذهبي مع الأعرج! لربّما تأتي الشرطة للتحقيق.

– لن أتأخر، سأعود عمّا قليل.

أجابت بصوتٍ رخّمه التوسّل، وعلى خدّها الأيسر بانت آثار الضربة زرقاء داكنة.

أقبلت على علاّوي فغمره الفرح وتهلّل وجهه، ذاهلاً عمّا يحيط به من وجوهٍ كارهةٍ ساخرة، إلاّ أنّ غصّة احتدمت في صدره حينما لمح البقعة الدكناء المزرقّة على خدّها. تعاطفت معه هي الأخرى عندما رأت آثار الضرب على وجهه. قادته من يده فانقاد لها ونزلا إلى شارع بشّار بن برد، والناس ينظرون إليهما ويعلّقون مستنكرين

مكتبة الفكر الجديد

ومستغربين اهتمام أحلى بنات المبغى بذلك الأعرج المتكبّر، صاحب الوجه الكئيب.

* * *

مضيا ناحية دوّار السيمر يؤنسان روحيهما المستوحشتين بتجاذب الحديث. علاّوي يحكي ما جرى له، وبديعة تروي رواية أخرى على حذرٍ، تسرد فيها قصّة متخيّلة للعنف الذي تعرّضت له، وعيون المارّة تتّقد حين تقع على حلاوة تقاسيم البنت وجمال جسدها المتّسق الرشيق.

كان الوقت يقترب من الظهر والسماء تستعرّ فيها الشمس، والمدينة منقبضة مغبرة، بل لكأنّ أردية الغبار تكتم أنفاسها.

التقط علاّوي عربة خيل أخذتهما إلى نهر البصرة القديمة فجسر الغربان، ثمّ تهادت صوب الميتم وقصر النقيب فحسينيّة مقام الخضر، وعلى مقربة من جسر نظران غادرا الشارع المعبّد وسلكا درباً ترابيّاً يحاذي النهر الذي تقوم عبره ثانويّة البصرة للبنين[1]، حيث يتعلّم في صفّها السادس علاّوي. بناية وحيدة تجثم مؤثّرة، بمتانة هيكلها وعلوّها وبوّابتها الخشب المهيبة، في رحابة المشهد الريفيّ الرقيق المحيط بها.

وكان علاّوي يأخذ صاحبته خلال منفذ مؤنّث بالدغل: غرب وطرفاء ودفلى وعوسج.

---

١ الثانويّة التي تخرّج فيها الشاعر بدر شاكر السيّاب وابنه غيلان.

حتّى إذا طوّقتهما مملكة النباتات واحتوتهما الأفياء، انفتح أمامهما بستان كثيف النخل وارف الظلال، تتغامز عبر خصاص سعفه شعيعات من الشمس ومّاضة.

إنّ السواقي الكثيرة المتشعّبة التي تروي مساكب الخضروات من فجلٍ ورشادٍ وبرسيم وكرفس ونعناع وكرّاث، لتشيع برودة لطيفة محبّبة. سارا بين أحواض الخضر في مماشٍ ضيّقةٍ تعبق بأريج الطلع والطين، والظلال التي تلمع بينها بقع الضوء تغمرهما بالراحة والطمأنينة إثر صباح مثقلٍ بالتعب والعنف والكآبة.

كانت الترعة الواسعة التي تتوسّط البستان مشعّةً بالضوء، تحوم في فضائها الحشرات، وتدبّ على طينها السلاحف والضفادع. عبر علاّوي وبديعة قنطرةً من جذوعٍ وطينٍ يابسٍ مسجاة على الترعة، وواصلا مشيهما في الفرجات بين صفوف النخيل، متوغّلين في الأرض المزروعة بمساكب الزرع حتّى ألمّا بجهة النهر التي تخاصر أرضاً كثيرة الدغل.

ارتميا على الأرض جالسين جنباً إلى جنب.

نظر علاّوي إليها ثمّ أطرق مفكّراً، متمعّناً في ما يوشك أن يقول لها، وأفكار متضاربة تتدفّق من أعماقه، لكنه أغضى عمّا يتولاّه من تردّد وصارحها بنيّته في الزواج بها، ونظرة متسائلة تفيض من عينيه.

حدّقت فيه بعينين فرحتين مندهشتين، وقسماتها تنفرج عن سؤالٍ تمثّل في ابتسامة حلوة ودود، فقالت تستفسر:

– كيف تعقل ذلك، وأنا في وضعي الذي تعرفه، وأنت لا تزال طالباً في السادس الثانويّ؟

مكتبة الفكر الجديد

- سنجتاز الصعوبات، سنبني حياتنا بعيداً من دائرة الاضطهاد المحيطة بنا.

- أنا اخترت مهنتي بنفسي لأنني لا أتقن سواها.

- لو كنّا نعيش في مجتمعٍ عادلٍ سوي لما اضطررت إلى هذه المهنة. أنت تتعرّضين إلى الاستغلال لأنّك فقيرة ويتيمة ولم تتح لك الظروف لتعيشي حياة أفضل، لا مهنة ثابتة لأحد، كلّ شيء يمكن تغييره.

- وهل ما يشغلك هو الاستغلال؟

قالت في نبرةٍ لطيفةٍ لا تخلو من المرح، ومن سخريةٍ طفيفةٍ غير مقصودة.

- لا ليس الأمر كذلك فقط، إنّما أنا أحبّك يا فاتن أيضاً.

قال وقد تخضّب وجهه، فهو بطبعه خجول وانطوائيّ، ونادراً ما يفضي بما يخالجه إلى أحد.

خفق قلبها من فرط سعادتها وأخذت يده في حضنها وقالت على غير رغبةٍ منها، فهي لحضور بديهيّتها وخبرتها العميقة بالحياة على الرغم من صغر سنّها أصبحت تدرك وضعهما على نحوٍ أوضح:

- لنكن واقعيين علاّوي، سيقف الكلّ بوجهك أوّلهم أهلك، وهل تقوى على مواجهة الجميع؟ ما الذي في وسعك أن تفعله حينذاك؟

- لا تشغلي بالك بكلّ هذي الترّهات بحقّ الجحيم!

- علاّوي خلّنا نؤجّل هذا الموضوع الآن إلى حين تخرّجك في الثانويّة، ومن ثمّ في الجامعة، وفوزك بشهادة تضمن لك استقرارك في وظيفة تقيك مشقّة الاعتماد على أهلك!

مكتبة الفكر الجديد

– يعني بعد سنوات.

– لا يهم، أمّا الآن فكلّ الذي أتمنّاه أن تكفّ عن المجيء إلى الدار، لا لشيء إلاّ لتفادي الاعتداء عليك، فالناس الذين أعمل عندهم أقرب إلى الوحوش منهم إلى البشر، ولا خيار عندي حالياً لتحصيل لقمة عيشي حتّى تسنح لي الفرصة لتغيير الدار أو العمل نفسه.

– ولكنّي أحبّك ولا أطيق فراقك ، لا أطيق.

تهدّج صوته، جاشت نفسه ألماً وفاضت عيناه بالدموع.

ارتمت في أحضانه تقبّله وتضمّه ودموع الفرح في عينيها، وهمسها يختلج مع خفقات قلبها:

– لا تقلق يا حبيبي! كلّ شيء سيكون على مايرام.

كانت كأنّها تلوذ بحبّه، تحتمي به من قساوة ما يحدق بهما من إرهاقٍ واغتصابٍ وجوعٍ ومذلّةٍ وعنف.

من بين سدول الدغل، وفي حركةٍ خافتةٍ خفيّة تدلّ على ترصّد مسبقٍ ومراقبة، انبعث بغتةً من عالم الصمت الأخضر رجل حافٍ نابت الذقن في منتصف العمر، ترتسم على وجهه أخاديد الأرض وعيناه حمراوان من حسّاسيّة الغبار.

على رأسه كوفيّة كالحة يعتمرها، وفي وسطه منجل يحمله، ظهر يرتدي دشداشة حال لونها فبدت أقرب إلى الخرقة منها إلى الجلباب، هي ولا ريب رداء العمل.

لم يفطنا إليه وهما في خضمّ مناجاتهما، يذهلهما حبّهما عمّا يجري في الجوار، إلاّ عندما ألقى السلام عليهما، فكان كمن يدحرج صخرةً من علٍ فيُسْمَعُ لسقوطها وقع المفاجاة.

مكتبة الفكر الجديد

- سنجتاز الصعوبات، سنبني حياتنا بعيداً من دائرة الاضطهاد المحيطة بنا.

- أنا اخترت مهنتي بنفسي لأنني لا أتقن سواها.

- لو كنّا نعيش في مجتمعٍ عادلٍ سوي لما اضطررت إلى هذه المهنة. أنت تتعرّضين إلى الاستغلال لأنّك فقيرة ويتيمة ولم تتح لك الظروف لتعيشي حياة أفضل، لا مهنة ثابتة لأحد، كلّ شيء يمكن تغييره.

- وهل ما يشغلك هو الاستغلال؟

قالت في نبرةٍ لطيفةٍ لا تخلو من المرح، ومن سخريةٍ طفيفةٍ غير مقصودة.

- لا ليس الأمر كذلك فقط، إنّما أنا أحبّك يا فاتن أيضاً.

قال وقد تخضّب وجهه، فهو بطبعه خجول وانطوائيّ، ونادراً ما يفضي بما يخالجه إلى أحد.

خفق قلبها من فرط سعادتها وأخذت يده في حضنها وقالت على غير رغبةٍ منها، فهي لحضور بديهيّتها وخبرتها العميقة بالحياة على الرغم من صغر سنّها أصبحت تدرك وضعهما على نحو أوضح:

- لنكن واقعيين علاّوي، سيقف الكلّ بوجهك أوّلهم أهلك، وهل تقوى على مواجهة الجميع؟ ما الذي في وسعك أن تفعله حينذاك؟

- لا تشغلي بالك بكلّ هذي الترّهات بحقّ الجحيم!

- علاّوي خلّنا نؤجّل هذا الموضوع الآن إلى حين تخرّجك في الثانويّة، ومن ثمّ في الجامعة، وفوزك بشهادة تضمن لك استقرارك في وظيفة تقيك مشقّة الاعتماد على أهلك!

مكتبة الفكر الجديد

- يعني بعد سنوات.

- لا يهم، أمّا الآن فكلّ الذي أتمنّاه أن تكفّ عن المجيء إلى الدار، لا لشيء إلاّ لتفادي الاعتداء عليك، فالناس الذين أعمل عندهم أقرب إلى الوحوش منهم إلى البشر، ولا خيار عندي حالياً لتحصيل لقمة عيشي حتّى تسنح لي الفرصة لتغيير الدار أو العمل نفسه.

- ولكنّي أحبّك ولا أطيق فراقك ، لا أطيق.

تهدّج صوته، جاشت نفسه ألماً وفاضت عيناه بالدموع.

ارتمت في أحضانه تقبّله وتضمّه ودموع الفرح في عينيها، وهمسها يختلج مع خفقات قلبها:

- لا تقلق يا حبيبي! كلّ شيء سيكون على مايرام.

كانت كأنّها تلوذ بحبّه، تحتمي به من قساوة ما يحدق بهما من إرهاقٍ واغتصابٍ وجوعٍ ومذلّةٍ وعنف.

من بين سدول الدغل، وفي حركةٍ خافتةٍ خفيّة تدلّ على ترصّدٍ مسبقٍ ومراقبة، انبعث بغتةً من عالم الصمت الأخضر رجل حافٍ نابت الذقن في منتصف العمر، ترتسم على وجهه أخاديد الأرض وعيناه حمراوان من حسّاسيّة الغبار.

على رأسه كوفيّة كالحة يعتمرها، وفي وسطه منجل يحمله، ظهر يرتدي دشداشة حال لونها فبدت أقرب إلى الخرقة منها إلى الجلباب، هي ولا ريب رداء العمل.

لم يفطنا إليه وهما في خضمّ مناجاتهما، يذهلهما حبّهما عمّا يجري في الجوار، إلاّ عندما ألقى السلام عليهما، فكان كمن يدحرج صخرةً من علٍ فيُسْمَعُ لسقوطها وقع المفاجاة.

مكتبة الفكر الجديد

جفلا منتبهين من غفلة انسجامهما معاً وطالعاه مأخوذين، وردّا التحيّة تلقائياً من غير تركيز.

إنّ ما يعرو مظهره من وعثاء العمل في الأرض ليدلّ على طبيعة وجوده في الحقل، ويشير إلى أنّه الفلاّح المعنيّ برعاية نخله وزروعاته.

وقف الرجل على مسافةٍ وجعل يرمقهما في ريبٍ ثمّ أشاح ببصره، على أنّه لم يطق صبراً فعادَ يختلس النظر بطرف عينه متوجّساً.

- لنرحل علاّوي!

قالت بديعة وقد تولاّها الفزع.

- نعم، أظن ذلك.

قاما بهدوء يحثّهما حافزٌ على الابتعاد قدر الإمكان من ذلك الوضع القلق الذي فرضه الفلاّح عليهما، وأخذا يتمشّيان على حاشية النهر وشعور بالضيق يتملّكهما من ذلك المتطفّل الذي يرى في خلوة شابّين معاً إثماً وجريمة. وبينما هما ينأيان لبث الرجل واقفاً لا يريم يتفرّس فيهما بعين الشكّ والتهديد. طوتهما زحمة أشجار النخيل وأخذتهما مسالك البستان إلى منافذه يريدان طريق الخروج حتّى اختفيا تماماً في الخضرة والأفياء.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثامن

كرة قدم وطيور وأمور أخرى

السماء تميل إلى العصر، والشمس تتراجع ببطء أمام ظلال ترخي سدولها بأناة واستمرار، حتّى ليظنّ المرء من تلكؤ الشمس أنّ النهار لا يشارف الزوال.

هذا هو الوقت المناسب للترويح عن النفس، للعب، للنزهة، وللشرب: الوقت الذي يعقب نهار العمل والقيلولة القصيرة، فيغادر الرجال مآويهم تاركين وراءهم بين الحيطان نساءهم وأطفالهم.

الآن يقف رزّاق منصتاً مثل سلحفاة تنتصب على قائمتيها الخلفيّتين بين الفتية لاعبي فريق نظران لكرة القدم، بسراويلهم القصيرة الخضر وفانيلاتهم البيض، فيما يقوم مساعده الفتى وسام بإصدار التعليمات والإرشادات.

بعضهم يصغي وبعضٌ آخر يمرّن عضلاته ويحمّي جسده قبل بدء المباراة ضدّ فريق محلّة صبخة العرب. وإذا كان رزّاق يلتزم الصمت إلاّ عند الضرورة، فإنّ لحضوره سطوة تجعل ملاحظات مساعده

مكتبة الفكر الجديد

شرعيّة وذات معنى وفاعليّة.

كان الناس يتحلّقون حول الساحة التابعة لثانويّة البصرة للبنين كالنباتات المحتشدة في شاطئ النهر، واقفين وجالسين، يعييهم الانتظار وتستغرقهم اللهفة لبدء المباراة.

والساحة تلك متربة واسعة على غير استواء، ومخصّصة لكلّ أنواع التجمّعات والفعّاليّات المدرسيّة، وهي تحديداً خلاء فسيح أكثر منها ساحة نظاميّة، على غرار أغلب ساحات المدينة؛ لا يقوم فيها غير شاخصي الهدفين الحديديين العاريين من الشباك، ولا يقطعها سوى الكلاب والسابلة العابرين بين الوقت والوقت.

لا أسيجة تسيّجها ولا حدود مرسومة معلومة لها، وترى في بعض أطرافها مناقع مياه آسنة لا يعيرها أحدٌ انتباهاً.

في الليل تستبدّ بها الظلمة باستثناء نثار ضوءٍ تلقيه مصابيح الشارع، منيرةً حوافها القريبة منها، فيندر اجتياز عتمتها خلا الحيوانات ترودها، تعدو متنقّلة مابين النهر والبساتين من جهةٍ، وأكواخ محلّة البلوش من جهةٍ أخرى.

بإزاء أكواخ القصب ومنافذ المسالك الطينيّة، على تلّة محلّة البلوش المطلّة على الساحة، يفترش النظارة السود قاطنو الخصاص الأرض بدشاديشهم العتيقة وأنعلهم المطّاط، ويقف آخرون على مقربةٍ من محلّ عنتر[1] لإصلاح الدرّاجات الهوائيّة وإعارتها بأزيائهم الخليجيّة: دشاديش بيض تشفّ عن ملابس داخليّة بيض، وكوفيّات بيض أو حمر، وأنعل من الجلد اللامع. وهم بمعظمهم من سكّان

١ عنتر: عاميّة والأصل عنترة.

مكتبة الفكر الجديد

محلّة نظران، إلاّ أنّ أصولهم البعيدة تعود إلى إمارة الكويت التي لا تزال تربطهم بها صلات نسب وعمل.

وفي أوقاتٍ كهذه يغتنم أحدهم مناسبة التجمهر فيراكم ما يستطيع من علب الدخان وأكياس اللب وصناديق المشروبات الغازيّة: بيبسي، سينالكو، فانتا، كوكاكولا على طرف الشارع مباشرة، عارضاً بضاعته على المتفرّجين الذين يضجّون من حوله بالصراخ والإلحاح، وهو بينهم يدور كلولبٍ لا يهدأ ملوّثاً بالعرق والغبار.

توزّع اللاعبون في الساحة كلٌّ في مكانه الذي رُصِدَ له، على الرغم من خلوّ الملعب من أيّة علامات أو إشارات أو خطوط دالّة على تقسيم ما. وانشدّ الجمهور شاخصاً ببصره إليهم إثر انطلاقة صفّارة الحَكم معلنة بدء المباراة. مع مرّ الوقت تأجّجت الحماسة وجعل المتفرّجون يهتفون مهلّلين تارة، ويصرخون شاتمين لاعنين طوراً، والغبار يعجّ مع الصفير والزعيق. انتبذ رزّاق مكاناً له قرب محلّ عنتر مراقباً بعين متفحّصة أداء فتيانه، ودخان سيجارته يعلو فوق رأسه القصير الشعر.

وهو في الثلاثين من العمر، قصير، شديد الدهاء، وُلِدَ مكسور الظهر، تشي حركاته بقوّة آمرةٍ مصدرها نظراته والإشاعات الرائجة عنه بصفته مخلوقاً مشوّهاً عنيفاً، جريئاً لا يتورّع عن الضرب بالسكّين.

يرتدي كالعادة دشداشة وينتعل خفّاً جلديّاً، ولا تكاد السيجارة تفارق فمه، يترك دائماً حاشيةً من الدنانير ظاهرةً من جيبه العلويّ كناية عن غناه، وإن لم تكن الحقيقة كذلك، إلاّ أنّ كثراً يتحدّثون عن

مكتبة الفكر الجديد

إسرافه وكرمه في جلسات الشرب واللهو الليليّة في بساتين النخيل.

من زاويته كان منهمكاً في متابعة أداء وسام، وهو يدور وينقل الكرات، يناور ويتسلّل، يثب ويزوغ، فيتيه زهواً بموهبة فتاه الذي ظلّ محطّ أنظار الجمهور، يتسنّم عرش المباراة ويقودها في شراسة وفتنة ما بين هجوم ودفاع، والوقت يذوب من دون أن يحسّ به أحد، والقلب يخفق مغموراً بالإعجاب، والعين تنشدّ سارحةً مع الكرة المتقاذفة بين الأرجل: غاية الجميع، مبتغاهم ومرتجاهم.

واللعب لا يحلو إلاّ بالفوز وإلاّ لن يصبح لعباً، لا شيء يصير، على غرار الحياة نفسها، لا شيء رمادياً فيها، إمّا أبيض أو أسود، ذاك رأي الجمهور ومزاجه، لكنّ للحكم رأياً مغايراً غير قابل للتمييز، حين صفّر منهياً زمن المباراة بالتعادل هدفاً واحداً لكلٍّ من الفريقين، مما خيّب أمل الناس الذين تفرّقوا متذمّرين، فالتعادل لا يعني إلاّ أنّ شيئاً لم يحصل، وإن كانوا قضوا خلال ذلك وقتاً حلواً وشائقاً.

كانت أجساد الفتيان حامية، تنضح عرقاً، شعورهم مبلولة وجلودهم مغطّاة بالغبار، لهاثهم يتلاحق وآثار سحجات ورضوض وجروح تعتور أطرافهم، منهم من يمسح وجهه بفانيلته، ومنهم من يكرع الماء، وآخر يجلس محتقن الوجه، ثمّ تجمّع كلٌّ حول رئيسه يتطارح وإيّاه الآراء في ما جرى.

وسط فتيانه وقف رزّاق منصتاً يدير عينيه بينهم، فيهزّ رأسه مؤكّداً ما يسمع من آراء وأفكار مرّةً، وينبس بكلمات مبتسرة تدفّ من بين شفتيه طائرة طوراً، ومظاهر الحنكة والمرونة تعلو أساريره، بينما يتولّى وسام مهمّة الردّ على الأسئلة، وتبيان مبعث الإخفاق،

مكتبة الفكر الجديد

وإمكانات تفاديها مستقبلاً لكسب الفوز.

وكان الفتية يعيرونه انتباههم ويسايرونه بهزّ رؤوسهم، وظلال اعتراض تتحرّك خفية في عيونهم، إذما يلقون نظرات متسائلة على رزّاق الذي يؤكّد سكوته ثرثرة وسام ولغوه.

لا تلبث حلقتهم أن تتفرّق فيخفّوا إلى ثيابهم المحشوّة في حقائب وزكائب يرتدونها، وفيهم من يفضّل العودة إلى داره بملابسه الرياضيّة المبتلّة بالعرق، وبما انسفح عليها من ماء في غمرة الإقبال بشراهة ولهوجة على جرادل ماء أحضرها على عجلٍ متطوّعون من حنفيّات المدرسة الثانويّة.

يودّعهم رزّاق وييمّم وجهه شطر ورشة عنتر.

وعنتر أربعينيّ ممتلئ قصير يلازمه مرح، وتشوب حديثه سخرية ناجمة عن ثقة بالنفس، وعن أسى دفين لا يعرف مصدره أحد سواه. كبير الرأس كبراً تحسبه العامّة مزية ذكاء، بينما يراه أهل العلم علامة بلادة وبلاهة؛ وله شارب ضخم على غرار ما لدى ستالين، يوليه عنايته ويظهره كملمحٍ متميّزٍ في قسماته. يضع عليه قميصاً وبنطلوناً ناصلين، نسلت حواشيهما من فرط استخدامهما وقدمهما، ولا يخلوان برغم الغسيل من آثار زيت وأصباغ باهتة.

ومحلّه الواسع القائم وحده منفرداً في ذلك الخلاء على طرف الساحة، كناية عن مشغلٍ لإصلاح الدرّاجات الهوائيّة، ومرآب لصفّ ما يملكه منها بغية تأجيرها.

سقفه واطئ كسائر المحال العفويّة البناء، أرضيّته الإسمنتيّة مبتلّة بالماء وبقع الزيت من جرّاء المعالجات الميكانيكيّة.

مكتبة الفكر الجديد

والحيّز داخله مكتظٌّ مزدحمٌ بالأشياء: حوض ماء مسوّى من نصف برميل، مقاعد، موقد نفطيّ لتصميغ المطّاط، طاولة العمل الخشبيّة الواطئة، رفوف وصناديق وعِدد وقطع غيار، وغير ذلك من مواد تجعل بتراكمها الزوايا البعيدة غارقة في الظلال.

أمّا المحل نفسه فجلّه من الطوب الذي سفعته الشمس فنالت من دهانه الأحمر، فتشقّق وتساقط، فضلاً عن التلف الذي لحق بابه الحديد بسبب محاولات السرقة وعمليّات التخريب التي يمارسها البعض للتسلية والترويح عن النفس.

هاهو عنتر اللحظة يُغطِسُ في الحوض إطاراً منفوخاً متابعاً ببصره مسرى الفقاعات المتصاعدة من ثقبٍ فيه خلال الماء، حين غمز نور النهار ظلّ رزّاق وهو يدخل، فحجب بعضاً من الضوء عن الحوض.

وكان قد اعتاد الاختلاف إلى المحل، يسلّم على عنتر، يتجاذب معه أطراف الحديث، ويستعين به في بعض المشاغل.

من عمق المكان يتبيّن الداخل إذا أرهف سمعه دبيباً ينِدّ عن طيورٍ، هي لو دنا منها لوجدها ثلاث حمامات أليفات من نوع الهنداويّ[1] في قفصٍ من الجريد.

تهاديا التحيّة واحتلّ رزّاق مقعداً واطئاً حذاء منضدة العمل. ارتخى فارجاً رجليه وجعل يدخّن. قرّب منه منفضة ونفض فيها رماد سيكارته الـ"روثمن".

– أحضرت المباراة؟

١ الهنداويّ: ضربٌ من الحمام أبيض أو أسود لا يميل إلى الطيران. له صدرٌ بارزٌ وذيل أشبه بذيل الطاووس. يُقتنى عادةً للزينة.

مكتبة الفكر الجديد

تساءل رزّاق من دون غاية ما إلاّ للدردشة ومناقلة الحديث.

- شويّة منها، كنت أطلّ من المحلّ حين يشتدّ الصخب. أنا مشغول كما ترى.

قال عنتر وهو يسارقه النظر بزاوية عينه.

ترك مابين يديه وقعد وراء الطاولة المزدحمة بأقلام وأنابيب صمغ ومفكّ ومبرد ومطرقة صغيرة ولفّة لاصق، ودفتر ضخم رثّ متّسخ بالزيت خاصّ بمستأجري الدرّاجات الهوائيّة. نحّى الأشياء جانباً ليتسنّى له وضع يديه أمامه، إيماءة منه إلى تأجيل عمله مؤقّتاً، مانحاً نفسه وقتاً يتيح له تشقيق الحديث مع ضيفه. تناول سيجارة قدّمها إليه رزّاق دليل مودّة ومشاركة في اقتناص لحظاتٍ للراحة، تجعل الحديث شعاعاً يومض برفق.

قال عنتر موارياً خبثه بابتسامةٍ ما لبثت أن فضحته، وهو ينفض سيكارته في المنفضة ويرفع نظره إلى رزّاق:

- كيف حال وسام؟

اختلج ضوءٌ غريبٌ في عيني رزّاق وتولاّه توفُّز، تداركه وهو يطالع عنتر بنظرةٍ محترسةٍ، وردّ بصوتٍ فاترٍ لامبالٍ:

- ماذا به؟

- لا شيء أسأل فقط.

- جيّد.

انفجرت قهقهة عنتر فجاةً كأنّ ضوءاً قويّاً أنار حلكة الظلام على مخلوقات في الجحور ففزّت مرتبكة وفرّت.

- قل لي بربّك ماذا يضحكك؟

مكتبة الفكر الجديد

استفسر رزّاق محدّقاً إليه في ريبةٍ وحيطة، ثمّ هرس سيكارته في المنفضة بغضبٍ وأكمل:

- يجب أن أغادر.

- لا، لا، اجلس، مالك؟ ألا ترى أنّني في مزاجٍ طيّب؟

- سآخذ طيوري، مزاجك لا يعجبني.

قام وتوجّه إلى قفص الطيور.

- اقعد! ما بالك؟

- لقد وعدت أستاذ اسماعيل بها في مثل هذه الساعة.

حمل رزّاق قفص الجريد من عروته الليف، ألقى تحيّة الوداع في فتور وبارح المكان. واجهته الشمس الساطعة فرفّت عيناه، أخفضهما ومضى في سبيله.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل التاسع

سميرة الكلدانيّة[1]

الفناء في بيت أستاذ إسماعيل ملعب للريح، مخدّة للغبار وجرنٌ للمطر. تحتضنه السماء ليلاً وتصاحبه نهاراً، أرضه بلاط أصفر، تنفتح عليه أربع غرف، وباب درج يغلق آخر العشيّة خوف تسلّل القطط وزوّار الليل من السطح، ومطبخ تتعرّشه الظلال مهما أشاع النهار فيه من ضوء، لعمقه واسوداد جدرانه بالهباب.

الفناء المفتوح على الفضاء يشعرك بالإقامة في الخلاء، وأشعّة الشمس المندلعة في جنباته تدفعك إلى اللوذ بظلال الأفاريز والجدران. ولا مهرب من الرياح والغبار إلاّ بالمكث وراء الأبواب المسدودة، حتّى إذا هدأت السماء وبارحتَ الحجرة وجدتَ نفسك تمشي على ملاءةٍ من غبار، ووراءك آثار خطوك تتبعك؛ أمّا إذا هطل المطر فالوصول إلى المطبخ من الغرف يضحي خوضاً في بركة،

١ الكلدان: طائفة مسيحيّة عراقيّة تعود أصولها إلى أيّام البابليين.

مكتبة الفكر الجديد

تعلو وتتجبّر ما بقي المطر هاطلاً، حتّى إذا أقلعت السماء شرعت المكانس تجرف الماء وتجفّفه.

لكلّ سماء طيور، وهي هنا حين تحلّق فوق ذلك الفناء تُسمع أصواتها واضحة إذا عنّ لها إبداء رأيها، أو قد تسحل فقط جهاراً بلا حياء وتواصل طيرانها من دون اكتراث.

في الصيف ينام الناس على السطوح فيتحوّل مهجع الأولاد الشتويّ إلى غرفة لمشاهدة التلفزيون. تُمَدّ الحصران على البلاط، وتُفرَش الفرش والمخدّات، تدور المروحة السقفيّة الكهربائيّة، يُفتَح الباب، ويُشرع الشباك، يسري الهواء فتفتر الحرارة، ويدخل اتّفاقاً النحل والذباب ليمرح، فإذا هو يضطرب بين الجدران ويهرب.

في صدر الغرفة يرقد رمزي محموماً على الفراش، وأمّه نادية والشابّة سميرة الكلدانيّة تجلسان في جواره وتشملانه بالاهتمام والعطف. بدا رمزي هزيلاً شاحباً فارقته حيويّته، وهو يرنو إليهما من مضجعه متوجّساً خيفةً مما يعدّ له من أمرٍ في اللحظات القادمة، فقد كان يدرك من تجارب سابقة سرّ وجود سميرة الساعة حذّه.

وسميرة نحيفة ودود في عينيها السوداوين جاذبيّة ساحرة. تلمّ بوجهها الأبيض الجميل أمارات تعب فتلوح أكبر من سنّها في الواقع، ولا يخلو محيّاها من الحزم أحياناً.

امتهنت التمريض بعد تلقّيها عدّة دورات أقامتها وزارة الصحّة لحملة الشهادة الابتدائيّة، فغدت ممرّضة ذات ترخيص خاصّ من الوزارة نفسها؛ وسعت هي من جانبها إلى تقديم المساعدة مجّاناً في المشافي لتطوير إمكانيّاتها فاكتسبت حصيلة ثرّة من التجربة والمران

والاطّلاع وحسن التخلّص من المعضلات، وباتت على دراية وافية بما يلحّ من عوارض وطوارئ في حياة الناس اليوميّة: إيلاد النساء، معالجة الجروح، زرق الحقن، وتجبير العظام وسوى ذلك، مما درّ عليها دخلاً وافراً وسمعة طيّبة، دأبت في تكريسها بحماسةٍ وحرص.

الآن عالجت قفل حقيبتها الجلد، تناولت منها علبة فضيّة مستطيلة لألاءة وأخرجت منها جزئي محقنة، شدّت بعضهما إلى بعض بأصابع مدرّبة، ثمّ غرزت الإبرة اللامعة الطويلة المروّعة في غطاء عبوة صغيرة وسحبت المحقن على مهل إلى أن أفرغت العبوة من البنسلين، وكانت نادية قد ساعدت ابنها رمزي على أن ينقلب على بطنه، فاستدار على مضض خائفاً، حتّى إذا كشفت الأصابع عن إليته وراحت تمسح ربوتها بقطنةٍ مبلّلة بسائلٍ معقّم توتّر جسمه وأغمض عينيه.

اختلج صدره بالنهنهة وسالت دموعه: آخر وسيلة للدفاع اللامجدي، وآخر مظهر للاستسلام لأيدي قاهريه.

أمّه تفيض رفقاً به، تشدّ من عزيمته وتربت على شعره ملاطفة، تحاول إقناعه بأهميّة الدواء وفاعليّته في سرعة الشفاء والتخلّص من المرض، على رغم أنّ حضور سميرة لا يسوءه بل يرغب فيه، وإذا كان لابدّ من الحقن فهو يفضّل أن تحقنه هي لا غيرها لأنّها لا تسبّب له ألماً، وإن كانت الحقنة بحدّ ذاتها تنهك أعصابه.

مسح رمزي دموعه وأمّه تساعده على الاستلقاء كما يرغب، وتعدّل له فراشه هامسة بأنّ الشدة قد زالت وأنه سيشفى قريباً وينهض كالفيل.

مكتبة الفكر الجديد

وما هي إلاّ أن انزلق فجاةً في غفوةٍ على هدى وشوشات أمّه، فأعصابه مكدودة حتّى الإرهاق من الحقنة، وجسمه عليلٌ مُجْهَدٌ من حمّى التهاب اللوزتين.

جاءت نادية بكأس عصير ليمون مثلج وقدّمته إلى سميرة، وجلست بإزائها وقد شاع الأنس في روحها، وتوشّح قلبها بوشاح الصراحة والمحبّة، ويقين يتملّكها بأنّ سميرة قرينتها في الوفاء والصداقة، في السرّ والعلانية. فقالت بهمسٍ مشوبٍ باللطف والتشجيع:

- كيف هو يوسف؟

- حكى لك رمزي؟

تساءلت سميرة مبتسمة وقد أشرقت في وجهها حمرة الخجل، وكان رمزي قد صار مرسال غرامٍ بين الحبيبين متعهّداً مواعيدهما بالرعاية والاهتمام.

- أنت تستحقّين كلّ الخير، لأنّك طيّبة وحلوة، ويوسف شاب مثقّف يناسبك ويكنّ لكِ كلّ الحبّ.

- يحبّني؟

هتفت ضاحكة وقد طغى البشر على محيّاها، وتلألأت عيناها بالفرح، فقالت نادية:

- أحياناً يلهيني رمزي بحكاياته.

- الحبيب رمزي.

قالت سميرة ورنت إليه بعطفٍ ووجه باسم وواصلت:

- الشيطان الصغير، لماذا يفعل ذلك؟

- رمزي لا يملك أن يغلق قلبه دوني، هكذا الأطفال مع أمّهاتهم،

مكتبة الفكر الجديد

يريدون إرضاءهنّ، وهو لسببٍ أجهله لا يبوح بشيء لأبيه، كما يلتزم الصمت أمام الآخرين، رمزي بئر.

– أنا أمزح، إنّ قلبي ليخفق فرحاً وحبّاً لرؤيته.

* * *

وكان رمزي عندما يلوذ بصدر أمّه كلّما سنحت له سانحة يبثّها أسراره، يخبرها كلّ شيء يطرأ عليه أو يقوم به، يخطر له أو يراه في أحلامه، كعادة الأولاد في الإسرار لأمهاتهم.

فأخبرها ذات نهار أنّه كان يتمشّى وسميرة يتحدّثان عندما أقبل عليهما يوسف بادي البشاشة وحيّاهما بحرارة، أو لعلّه افتعل ذلك بنيّة التقرّب من سميرة، ثم بدأ بالفعل يطارحها الكلام ويقهقه مسروراً.

– وهي؟

– كانت فرحة منشرحة وقد نسيتني، وأظنّني لمحت شفاهه تلامس وجهها.

– باسها تعني؟

– لا أدري، لكنني متأكّد من أنه كان يلامس شعرها وخدّها بأنامله.

– وماذا فَعَلَتْ؟

– لم توقفه عند حدّه، ترى ماذا يريد منها بالضبط أماه؟

– إنه يحبّها ابني.

مكتبة الفكر الجديد

- وما الحبّ ماما؟

ضحكت.

- مثلما أنا أحبّك وأبوسك وأربت على شعرك.

- وأنت وبابا؟

- صحيح.

- لكنّهما لاينامان مع بعضهما بعضاً؟

- لا أعرف حتّى الآن رمزي.

- وإذا ناما معاً هل يتعرّيان؟

- على الأغلب يتخلّص المرء من ملابسه.

- ثمّ يفعلان بنفسهما مثل الكلاب؟

- وهل رأيت الكلاب تفعلها؟

- كثيراً، ولكنّني لا أظنّهما يتعرّيان، قد ينامان معاً ولكن بكامل ملابسهما.

- لماذا؟

- لأنّ الإنسان لا يتعرّى أمام الآخر، فذلك عيب.

- الحبّ ليس عيباً ابني.

- ما إن نبصر كلباً فوق كلب حتّى ننهال عليهما بالحجارة.

- لا، ذلك حرام، مابالك، هل أنت متوحّش؟

- الأولاد يرمون فارمي.

- مرّة أخرى قل لهم أن يتركوا الكلاب وشأنها، لأن الله لا يحبّ تعذيب الحيوانات.

- وهل يقبل الله أن تقفز الكلاب على بعضها بعضاً.

مكتبة الفكر الجديد

– ولماذا يرفض، مادام قد خلقها كي تنجب جراءً، ليس من عيبٍ إذا ما تحابّت، فهي لا تدرك معنى الاحتشام لأنها حيوانات غير عاقلة.

– والناس؟

– ما بهم؟

– أين يتحابّون؟

– في الغرف بالطبع.

– ويغلقون الأبواب عليهم؟

– على الأرجح.

رنت إليه بلطف ولم تسترسل.

* * *

يقضي إسماعيل الشطر الأعظم من وقته في غرفته المسدودة غارقاً في الوحدة والتأمّل والتدخين، وقد يتسلّل متطامناً من شبّاكها صوت راديو، وإلاّ فهي تظلّ خالية مفتوحة الباب على فراغٍ مطفَأ وسكون مقيم حين يبارحها إلى المدرسة الثانويّة أو إلى حيث يلتقي صحبه في القهوة.

اعتاد القعود إلى طاولة الزينة مرتدياً الفانيلة وسروال البيجاما والمشّاية البلاستيك في قدميه، يحدّق إلى وجهه في المرآة فلا يراه، لأنّه يغرق في ماضيه، تغمره الذكريات وتراوده أطياف تتسرّب من دواخله، فينسى الراديو مفتوحاً على هواه فترة من الوقت ثمّ يقوم

مكتبة الفكر الجديد

يتناول كتاباً من مكتبةٍ إلى يساره تغصّ بالكتب الإنكليزيّة الملفوحة بحرائق الحرب العالميّة الثانية، والمؤلّفات الماركسيّة- اللينينيّة العابقة بدخان المعامل، وكتب سارتر وكامي وسيمون دي بوفوار ولوكاتش وهيغل ومذكّرات ديغول ومونتغومري وجوكوف وروميل، إلى كتب أخرى مختنقة بسير ستالين وهتلر وتشرشل، مثقلة بالأنقاض والليل الحالك وصفّارات الإنذار.

والغرفة لصغرها تكاد تختنق بالمتاع والأثاث: خزانة بدرفتين تفوح بعبق النفثالين، كومودينو يضوع برائحة الأدوية، سرير عريض قديم، مشجب ملابس، راديو، كرسي، مروحة كهربائيّة سوداء اللون، وصورة واحدة على الحائط للأستاذ شابّاً ضامر الوجه حزيناً.

ولا يلمح المرء ملمحاً أنثويّاً على طاولة الزينة، فنادية تقضي سحابة نهارها في هذا الركن أو ذاك من البيت ولا تدخل الغرفة إلاّ للتنظيف أو النوم ليلاً، وأحياناً إذا لم يطلبها إسماعيل لإشباع رغبته ترقد مع الأولاد في غرفتهم.

الآن في تلك الغرفة يجلس رزّاق الأحدب أمام إسماعيل على كرسيّ من الألمنيوم والبلاستيك وقد ران على وجهه تعبيرٌ يتّسم بالانشراح والراحة، تاركاً قفص الطيور الخافق بالرفرفة والخشخشة في الحوش وراء الباب الذي لو انفتح على مصراعيه لتدفّق من خلاله فضاء مُشبَّعٌ بالضوءِ والغبارِ والريش.

غير أنّ ما أشعّ للحين عبر شقّ فرجته من وهجِ شمسٍ، نوّر الغرفة بضوءٍ أبهت إلى حدٍّ ما نور المصباح الكهربائيّ.

مكتبة الفكر الجديد

قدّم إسماعيل سيكارة (كاميل) إلى رزّاق وأشعل أخرى لنفسه ثمّ قال:

- سعيّد فختاية استولى على طيري.

فاستفهم الأحدب مهتمّاً:

- أيّ واحد؟

- الأشعل أبو ريشة[1].

- متى؟

- عصر أمس، عنما أطلقته إلى الفضاء جذبته دوّارة طيور سعيّد بتوجيه منه، ثمّ أنزلهم جميعاً على سطح داره.

- سعيّد عندي، لا عليك.

ثمّ قام فأتى بالقفص وحطّه على الأرض حيال إسماعيل وعاد إلى مجلسه:

- أريد الأبيض فقط.

قال إسماعيل من وراء دخان سيكارته كأنما حسم أمره من نظرةٍ واحدة.

- خذ الأسود معه فهما ولفان! ويبقى الثالث لي أدبّر أمره.

- حسنٌ، ولكن لا تغالي في السعر.

- لا مال بيننا أستاذ.

- شكرًا رزّاق، كيف الفريق؟

- تمام، كلّ شيء حلو.

---

[1] الأشعل أبو ريشة: ضرب من الحمام يُعْرَف بألعابه البهلوانيّة خلال طيرانه، أسود وفي ذيله ريشة واحدة بيضاء.

مكتبة الفكر الجديد

أمسك هنيهة ثمّ واصل مستفهماً:

- سمعت أستاذ بحكاية علي الأعرج وبديعة؟

- ماذا بهما؟

- أووهوو كانّ الدنيا انقلبت حين خطف الأعرج بديعة إلى البستان.

- علي المسكين يخطف بديعة؟ لابدّ أنك تهزل.

- لم يخطفها بالقوّة طبعاً، وإنما أغواها.

- طيّب، وما الضير في ذلك إن كانا كلاهما متّفقين على الأمر؟

وما هي إلاّ أن أدنى رزّاق وجهه منه وسأله هامساً وقد التمعت عيناه:

- وهل رأيت بديعة أستاذ؟

- لا، أسمع بها فقط، وصلتني حكايات لا تخلو من مبالغة.

- السماع ليس كالنظر، ملكة جمال، وجه وجسم، أناقة ورشاقة.

- قالوا ذلك.

- مارأيك بصحبتها؟

- لا أميل إلى الفضائح، ثمّ أنا أداري اقتصادي، فدخلي محدود.

- إنّما الرزق على ربّ العباد. لا تَغْتُل همّاً! كلّ المال تحت رجليك. إذا أحببت فلديّ شقّة في منطقة العشّار تعجبك، ترى الحلوة فيها متى شئت، وليطمئنّ بالك إذا كنت متوجّساً من المكان، فالشقّة غاية في السريّة والأمان، أمّا الفضائح فاتركها لي أتولّ أمرها!

حتّى إذا ألفى الإثارة قد جعلت إسماعيل ساهماً يقلّب العرض في خلده، والحيرة تمور في عينيه قال مكرّراً مراوغاً:

مكتبة الفكر الجديد

- إذا أحببت، وإلاّ فلا تشغل بالك ودع القرار للمستقبل يأخذ مجراه!

- ولكن علاّوي تلميذي وقد تبلغ القصّة مسمعه بطريقةٍ ما، ولا أريد أن أكسف خاطره.

- الأعرج؟ وأيّ شأن لك فيه؟ إنه صبيّ ساذج وفقير، نزّاع إلى العنف على الرغم من ضعفه وعاهته، يكره الناس ولا أحد يحبّه.

- وما يحملك على هذا الظنّ؟

- الحارة ضيقة، والناس تعرف بعضها بعضاً.

- وما قصّة الشقّة تلك؟ من أين أتيت بها؟

- موجودة أستاذ، كلّ شيء بثمنه، قصارى التجارة في السوق علاقات عامّة ومصالح مشتركة.

- أو يكلّفني الشيء الفلاني كثيراً؟

- ستكون مسروراً منّي. ثق بشرفي! كم أستاذاً عندنا في المحلّة؟

انطلق إسماعيل في قهقهةٍ ساخرةٍ لاهية، فافترّ ثغر رزّاق عن ابتسامة مجاملة خائبة.

* * *

كان البيت قد خلا إلاّ من أهله، وعادت النفوس إلى سيرتها تجرّ وراءها أفكارها مثقلة بالظنون والآمال.

كان إسماعيل يتفحّص الطيرين مسروراً، ومفكّراً في إعداد عشّ

مكتبة الفكر الجديد

لهما في برج الطيور على السطح حين دخلت عليه نادية وقالت مستاءة:

- ألم أقل لك إنني لا أرغب في رؤية هذا الوغد عندنا في البيت؟

- وماذا في وسعي ان أفعل؟ من يتعهّد طيوري؟ ومن يدبّر لي طيوراً؟ ماذا يعنيك منه؟ انسيه!

- شخص خبيث، سمعته عاطلة في المنطقة، وسيرته سيّئة.

- خبيث أم طيّب، مالي ولسلوكه؟ أسأتزوّجه؟

- ماذا تقول في شخصٍ يتاجر بفتيان الفريق؟

- إشاعات حسّاد فاشلين.

ردّ الأستاذ معانداً على الرغم من معرفته بأنّ لتلك الأقاويل نصيباً من الصحّة.

قعدت على الفراش وطفقت تتأمّل الطيرين. حملها الإعياء على التراخي والميل إلى الراحة وصفاء البال بعدما أمضّها التفكير في مرض ابنها. قالت:

- سميرة الكلدانيّة تحبّ يوسف.

- الممرّضة؟

- إيْ.

- جميل. ليت شريعة الحبّ تسود بدلاً من بيانات الحرب.

- ورمزي مرسال غرامهما.

- ياله من بطل! كيف صار؟

- يتحسّن، أخذ حقنة بنسلين.

- التهاب لوزتين عادي. دورة بنسلين ويعود إلى سابق عهده.

مكتبة الفكر الجديد

- بالتأكيد.

ثمّ واصلت معلّقة وهي ترمق الطيرين في القفص:

- الهنداوي طير متكبّر وكسول، أقرب إلى الدجاج منه إلى الحمام.

- ولكنّه جميل.

- لا أجده كذلك، كم أخذ منك؟

- ليس كثيراً، لا أرى الرجل غشّاشاً كما تظنّين، معي في الأقل. فهو مثل أيّ فرد من حثالة البروليتاريا[1] يريد أن يعيش.

- مثل من؟

ضحكت متسائلة.

- لا شيء، لا أسمع حسّاً للبنات.

- في غرفتهنّ، كنت معهنّ قبل قليل.

وكان إسماعيل يغازل نادية ويشتهيها عندما يختلي بها صباحاً. تشتدّ الشهوة في عروقه، يتهيّج وتتأجّج رغبته في النزو حين يبصر ثوبها محشوراً بين فخذيها، أو ملزوزاً على ردفيها، أو يبين له طرفٌ من سروالها الداخليّ اتّفاقاً، في أيّ وضع قد تجد فيه راحتها، وهذا ما جرى اللحظة لمّا رفعت نادية رجلاً على رجل من غير قصد ومالت إلى الوراء متّكئة على مرفقيها.

قام من مجلسه على الكرسيّ وقعد لصقها على السرير. باس رقبتها ولحس شحمة أذنها وداعب عضوها وهي لا تستجيب. دار في خلده

---

١ حثالة البروليتاريا: هي الفئة الاستهلاكيّة غير المنتجة مثل الشحّاذين والبغايا والقوّادين والمشرّدين والمهرّبين والفتوّة والشطّار والعيّارين، كما جاء في كتاب المادية التاريخيّة الموضوع من قبل لجنة من الخبراء السوفيات.

مكتبة الفكر الجديد

أنها ليست بساخنة فلجّ في إحمائها، لكنّها همست بعد أن عيل صبرها:

- البنات في البيت، عندهنّ عطلة اليوم.

- لن يدخلن الغرفة.

فحّ بصوتٍ لاهثٍ رجّفته الشهوة وأضعفه التوسّل. سحب فستانها كاشفاً عن باطن فخذيها. أدخل يده في سروالها وجعل يدلك أنوثتها.

- في العشيّة، ألا تصبر؟

- لا، الآن.

وشوش متوتّراً ودمه يشتعل اشتهاءً. تصلّب منتصباً مهتاجاً حتّى ما عاد في طوقه إلاّ أن يخضعها لرغبته.

كان انتصابه معروضاً عليها فاحشاً. قامت رتّجت البابين فعمّت العتمة الغرفة، وسرى صوتها خافتاً متسائلاً:

- وإذا ناداني أحد الأولاد؟

- لن ينادي أحد.

ردّ نافد الصبر.

نضت عنها سروالها واستلقت على ظهرها فارجة ساقيها، فاعتلاها ودخلها وهو يعصر نهديها، حتّى إذا اشتدّت فورته وبلغت لذّته ذروتها شرعت أسنانه تنخس لحمها وتخز أعصابها. أغمضت نادية عينيها بشدّة وهمست متوسّلة:

- لا إسماعيل، أرجوك!

بينما شدق الرجل يتحلّب، يحتوي لحمها آخذاً بعضّه عضّاً

مكتبة الفكر الجديد

خفيفاً، ولكن من يدري متى يشتدّ العضّ ونادية متوتّرة تهمس كما لو أنّها تداري كلباً:

- لا تعض إسماعيل! لا تعض حبيبي!

حتّى إذا أراق غامراً غورها بمائه الدفّاق، رفع أسنانه عنها وسحب آلته من جوفها، فتنفّست الصعداء.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل العاشر

انظروا! إنّه يطير

في أوائل أيّار يغادر الربيع مسرعاً حتّى إننا لم نتعرّفه جيّداً؛ يتركنا متعجّلاً كأنه يتحاشى حضور الصيف القادم بعرباته الناريّة.

في هذا الوقت الضائع بين فصلين يبقى الهواء فاتراً ورقيقاً، والظلال لطيفة، من أوّل ظهور الضوء في السماء حتّى يضحي النهار؛ ساعتئذٍ تبدأ الحرارة بالارتفاع تدريجيّاً إلى أن تستعرَ في منتصف الظهيرة.

كانت زهور تخرج الأولاد للعب في حديقة الميتم صباحاً باكراً، فينتشرون في الظلال تحت أشجار الصفصاف واليوكالبتوس. الذباب يئزّ متخاطفاً، وعلى الأرض المعشبة بقع ضوء ترعّشها أوراق الأغصان المهتزّة بنسيم خفيف غير محسوس.

وإذا اشتدّ الحرّ واختنق الهواء بوهج الشمس، اصطحبتهم إلى البهو الداخليّ المزوّد بجهاز تكييف الهواء. البلاط بارد، والظلال سميكة كالفرو يغطّ فيها الأطفال الأيتام. أمّا النهار فيقف عند النوافذ وراء الستائر، يحرس العالم بالضوء الساطع والحرارة والغبار.

مكتبة الفكر الجديد

ياله من نهارٍ حارّ وحيد لا يحبّه أحد.

دغل نهر العشّار المجاور للميتم على اشتداد خضرته، يفترش الضفاف مغموراً بالضوء، تلوذ به الضفادع والحيّات الرفيعة القصيرة والسلاحف والسلطعونات، وتسرح فوق أفنانه منسابةً فراشات ويعاسيب ونحل وذبّان.

المدّ المرتفع يكاد يطغى على السويقات وطين الجروف: ماء أخضر اكتسب لونه من الطحالب المائيّة التي تطفو على سطحه دائماً.

الدروب تخفق بالعمّال والباعة والجنود أوّل الصباح ثمّ تهدأ إلاّ من بعض المارّة والعجلات.

وحدها الفسحة الكائنة أمام مدرسة النبراس الابتدائيّة تتمرّد على السكون الموقّر في الفرص بين الدروس، تنبض بجلبة الأولاد الطلاّب، منهم من يتحلّق حول عربة بائع الفلافل ومنهم من يعبث ويلهو ولكنّه لا يبتعد كثيراً، إلاّ إذا أراد أن يغادر إلى البيت نهائيّاً.

يشمل الهدوء الفضاء بعد عودة الأولاد إلى صفوفهم، ويهيمن فراغ توشّحه سماء زرقاء مشعّة بضوءٍ وهّاج، وأفياء تقطعها خطفاً طيور السنونو.

وإذا اتّفق وشقّت الفضاء زرازير وفواخت أمام البيوت المشرفة على جسر الغربان، فإنها ستلمح حتماً الأستاذ بدر وهو ينظر ساهماً إلى العالم عبر النافذة المفتوحة يدخّن مستغرقاً في تأمّلاته، أو ينكبّ على مائدته منهمكاً في كتابة قصصه.

آحاد من السيّارات وعربات الخيل تمرّ متثاقلة حذرة بسبب ضيق

مكتبة الفكر الجديد

الطريق وتهشّم إسفلته،

تهزّ السكون حيناً ثمّ يعود في أعقاب تلاشي الهدير والقعقعة وسنابك الخيول.

واللافت للنظر في هذه البيئة المتواضعة التي تنساب فيها أنفاس الحياة البسيطة، وفي هذه اللحظة بالذات، ظهور سيّارة فورد ضخمة تدبّ بضجّة محرّكها في الدرب الممتد بين جسر الغربان وجسر نظران قبل أن تتوقّف أمام الميتم.

في الحديقة كانت زهور تنتقل بين الظلّ والضوء، تداري الأطفال، تراقبهم وتساعدهم، فيمسّ كلّ مرّة شعاعٌ من الشمس وجهها مسّاً رقيقاً يغمره بالنور. وكان مهيدي كعادته يجلس في الطرف تحت إحدى شجرات اليوكالبتوس مكسوّاً بالظلال. يفيض وجهه سروراً، يضحك وحده أو يضاحك بعض الأولاد ويلاعبهم، يعاكسونه فلا ينفر منهم بل يسايرهم.

لزهور ولع بإظهار مفاتنها. القميص الحشيشيّ اللون ينفكّ مواربأً عن مضيق ثديين مكتنزين، والتنّورة الزرقاء الفاتحة المتقاصرة فوق الركبتين تبرز بشدٍّ رقيقٍ تكويرة الردفين.

سمات وجهها المشرقة والتماع عينيها تضفي عليها حيويّة خاصّة وفتنة وجاذبيّة، فتبدو مثل زهرة تتفتّح في أفياء الشجر، يحدوها شغف دائم على المسرّة.

للسيّارة السوداء الفخمة حضورٌ قويّ متعالٍ حيال مشهد الأشياء الخافتة المحيط بها: وشوشة صفصاف الميتم، أهداب دغل الضفاف، ليونة طيران الفراشات، رخاوة جريان الماء في النهر،

مكتبة الفكر الجديد

اختلاجات حيوات الماء، تمطّيها ولعبها، مضاجعاتها وافتراساتها، غطسها وعومها.

ترجّل من السيّارة سائقها. هرع مسرعاً وفتح باب الميتم. في الوقت ذاته نزل منها رجلٌ أسمر ممتلئ معتدل الطول، وسيم، يخط فوديه بعض الشيب. يرتدي قميصاً أبيض ينفرج عن صدرٍ مكسوٍّ بشعرٍ أسود تتخلّله شعرات بيض. بيده اليمنى سبحة عنّابيّة الحبّات. في هيئته سيماء الحياة الرخيّة وراحة البال، وفي نظراته الفاترة مسحة من ظلام الروح. إنّه الأستاذ منصور خليفة، مدير دائرة الشؤون الاجتماعيّة في البصرة.

أقبلت زهور لاستقباله متهلّلة الوجه ومرتبكة قليلاً، فالزيارات الرسميّة غير متوقّعة وشبه نادرة.

هرعت الخادمة والطبّاخة وهما تعدّلان من مظهريهما. توقّف الأطفال عن اللعب لمشاهدة الزائرين الغريبين في فضول، ثمّ عادوا إلى لهوهم ومرحهم.

احتلّ الأستاذ مكانه وراء الطاولة التي هيّأتها الخادمة في أفياء الفسحة المبلّطة المتصلة بالحديقة، وعمّرتها بأقداح العصير وأطباق الفواكه والمقبّلات والمعجّنات. على مسافةٍ يسيرة قعد السائق وحده.

الأستاذ مغتبط. ندهت قلبه لمسة إثارة وهو يجيل عينيه في جسد زهور الجالسة إلى يمينه، يعرّيها بنظراته الشهوانيّة ويتملاّها في إلحاح، يلامسها حين يخاطبها، والرغبة تراوده، يشتهيها فيفرط في مديحها مبالغاً.

مكتبة الفكر الجديد

ولمّا كان كذلك في بحران اشتهاءاته يشقّق الحديث ويمدّه في حضرة الجمال الأنثويّ منتشياً، متوهّج المشاعر، وزهور تسايره وتجامله برغم الانكماش الذي تولاّها نتيجة اندلاقه عليها، فإذا هو ينتبه لمهيدي المتربّع تحت الأشجار، ضاحك الأسارير ينظر إليهم. أثار وجوده استغرابه فراح يحدجه بعينيه شزراً.

لفتت ردّة فعله نظر زهور، فتملّكها حرج زاد على توتّرها بسبب الزيارة الرسميّة المفاجئة واللمسات المريبة، والنظرات الماجنة التي تواقعها، فقالت تداري وتبرّر:

- إنّه شخص لطيف ومسالم، يحبّ أن يلعب مع الأطفال.

إلاّ أنّ الأستاذ لم يشأ أن يخفي كراهيّته وتقزّزه من المشرّدين والمجانين، بل وحتّى خشيته الفطريّة منهم، على الرغم من نبرة العطف والتبرير التي سمعها للتوّ من زهور:

- ولكنّه قذر، وليس في مقدور أحد التكهّن بسلوكه، وقد يشكّل خطراً على الأولاد.

- لا، كلّ شيء تحت مراقبتي وسيطرتي.

مع ذلك وتوكيداً لسلطته ومكانته أمام العاملين، أمر سائقه بطرد مهيدي من الحديقة، باعتبار الميتم مؤسّسة رسميّة ينبغي احترام القواعد التي ترسي عليها، وفي مقدّمها أنّها دائرة مخصّصة للأيتام والموظّفين المسؤولين عنهم فقط. ولم يفت الأستاذ أن يجامل زهور فاستدرك قائلاً:

- إنّ في وسع ذلك المخلوق الجلوس خارج سياج الميتم ومخاطبة الأطفال ولا ضير في ذلك.

مكتبة الفكر الجديد

عمد السائق بحكم وضاعته الخدميّة وشراسته واحتقاره لمن هم دونه طبقيّاً إلى المبالغة في تأدية واجبه، حرصاً منه على تنفيذ الأمر بدقّة وسرعة من ناحية، ومتملّقاً سيده من ناحية ثانية، فهجم على مهيدي محاولاً إنهاضه في فظاظة وقوّة جاذباً إيّاه من جلبابه. لم يذعن له مهيدي وقاومه، فجعل السائق يجرّه جرّاً بسبب ثقله وشدّنه، فشرع مهيدي يزعق خائفاً وباكياً. اعترى الأستاذ الخوف، وجفل الأطفال مرعوبين، فأخذتهم الخادمة إلى داخل المبنى. اكفهرّ وجه زهور معترضة على أسلوب السائق العنيف في التعامل مع إنسان معوّق لما في ذلك من همجيّة ومخاطر محتملة قد تؤدّي إلى نتائج خطيرة، وكانت ردّة الفعل كما توقّعتها حين عفّر السائق وجه ضحيّته بالتراب، أن هبّ مهيدي دافعاً جلاّده ومطوّحاً به بعيداً منه فسقط أرضاً، لكنّ السائق ما انفكّ أن قام وقد حوّله الغضب إلى وحشٍ هائج وسدّد لطمة إلى وجه مهيدي وهو يسبّه بكلمات مفضوحة، فاشتبكا بعنف على الرغم من تدخّل زهور والطبّاخة اللتين نجحتا أخيراً في إبعاد مهيدي الممزّق الجلباب الملطّخ بالتراب، والذي من شدّة هلعه وحزنه وعدم فهمه لما يحصل له انفلت وتسلّق السياج، ثمّ نطّ إلى الشارع وانطلق هارباً إلى مأوى العجزة مبهوتاً مستغرباً من تفجّر كلّ تلك الكراهيّة ضده.

فؤاده يرتعد. يبصر ولا يرى ما حوله من بيوت ونواحٍ وجهات. وجهه ملطّخ بالدم المختلط بالدموع والبصاق والمخاط، وبقعة من البول بانت على أطماره.

عقب انتهاء الأزمة أبعد الأستاذ سائقه خارجاً آمراً إيّاه انتظاره في

مكتبة الفكر الجديد

السيّارة إرضاءً لزهور، ثمّ أدار لها وجهاً باشّاً مؤكّداً أنّ الموضوع قد مرّ بسلام والحمد لله، وعاد ينظر إلى نحرها ونهديها يكاد يأكلها بعينيه، وفي أنامله تتواصل الرغبة المتأجّجة في التحسّس والملامسة والاتصال، وفي قلبه بيّت قصداً وأضمر نيّة.

***

في الدرب الضيّق المؤدّي إلى مأوى العجزة تقدّمت سيّارة شرطة خضراء في تؤدة، تطقّ تحت عجلاتها الحجارة الصغيرة متكسّرة، وتوقّفت أمام باب المأوى.

ترجّل منها رجال الشرطة ببزّاتهم الخضر وطاقيّاتهم السود المميّزة بالنسر النحاسيّ المفتوح الجناحين؛ في وجوههم السمر النحيفة بشواربها الكثّة عزمٌ وشرّ، وعلى أكتافهم بنادق السيمينوف الروسيّة نصف الأوتوماتيكيّة.

كان الوقت عصراً، وزقزقة العصافير تتردّد في بساتين النخيل. الصمت يرين على الدروب والبيوت، والظلال تزحف باتجاه الشمس المرتخية. حدّة الحرّ تنكسر والرطوبة في الهواء تتبدّد. نسمة فاترة تتسلّل، وشعور بالانفراج والطراوة يخالج البشر.

أوان القيلولة مضى بخطى سريعة، ونفرٌ من الشيوخ الهرمين بملابسهم النظيفة المغسولة غير المكويّة غادروا المأوى إلى ضفة النهر، يدبّون ومن أعطافهم تنبعث روائح مساحيق الغسيل. يقصدون بستان النخل كلّ يومٍ في ساعةٍ كهذه للتمشّي والتريّض وقضاء الوقت،

مكتبة الفكر الجديد

عسى أن تستكين أرواحهم إلى حين، فتطمئنّ من هواجس الموت القادم في برودٍ واستخفاف، وعلى وجهه ابتسامة انتصار حتميّ.

اقتحم رجال الشرطة الباب الموارب واندفعوا إلى الفناء، ونداءاتهم المدوّية قد بلغت ولاشكّ سمع من تخلّف داخل المبنى، ففزع جودي إليهم وجسده يمور بالانفعال مما هو آتٍ في أعقاب حادثة الميتم، متوقّعاً أمراً غير سارّ، وقَلِقاً من مكروهٍ سيحلّ بمهيدي، لذا أبعده ذلك النهار إلى غابة النخيل حتّى موهنٍ من الليل ريثما تنجلي الأوضاع.

خاطب الشرطة مرحّباً كأنّه يدفع الأذى عن نفسه:

– أهلاً وسهلاً، أنا المسؤول عن المأوى، تفضّلوا! خيراً؟

– أين مهيدي المخبّل؟

اعترضه رجل بسحنةٍ تشبه سحن باقي الشرطة، لكنّه حاسر الرأس وبقميص خاكيّ نصف كم، وعلى طرفي ياقته شارتا مفوّض الشرطة الخضراوان؛ لا يحمل من الأسلحة الناريّة سوى مسدّس على خاصرته في قرابه الجلد، وفي يده اليمنى عصا التبختر.

– لا أدري، خرج ولم يعد.

– أين ذهب، ياسخل يا بن السخل؟

سأل جودياً ونخسه بالعصا فارتدّ إلى الوراء متألّماً وهو يقول ويده على بطنه:

– لم يقل.

– ألا يقيم هنا يا أسود الزفت؟

– أحياناً.

مكتبة الفكر الجديد

انقبض وجه المفوّض الحليق كأنّ عقرباً لسعته. تقدّم منه وضربه بالعصا على أضلاعه:

- أحياناً، ها، يا بن القحبة؟ ماذا يفعل عندك ياعبد النحس؟

انكفأ جودي على نفسه متلوّياً من الوجع وناكراً في صوتٍ متهدّج متكسّر:

- لا شيء.

- قل أين أخفيته ياقرد؟! أيركبك أم تركبه، أم تركبان بعضكما بعضاً؟ تكلّم وإلاّ والله لأسلخنّ جلدك وأسوقنّك سوق العبيد.

وانهال عليه ضرباً بالعصا، وجودي يحاول عبثاً حماية نفسه سائلاً إيّاه أن يكفّ من دون أن يتولاّه الخوف.

استوقف المفوّض مشهد الشيوخ المرضى الباقين الذين وقفوا بباب عنبر النوم لمعرفة ما يجري، يتملّكهم الصمت والذعر، حتّى إنّهم عادوا إلى الداخل لائذين بالجدران كأنّ الموضوع لا يعنيهم حينما شعروا بأنهم صاروا مثار انتباه المفوّض.

- أين مهيدي المخبّل؟

لحقهم المفوّض إلى الداخل متسائلاً مسدّداً بصره إليهم، وعصاه تشيع الرهبة والرعب فيهم.

لم يفه أحد بكلمة. قلوبهم راجفة وأنفاسهم مبهورة.

تشدّد في استجوابهم فأنكروا معرفتهم بمكانه، فأوغل في إرهابهم وحصارهم مهتاجاً صاخباً يهدّدهم بالتعذيب والحبس في بئرٍ مظلمة لا يرون فيها وجه الله، وبالقتل وإلقاء جثثهم العفنة إلى الكلاب، هذا إذا استساغتها الكلاب.

مكتبة الفكر الجديد

صاروا يتلجلجون بكلمات راجفة مردّدين عبارات الاعتذار.

أمر المفوّض رجاله برمي الشيوخ في الفناء، فانقضّوا عليهم وأخرجوهم إلى العراء، يجرونهم ويسحلونهم ويدفعونهم تحت وطأة الشتائم والركلات، مستخفّين بهم وساخرين منهم.

لم يكن المفوّض ينظر إلى أولئك الناس إلاّ كونهم سحابةً من الذباب، لذا لم يشأ أن يضيّع وقتاً أكثر من ذلك معهم، فأمر باعتقالهم جميعاً وسوقهم إلى مخفر الشرطة. أخذ أحد الشيوخ يبكي خوفاً من الحبس وانقطاع الدواء والغذاء، فأخذه المفوّض جانباً وطلب إليه أن يدلّه على مكان مهيدي المخبّل مقابل إطلاق سراحه وسراح من يريد من رفقائه.

فأدلى العجوز المريض بمعلومةٍ غير مؤكّدة وهي أنّ المخبّل يتردّد إلى البستان في بعض الأحيان ليستجمّ ويلهو.

انطلقت مفرزة الشرطة إلى هناك بعدما أمر قائدها سكّان المأوى بعدم مغادرته، وإلاّ سيندمون على اليوم الذي ولدتهم فيه أمّهاتهم، وذهبوا إلى البستان راجلين تاركين السيّارة وراءهم، إذ لا منفذ لعبور السيّارات إلى الضفة الأخرى[1].

عرف جودي بوجهة الشرطة من الشيخ المذعور، فبرح المأوى مسرعاً راكضاً في الاتجاه نفسه، فأدركهم ولمّا يلجوا البستان من البوّابة العتيقة في الدرب الترابيّ.

تأنّى لصق السور على مسافةٍ معقولةٍ كيلا يلفت انتباههم، ثمّ

١ في تلك النقطة على نهر الخندق معبران: الأوّل قنطرة للمشاة متصدّعة آيلة إلى السقوط، والثاني خطّ السكّة الحديد الذي بناه الإنكليز عام ١٩١٧ أثناء احتلال العراق؛ ويتألّف من قضبان السكّة وخشبها بما يسمح لمرور القطار عليها فقط.

مكتبة الفكر الجديد

تسلّقه حينما غابوا في الداخل، وتسلّل إلى البستان يستطلع المماشي بين أشجار النخيل وضفاف النهر والقنوات والأحواض المزروعة بالبرسيم والفجل والرشاد والكرّاث، مرسلاً بصره إلى جميع الجهات، ومصغياً إلى ما حوله بانتباه عميق، وفي نيّته الوصول إلى مهيدي قبل الشرطة لتحذيره ومساعدته على الفرار.

ولكنّه وجدهم قد دهموا كوخ الفلاّح واقتادوه معهم دليلاً لهم، فقادهم إلى حيث يقع بصره على مهيدي أحياناً يلعب ويضحك ويحدّث نفسه في خلوته.

كلّما أوغل المرء في البستان كثف النخل، قلّت المسالك، واشتدّ الفيء.

النهر يضيق تدريجيّاً، وتتقارب ضفتاه المكسوّتان بالقصب والطرفاء والدفلى والعلّيق والأشنات والطحالب.

بعد تبيّن الوضع عن كثب أرسل المفوّض أحد رجاله إلى الجهة المقابلة من النهر لقطع الطريق على مهيدي إذا حاول الإفلات عبره. أبصرهم مهيدي مقبلين صوبه مسلّحين فتوجّس منهم، واستحوذ عليه الخوف فانطلق يعدو هارباً. صاح الفلاّح مشيراً بيده:

- ذاك هو مهيدي.

تعالت صيحات الشرطة: قف مكانك! سلّم نفسك!

غير أنّه لم يردّ عليهم ولم يتوقّف بل واصل جريه مبتعداً، نظرته مرعوبة وقلبه واجف. يخوض في أحواض الزرع متخبّطاً في الطين، ينطّ فوق الترع، ويتسلّل بين المماشي المطوّقة بالنخيل هائماً على وجهه.

مكتبة الفكر الجديد

أطلق المفوّض النار باتجاهه. فرّت العصافير والغربان فزعة وفرّت نحو أجواز السماء. غطست الضفادع في الماء، وهربت الحيّات والسلاحف والفئران ولبدت في أوكارها الطينيّة، وخيّم عقب الفرقعة الناريّة هدوء قلق حذر، لا تسمع خلاله إلاّ وشوشات سعف النخيل.

هتف جودي لاهثاً وهو يعدو بمحاذاة الضفة الطينيّة:

– لا تطلقوا النار!

وصل الشرطيّ إلى الضفة الثانية قاطعاً بذلك أمل مهيدي بالعبور سباحة إليها.

ضجّ النخيل برصاص الشرطة، وشمل البستان صخب لم يشهد مثله منذ أن خلق الربّ النخل في هذه البقاع.

أصيب مهيدي ووقع، وتلطّخ جلبابه بالدم، وكانت رصاصة قد شقّت طريقها إلى إليته، لكنّه قام وواصل العدو على رغم الألم وفي عينيه فزع من الموت.

ظهر جودي يركض ويصرخ، حتّى صار بين مهيدي والشرطة:

– لا تطلقوا النار! لا تطلقوا النار! أنا كفيله.

انتبه مهيدي له وتوقّف ينظر إليه. ظنّ الشرطة أن جودياً يهاجمهم فأردوه.

سقط جودي مضرّجاً بدمه. ثاب مهيدي إلى نفسه واندفع اليه يريد مساعدته.

كان يبكي وينزف ويردّد عبارات تشفّ عن حزنه العميق، عن غربته وصعوبة إدراكه انقلاب الدنيا ضدّه وضدّ جودي:

مكتبة الفكر الجديد

- جودي.. جودي.. أريدك جودي، لا تذهب! لا تمت! لا تمت جودي!

وعندما دنا رجال الشرطة منه ليلْقوا القبض عليه، بهر عيونهم ضوء غشي أبصارهم، فألفوا أنفسهم في غفلةٍ وذهول، حتّى إذا انقشع الضوء شاهدوا كما لو أنّهم في منام، جسدَ مهيدي المغطّى بأسمالٍ ملطّخة بالدم والوحل والدموع يرتفع ببطء حاملاً صديقه الصريع معه، طائراً في الهواء، يعلو إلى قمم النخيل بهدوء وينساب في السماء بليونة.

حدّقوا الى الجريح الطائر وبين يديه القتيل جودي في أشعّة شمس العصر الضعيفة بعيون ملؤها الدهشة، والفلاّح يصيح مروّعاً:

- انظروا! إنّه يطير.

حلّق مهيدي بحمله بعيداً في مدارج السماء، تلمع أطرافه في ذؤابات الشمس الباهتة، ورحل في الفضاء إلى أقصاه حتّى غاب في الزرقة التي أخذت تعتم شيئاً فشيئاً منذرة بحلول المساء.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر

في اليوم العاشر

الغارة

في العاشر من شهر المحرّم تحلّ ذكرى الموت الذي لا يُرَد، حكم الله والقدر الحتميّ، فيفيض حزن المدينة من قلبها المكويّ بالألم، ويكثر الناس من البكاء والعويل مظهرين التوجّع والتأوّه، كما لو أنّ نائبة أصابتهم ففجعتهم بأبنائهم وذويهم.

ففي مثل هذا اليوم من عام ٦١ للهجرة قُتِل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، وقُطِعَ رأسه ولقي الكثير من أهله وأصحابه مصرعهم على يد الأمويين في ناحية كربلاء، إلاّ زينب أخت الحسين نجت وظلّت صابرة، رابطة الجأش ترعى مَنْ معها مِنْ عيال، قبل أن يسوقهم الجيش الأمويّ المنتصر جميعاً إلى الشام حاملاً معه رؤوس الضحايا.

طوال الأيام العشرة من شهر المحرّم المسمّاة عاشوراء يلبس الناس السواد، وتُقام مجالس العزاء على أرواح قتلى كربلاء، ويُعاد ترديد

مكتبة الفكر الجديد

قصّة مقتل الإمام الحسين، فيلطم بعضٌ صدره، ويصفع بعضٌ رأسه، ويطوف آخرون في الدروب يجلدون أنفسهم، ويضربون رؤوسهم بصفائح السيوف، على إيقاعات الطبول والصنوج وهتافات "حيدر، حيدر، حيدر"[1]، يتقدّمهم حملة الأكف النحاسيّة والرايات الخضر والسود وقد طُرّزت عليها هذه العبارات: (وا حسيناه وا شهيداه وا إماماه)، (اللهمّ تقبّل منّا هذا القربان)، (ألا من ناصرٍ ينصرنا؟)، (أحبّ الله من أحبّ حسينا)، (السلام عليك يا أبا عبدالله[2])، (وعليك يا سيّدي[3] فليبك الباكون).

في الصيف تُنار الفسحة القائمة في العراء إلى جانب الحسينيّة بمصابيح تُعلّق على الأسلاك مثلما الغسيل على الحبال، وتُفرَش الأرض بالحصران المسفوفة من القصب.

يتصدّر المجلس منبرٌ خشبيّ أسود، وعلى الجدران يافطات قماشيّة سود كُتِبَ عليها بالأبيض أشهر العبارات الخاصّة بتلك المناسبة:

(هيهات منّا الذلة)

(كلّ أرضٍ كربلاء وكلّ يومٍ عاشوراء)

(الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)

(الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة)

(لا يوم كيومك يا أبا عبدالله)

---

١ حيدر: الأسد. صفة من صفات الإمام علي بن أبي طالب عند الشيعة.

٢ يكنّى الإمام الحسين بأبي عبدالله.

٣ يُراد بـ"سيّدي" الإمام الحسين.

مكتبة الفكر الجديد

(ياليتنا كنّا معك سيدي فنفوز فوزاً عظيما)

(حسين منّي وأنا من حسين)[١]

(من لحق بنا استشهد ومن تخلّف لم يبلغ الفتح)[٢]

للرجال مجلسٌ خاصٌّ بهم دائماً من دون النساء، وفق شريعة النبذ الاجتماعيّ الدينيّ التي يتعرّضن لها، ولا تمنع الحال أن ينتبذن ليلاً بعباءاتهنّ السود زاويةً ما على مقربةٍ من مجلس العزاء للإصغاء، بينما هنّ في الحقيقة ينتهزن المناسبة لتنسّم الهواء الطلق بحريّة بعيداً من محابسهنّ البيتيّة، فيختلسن النظر إلى الرجال ويتبادلن الهمس، ولا تكاد تميزهنّ من الظلمة الغاطسات فيها لولا حركة أولادهنّ.

فيما الملاّ المقرئ يلوك أخبار معركة كربلاء، كما هي في كلّ الأيّام العشرة الأولى من شهر المحرّم من كلّ عام. فيشقّقها بالعظات التي تناسب مزاجه ونيّاته، وبالخواطر والأفكار التي تطرأ على باله وتوافق مصالحه وأغراضه، نافثاً ما يجيش به صدره من حبٍّ وكراهية، رامياً بأقواله يميناً وشمالاً، منذراً مهدّداً لاعناً تارةً، ومشيداً مادحاً مطرياً تارةً أخرى، ثمّ يعود إلى قصّة المقتلة مغنّياً أخبارها بنبرةٍ باكية، فينشج الناس هازّين رؤوسهم حزناً وكمداً، مغطّين وجوههم بأكفّهم، أو لاطمين صدورهم تفجّعاً على الإمام الحسين.

في هاتيك الليالي بالذات يُسمح للأطفال بمغادرة البيت ليلاً مع أمهاتهم أو من دونهنّ، فتراهم يتسكّعون في الدروب والحارات، ومن كان منهم سعيد الحظّ بامتلاك بعض المال فإنه يذهب لابتياع

---

١ حديث نبويّ شريف.

٢ قول للإمام الحسين استناداً إلى المصادر الشيعيّة.

مكتبة الفكر الجديد

طاسة من الحمّص المسلوق، أو بضع كرات من السمسم المعمول بدبس التمر، أو رغيف من الخبز الأبيض الخفيف المحلّى بالحليب والسكّر، من البائعات الفقيرات المغنّيات في سواد ملابسهنّ، اللواتي يتخذن في مناسبات كهذه من باب الحسينيّة وجدرانها الخارجيّة مطرحاً لعرض منتوجاتهنّ على الأرض.

ارتقى للتوّ الملاّ جعفر المنبر، واستوى عليه بعباءته السوداء المنسدلة على رداء أبيض، وبرقت على حذائه الأسود لمعة من ضوء المصابيح. توقّف لغط الجمهور، وأُغلِق الجهاز الذي يبثّ تسجيلاً للقارىء الشعبيّ عبد الزهرة الكعبيّ وهو يسرد فيه واقعة كربلاء كما جاءت في رواية أبي مخنف الأزديّ.

ران سكون فسُمعَ نقيق الضفادع وصرار الجنادب المتناهيان من جروف النهر واضحاً، يتخلّلهما نباح كلابٍ شاردة.

صعّد الناس أبصارهم إلى الرجل الذي راح يسوّي عباءته ويعدّلها بما يناسب مجلسه، وشنّفوا آذانهم إلى ما سيتفوّه به.

كان الملاّ يتعمّم بعمامة سوداء، وهي عادة درج عليها الملالي الذين يزعمون انتسابهم إلى سلالة النبيّ، أمّا سواهم من قليلي الحيلة فعمائمهم بيض، والصنفان لدى العامّة يحملان لقب (سيّد) بصرف النظر عن لون العمامة.

لوى الملاّ حامل الميكرفون المرن نحو فمه، ونقر على لاقط الصوت بسبّابته نقرتين خفيفتين فدوّى صداهما بغتةً نافراً في فضاء الصمت المخيّم على الرؤوس.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة

والسلام على رسوله النبيّ الأمين.

قال الملاّ وتابع:

السلام عليك يا شهيد كربلاء، والسلام على آل البيت الطيّبين الطاهرين.

سلام الله على الحسين وعلى أصحاب الحسين، ولعن الله من قاتلهم وساعد على قتالهم.

يا إخوان[1]، إذا هلّ هلال المحرّم أول الشهر نشرت الملائكة ثوب الإمام الحسين عليه السلام، وهو مخرّق من ضرب السيوف وملطّخ بالدماء، فنراه نحن الشيعة بالبصيرة لا بالبصر.

وقالوا: حينما قُتِل الإمام واحتزّوا رأسه وقعدوا ليشربوا النبيذ، خرجت عليهم يدٌ من الحائط تحمل قلماً من حديد، فكتبت سطراً بدم: أترجوا أمّة قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب؟ فأمطرت السماء دماً، وأصبح الناس وكلّ شيء لهم مليء دماً، يبقى أثره في الثياب حتّى تتقطّع، وأنّ هذه الحمرة التي تُرى في السماء ظهرت يوم مقتله ولم ترَ قبله.

وبانت الكواكب نهاراً حتّى رؤيت الجوزاء، وكانت السماء عليلة.

ومكث الناس سبعة أيّام إذا صلّوا العصر نظروا الى الشمس على أطراف الحيطان فإذا هي من شدّة حمرتها كأنّها ملطّخة بالدم، ونظروا فإذا الكواكب تضرب بعضها بعضاً.

وقالوا: إنّ النور سطع من الإجّانة التي فيها رأس الإمام الحسين

---

١ مرويّات من التراث الشعبيّ الشيعيّ.

مكتبة الفكر الجديد

وانطلق إلى السماء شعاعاً إثر شعاع. ورفرفت طيور بيض فوق الرأس فوقعت في الدم وتمرّغت ثم طارت فوقعت بالمدينة.

وعندما اقتسم جند يزيد ورساً كان مع الحسين صار رماداً، ولمّا نحروا ناقته في معسكره رأوا في لحمها النيران، وكلّ قدرٍ لهم طبخوها صارت دماً، وكلّ إناء لهم شربوا فيه ماءً صار دماً، ولم تطمث امرأة ببلاد الروم أربعة أشهر إلاّ أصابها ورم، فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلم نبيّاً أو ابن نبيّ.

يا إخوان، لنأخذ من قول الإمام الحسين الشهيد مناراً نهتدي به وهو القائل لأخيه محمّد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيّة: "إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي رسول الله، أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر".

ولنبدأ يا أخوان بالإصلاح في منطقتنا بمحاربة الرذيلة وفضح المهرّبين المتاجرين بالمحرّمات من خمرٍ وغيرها، ولنقطع دابر الفساد بين الناس.

اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد.

فردّ القوم بصوتٍ مهيب:

صلوات على محمّد وآل محمّد.

فعلّق غامزاً من قناة الملاّ، ومومئاً برأسه صوب بيت جوني البحّار أحد اثنين ضجرين مشاغبين، لا يصبران على القعود في المجلس صامتين، فوقفا متّكئين على سياج الجسر يستمعان ويلقيان بأنظارهما من آنٍ لآنٍ إلى جمهرة النسوة الواقفات على

مكتبة الفكر الجديد

مسافة يسيرةٍ منهما:

– يريد أنْ يحبس الرجل حتّى يخلو له الجوّ.

– لن يصل إلى مكان، زهور أمست زوجة جوني الآن.

– بعدما نفخها.

– لكنّه ستر عليها ولم يغدرها، جوني ابن حلال.

– لم ينلها الملاّ بأي حالٍ من الأحوال، وسينتقم لنفسه من جوني.

– وماذا في مقدوره ان يفعل؟

– أما سمعته؟

– كلام الليل...

– يبدو أنّك لا تدرك حقيقة الأمور؟

– أعرف إلامَ يرمي الملاّ، ولكن من يقبض كلامه؟

– عشْ ترَ!

أخذت جلبة طبل وصنج وهتافات تقترب، حتّى إذا دنت من مجلس العزاء طغت بصخبها على مكبّر الصوت، فهتف الملاّ مخاطباً الموكب المقبل:

– عظّم الله أجركم، ولعنة الله على القوم الظالمين، ياحسين، ياحسين، ياحسين.

ثمّ سكت، فإذا الموكب جماعة من الرجال والفتيان يجلدون ظهورهم المسلوخة بحزم من سلاسل حديد كالمنشّات، وفي مقدّمهم طبّال يقرع طبلاً ضخماً، وصنّاج يضرب صنجاً، ونفر يرفعون رايات خضراً وسوداً متوّجة بأكفٍّ من نحاس، وعلى إيقاع

مكتبة الفكر الجديد

الجوقة الجنائزيّ المنذر المتواصل ترتفع أصوات المكفّرين عن ذنوبهم بجلد أنفسهم "حيدر، حيدر، حيدر".

* * *

الناس في الصيف ينامون على السطوح، يتنسّمون هواء الليل العليل، الهواء الذي يتضوّع بأرج النهر وعطر حقول النخيل. النجوم لامعة، مزدحمة، ثرثارة، ومبتهجة. ودرب التبّانة سكّة من نثارٍ فضّيّ.

السماء سوداء مخمليّة واسعة كقلب أمّ لا حدّ لصفائها، وأصوات الليل تتداعى في الفضاء، تتأدّى عبر الأثير باهتة وكئيبة.

خلل نسيج الكلّة الرقيق الأبيض كانت تتسرّب فضلة من مصابيح الجيران، فتنير بضوءٍ واهنٍ جسدي جوني وزوجته الحامل زهور، المضطجعين عاريين على سريرٍ واسعٍ مفروشٍ بفراشٍ فخم، تزيّن أطراف شراشفه ومخدّاته زخارف من وردٍ وتوريقات نباتيّة ملوّنة.

في الطرف القصيّ يلوح سرير الأم فارغاً؛ لا تزال تحت، ولولا ذلك الضوء الشحيح الذي يشوب السطح، لما بان جوني في سواد العتمة المشبّحة بضوء النجوم إلاّ قوّة مبهمة، لصق جسد زهور الأبيض المتمدّد بين قتامة الظلال ولمسة النور الخافت.

كان جوني متهيّجاً منتصباً، يضع يده أسفل بطن زهور العالي يملّس أنوثتها برقّة، ويداعبها بأناة.

– أشعر أنني محرج من ذلك.

قال في صوتٍ يلهث بالرغبة، ونظره الشغوف يتملّى وجهها.

مكتبة الفكر الجديد

– علامَ؟

تساءلت وابتسامة غرام ورضا تتألّق على محيّاها:

– من يدري كم سيؤثّر ذلك على الطفل حين أدخلك؟

– في الشهور الأولى الحال عاديّة، لم أتضايق.

ضحكت وكست وجهها حمرة الخجل.

– الآن صرتِ في الأشهر الأخيرة.

– وهل نفد صبرك؟

سألته كأنّها تغويه.

أفلتت منه ضحكة قصيرة، باسها من فمها، لحس باطن أذنها، وواصل يلعق حلمتيها ولحمه يخفق بالشهوة.

ندهته لكي يرتفع إليها، فتحرّك حتّى لامس وسطه رأسها. دسّت وجهها أسفل بطنه، وغارت شفتاها في جسده تلتقمه كما يلتقم الرضيع ثدي أمّه، ولم ينتبها من غفلتهما إلاّ على صخب صدر فجأة من الحوش التحتانيّ، وأصوات غاضبة محذّرة تطرق مسامعهما، ميّزا من بينها صوت الأم صديقة، فأنصتا للحظة مبهوتين واجمين. انتفض جوني، لبس سرواله على عجلٍ، ففطن حينئذ إلى انتصابه مفضوحاً، داراه كيفما اتّفق لئلاّ يكون ملحوظاً فلم يفلح، لم يكترث. وثب من المخدع وجرى ينهب الدرجات نازلاً إلى أرض الدار ليرى ما الأمر فبات في مواجهة الشرطة.

هرعت الأمّ فزعة على ولدها منهم وتسمّرت بينه وبينهم.

أزاحها شرطيّ جانباً في فظاظة، فهتف ضابط الشرطة مستفسراً:

– أنت جوني؟

مكتبة الفكر الجديد

- نعم.

- تعال معنا.

- لم أفعل شيئاً.

- كلّهم يقولون ذلك.

- هل أذهب عارياً، سأرتدي ثيابي.

- لا، هكذا أحلى، الطقس حارّ.

قالها الضابط مبتسم الطرف مومئاً برأسه إلى سرواله.

أطبق عليه شرطيّان وقيّدا معصميه خلف ظهره. كان مكفهراً ذاهلاً، وفي دواخله تصطخب تساؤلات عاصفة، من وشى به؟ من خانه؟ من سعى الى الايقاع به؟ أيكون الملاّ قد فعلها أخيراً؟

ما عتمت زهور أن هبطت السلّم في تؤدةٍ مستندة بيدها اليمنى إلى الحائط، وباليسرى تشدّ شرشفاً اشتملت به على قميص نومها، وتعابير التساؤل والاضطراب تكسو وجهها، ففوجئت بمشهد اعتقال رجلها وهيئة الأمّ الباكية. روّعها الموقف واستفسرت في جزعٍ وانشداه:

- ماذا يجري هنا؟

جاء صوتها واهناً كنسمةٍ عابرة، لم يحفل به الرجال المربدو الوجوه.

اندفع نحوها شرطيّ، أمسكها من ساعدها وأوقفها لدى أوّل الدرج مانعاً إيّاها من التقدّم، ومن بين شاربيه الكثّين انبعثت جمجمة جافّة:

- ممنوع أختي، قفي محلّك!

بينما مضى بعض الشرطة يفتّشون البيت. اجتاحوا أرجاءه، قلبوا

مكتبة الفكر الجديد

الأثاث رأساً على عقب، نبشوه، كشفوا المستور، أخرجوا المخبّأ والمخفيّ، تحققوا من المريب، أمعنوا النظر في الموارب، ثمّ عادوا أدراجهم إلى الضابط الواقف يدخّن مطيلاً التحديق إلى زهور. قال أحدهم:

– لم نضبط شيئاً سيّدي.

– لنذهب إذاً في جولةٍ نروّح فيها عن "الأسمرانيّ" الحلوا

قال كلماته من بين دخان سيجارته في سخرية مشوبة بالازدراء، قبل أن يرمي زهور بنظرة أخيرة شهوانيّة ومتسلّطة.

بارحوا الدار مقتادين جونياً معهم تحت أنظار المرأتين الباكيتين والمتوسّلتين إليهم بداعي الرحمة والبراءة أن يطلقوا سراحه، ولكن من دون جدوى.

في ضوء المصباح المعلّق على عمودٍ خشبيّ مائل، بانت ظلالهم كالأشباح وهم يقطعون الزقاق المختنق بالبيوت الواطئة صوب سيّارة جاثمة قدّام دكان مسعود القزم.

حركة السير فاترة، الدكاكين مرتّجة، المطاعم والمقاهي مقفلة، والشوارع فارغة من المارّة، تنيرها مصابيح الأعمدة الكهربائيّة.

اختطّت سيّارة الشرطة مسارها باتجاه مركز المدينة في منطقة العشّار محاطة بالهيبة والغموض، واثقة كأنّ يداً عارفة تقودها إلى مستقرّها.

تجاوزت منطقة مقام علي ودخلت كورنيش شطّ العرب[1]. كان

---

[1] في هذا الكورنيش دارت كوابيس قصّة "الصرخة" لكاتب المدينة المعروف محمّد خضيّر.

مكتبة الفكر الجديد

الشارع خالياً، تقلق سكونه من وقت لآخر سيّارة مارّة. الأرصفة والمصطبات تخلو من المتنزّهين ليلاً، والمباني المصطفّة على الكورنيش تغرق في الصمت والعتمة خلف واجهاتها المنارة بمصابيح وحيدة.

أشجار اليوكالبتوس المنتصبة على الضفاف، الحيوانات المتخفّية على جانبي الطريق، الأمواه الملأى بالأسرار، النجوم الساهرة على فراش الليل، كلّ ذلك فرض حالاً من التوقّع، أترعت الأرجاء بإشارات الاقتراب من لحظة رفع الأستار عن مفاجأة تنبئ بنهاية الرحلة.

تناهت الشاحنة إلى أقصى طرفٍ من الكورنيش لا يزال قيد الإنشاء، فبانت ضفته قاحلة لا أشجار فيها، والمصابيح الصفر العالية تنوّر المسناة والرصيف والجرف. أمواه الشطّ قاتمة غائرة ومعزولة تطبق عليها عتمة الليل. وغابات النخيل في الضفة المقابلة البعيدة غارقة في الظلمات.

لا تلقي السفن الكبرى مراسيها في هذا الموقع من الشطّ، بل تتابع سبيلها حتّى أعالي النهر، حيث الأرصفة في ميناء المعقل. توقّفت عربة الشرطة فجأة. همد محرّكها فانقطعت الجلبة، وأطبق الصمت موحشاً، تختلج الأمواه على ضفافه بتثاقل حزين.

توقّف السيّارة المباغت أشاع حالاً من التوتّر، نمّت على قوّةٍ قادرةٍ على توليد المفاجأة.

نزل منها رجال الشرطة وجوني المقيّد شبه العاري معهم. كان متماسكاً، أو في الأقلّ لم تلح عليه علامات الجزع.

ترجّل الضابط، وهو في الأربعين من عمره وعلى شيءٍ من القصر،

مكتبة الفكر الجديد

مفتول الشاربين، عيناه قاسيتان باردتان، وعلى صدغه الأيمن نقطة وشم تدلّ على جذوره الريفيّة[1].

هبطوا جميعاً الجرف الترابيّ إلى الشطّ.

وهناك لو دقّق المرء النظر لميّز على مسافةٍ دانيةٍ شبح مركبٍ غارقٍ مغمورٍ حتّى منتصفه بالمياه.

جاء السائق بكرسي سفر مطويّ، فتحه وركّزه في الأرض.

استوى الضابط عليه وتناول من علبة دخان كريفن لفافةً، وضعها في فمه ثمّ أدنى منها قدّاحة رونسن. قدحها فانبجس منها لسانٌ من نار، مسّ طرف السيجارة وأنار صفحة وجهه، وما هي إلاّ أن تلاشى الوهج وحلّت محلّه جمرة وتصاعد دخان.

أخذ يدخّن ماجّاً أنفاسه بأناة والشرطة بين يديه رهن إشارته. أضواء المصابيح على رصيف الشارع العالي تبلغ بالكاد البقعة التي اقتعدها على الجرف. المكان خافت الإنارة.

أومأ إليهم بسيكارته. نزعوا أحذيتهم ورفعوا أطراف بناطيلهم. قادوا سجينهم إلى خطّ المويجات وهمّوا بإلقائه أرضاً. عاندهم، فتكالبوا عليه، ومازالوا به حتّى طرحوه وجرّوه إلى أن غدوا داخل النهر.

أنشأ أحدهم يشدّه من شعره مثبّتاً رأسه تحت الماء، وجوني ينتفض ويرفس من شدّة الاختناق؛ حتّى إذا شرعت قواه بالخمود كفّوا عنه وأعادوه إلى اليابسة يقيء ما في أحشائه، يتنفّس بصعوبة

---

١ يقال إنّ الناس في ريف العراق يشمون صدغ الطفل لوقايته من الأمراض وشرور الحياة.

مكتبة الفكر الجديد

ويسعل. رموه تجاه الضابط الذي قام بعد هنيهةٍ وقرفص حذّه. أدنى فمه من رأسه واستقصى بصوتٍ هادئ:

- جوني، من معك في تهريب الويسكي؟

ندّت عن جوني جمجمة واهنة من بين سعاله والتقاط أنفاسه، فهم منها الضابط أنّه قال:

- بريء والله!

- بحقّ الجحيم من هم شركاؤك؟ لا تتعبنا وكن متعاوناً معنا!

تقيّأ جوني ووجهه ملطّخ بالوحل والدموع. فاه من خلال نفسه المتهدّج مكرّرًا:

- بريء والله.

انتصب الضابط، قذف بعقب سيكارته إلى الماء، فرسم قوساً نارياً مالبث أن انطفأ في جوف الماء المعتم.

قال لرجاله:

- لا يزال عطشان.

فانقلبوا راجعين به إلى الماء يخنقونه إلى أن تلاشت مقاومته وهمد جسده، فلاح كأنّه يشرف على الهلاك.

ألقى الشرطة الأسئلة نفسها عليه فلم يفوزوا بطائل. عادوا إلى ضابطهم كرّة أخرى فقال وقد مدّ نظره إلى الشطّ في شرودٍ وتفكير:

- لنا معه لقاء آخر.

فكّوا وثاقه وقالوا له: امضِ لقد نجوت!

لكنّه لم يتحرّك وظلّ منطرحاً على قيئه. فرفعوه وأجلسوه على الأرض. لم يكن يثبت في مكانه. كان ينطوي على نفسه ويسقط

مكتبة الفكر الجديد

مائلاً على جنبه. لم يكن واعياً من جرّاء خمار الاختناق. حتّى إذا استردّ أنفاسه تطلّع حواليه مشدوهاً، وحاول القيام فلم تسعفه قواه. ساعده رجل من الشرطة على الوقوف على قدميه، ومضى به إلى أعلى المنحدر، تاركاً إيّاه يتّخذ سبيله في الشارع مترنّحاً مبتعداً منهم.

بقي الضابط حيال النهر يسرّح نظره في حلكة الظلام.

ابتسم وقال متأملاً أفكاره:

– الطقس حلو الليلة.

التفت إلى رجاله فانفرجت أساريرهم تلقائياً، مسرورين من البهجة التي حلّت في قلب قائدهم.

تجرّد من ملابسه وأحد الشرطة يتناولها قطعةً قطعة، ثمّ رمى بنفسه إلى الماء مستسلماً للنهر.

طفق يسبح حتّى بلغ المركب نصف الغارق، حينذاك توقّف الخبط وساد السكون.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر

الملاك الحارس

كانت شيرين تتذكّر السليمانيّة[1]، المدينة التي ولدت فيها قبل ما يقارب التسعين عاماً، مثل صورةٍ باهتةٍ مشوبةٍ بظلال رماديّة: بيوت من حجر الجبل واطئة عتيقة، جادّات ضيّقة غير مرصوفة لكنّها نظيفة، وسوق مكتظّةٌ بمتاجر شبه معتمة، لا تسترجع ضجّته حاليّاً، فالأطياف المتسلّلة من حافظتها إلى قلبها خرساء، حتّى لكأنّها لا تكاد تميّز من تلك الأيام التي عاشتها في ذلك الزمن البعيد غير شتات حياة نائية وفتات حوادث منسيّة، تطفو فجأة على سطح ذاكرتها، حين تسمع نغماً ما، أو تشمّ رائحة دخان، أو ترى أحدهم مصادفة ينتعل خفّاً قطنيّاً، أو يقع بصرها على ثوبٍ من الأطلس الملوّن، فينتابها حنين شديد إلى الماضي، ذلك الإحساس سرعان ما يختفي، تحاول استرجاعه فلا تستطيع، يحدث بسرعة

١ السليمانيّة: مدينة كرديّة في شمال العراق.

مثل ومضة ثمّ يغيب في ثنايا عقلها.

بدت الحياة بالنسبة إليها وهي في الرابعة عشرة من عمرها بطيئة ومضجرة ولا شيء فيها يلفت الانتباه.

كانت تسير بصحبة خادمتها (هيوا) السمراء، الحلوة التي درجت على عقد جديلتها السوداء بشريط حريريّ ملوّن، أزرق مرّة، وأحمر مرّة، وأخضر مرّة، ولكنّها هذه المرّة اختارت اللون الأسود بسبب الفاجعة التي ألمّت بالعائلة على حين غرّة.

كان الرجال يحدّقون إلى شيرين غاضبين لأنها غير منقّبة. رفضت أن تضع النقاب على الرغم من إلحاح أمّها دلسوز خاتون، ومشت برفقتها وهيوا مع جمهرة النساء المنقّبات في مسيرة وانية، في جادّة مولوي المنحدرة من الجامع الكبير إلى مقبرة سيوان في حيّ سر كاريز.

كنّ يتبعن خطّاً طويلاً من الرجال المسلّحين والعزّل المعتمرين الجمدانيّ[1] والحاسري الرؤوس، بملابس فقيرة وغنيّة، بجزمات جلد وخفاف قطن، وهم يمشون في إيقاعٍ بطيءٍ واجمين خلف تلك الجنازة المهيبة المرفوعة على الأيدي والأكتاف، والملفوفة ببردةٍ خضراء مزيّنة بآيات قرآنيّة مطرّزة بخيوط من ذهب، جنازة والدها شيركو سورجي آغا الذي قتله شقيّ أمام بوّابة قصره في حيّ ملكندي، آنذاك انتشرت شائعات تقول إنّ الباب العالي في الإستانة كان وراء عمليّة الاغتيال، لأنّ الآغا أبدى تردّداً في اضطهاد المسيحيين، الأرمن والسريان بخاصّة، وأنّه قال: النصارى في ذمّتي

---

١ الجمدانيّ: كوفيّة تُلَف على نحو عمامة.

مكتبة الفكر الجديد

فكيف ألحق الأذى بهم؟

قطّب السلطان جبينه حينما سعى الوشاة إليه بما تلغط به العامّة، فقال قولته الشهيرة:

- هذا كفر، ومن يقول ذلك فهو كافر.

فضمر الجندرمة الإنكشاريّون للآغا الشرّ. أحاطوه بالعيون ودسّوا له نوزاد بشدري لقتله: قاطع الطريق الذي وضعوه بعدئذٍ على الخازوق تودّداً لعشيرة سورجي التي يُعدّ مقاتلوها بالآلاف.

لمّا تجاوز الموكب الجنائزيّ السراي الحكوميّ تولّى شيرين الإنهاك وتملّكها العطش. كانت بطبعها تضيق ذرعاً بالأجواء الرسميّة: الحشود، التعازي، استقبالات الضيوف، أعياد الميلاد، المناسبات الدينيّة؛ تجد نفسها مقيّدة، مراقبة، وملزمة بمراعاة الأصول والشكليّات. ترى نفسها دمية، غير ذات شعور، بلا قوّة ولا إرادة.

كان النهار حارّاً وملابسها تثقل عليها، وهي على رغم محبّتها لأبيها أضحت رغبتها في العودة إلى البيت تستولى عليها. هيوا وأمّها تسيران مطرقتين إلى جانبيها، تمسحان من حين لآخر العرق والدموع بمنديليهما.

شيرين تخجل أن تصرّخ بعطشها في جنازة والدها، لكنها لم تقوَ على المقاومة أكثر، فنظرت بعينين متعبتين إلى هيوا وأسرّت إليها برغبتها في صوتٍ متوسّل:

- أريد أن أشرب.

ألقت عليها خادمتها نظرة مشفقة. مالت على الأمّ وتبادلت

مكتبة الفكر الجديد

الهمس معها، ثمّ ابتعدت بصحبة شيرين إلى حمّام سرجنار القائم على مرمى حجر في طريق صابون كران وتسلّلتا إليه بعيداً من أعين المارّة. كان مغلقاً بسبب عطلة يوم الجمعة.

في الأيّام العاديّة تُخصّص ساعات النهار للنساء، والعصر حتّى المساء للرجال. اختارته هيوا بدلاً من اللجوء إلى المقاهي لئلاّ يراهما الناس تتسكّعان في السوق طلباً للماء في جنازة الآغا الوالد المرحوم، فيزدرون سلوكهما في مثل هذه المناسبة الحزينة.

ولم يكن الحمّام غير بناء خفيض من الحجر الجبليّ، يعلوه سقف مقبّب ينبت عليه العشب الذي جفّفه الحرّ. بوّابته المقفلة مزيّنة بحواشٍ من النقش البارز. وقفتا أمامها. طرقت هيوا المقرعة غير مرّة، ففتح لهما عامل صغير السنّ حاسر الرأس يرتدي سروالاً فضفاضاً وصُدرة، وتفوح منه رائحة دواء غسيل الثياب. حيّاهما باحترام، ولم تخل قسماته من دهشةٍ بعدما عرّفته هيوا بهويّتيهما:

- نريد أن نشرب.

قالت هيوا.

- تفضّلا!

لم يشأ أن يسقيهما على الباب مراعاة للياقة والذوق واحتراماً لمقامهما، فتراجع فاسحاً لهما المجال، وتقدّمهما ماشياً بين أيديهما في باحة تنتظمها مصطبة للجلوس، وأخرى فوقها مناشف ووزرات مرتّبة. في الركن الداخليّ الأيمن موقد سماور وعدّة شاي وخراطيم النارجيلات معلّقة على الحائط، مدلاة فوق دوارقها المصفوفة على دكّةٍ حجريّة.

مكتبة الفكر الجديد

في الحائط رواشن فيها ليف وصابون وقفّازات تدليك وأمشاط وزجاجات أدوية إزالة الشعر وأحجار الخفّان الخاصّة بتنعيم كعوب النساء. وعلى الحيطان مرايا بإطارات من خشب الجوز. الأرضية من حجرٍ ناعم، والهواء رطب. السقف منخفض والحمّام خالٍ. أتاهما بإبريق ماءٍ بارد وكأسين بلّوريّتين. شربتا، أشرق وجه شيرين الشاحب ورفعت عينيها الشاكرتين إلى هيوا وقالت تريد أمراً آخر.

– أغسل وجهي.

أدركت خادمتها مقصدها بينما فهمه العامل جزئيّاً، فهمّ بإرشادهما إلى المغسل، غير أنّ هيوا استدركت بصوتٍ خفيضٍ ولكن آمر:

– بيت الراحة.

دلّهما عليه وفي سلوكه ما ينمّ على الحرج، ثمّ انسحب تأدّباً واختفى في بهو الاستحمام المزوّد بأحواض حجريّة وحنفيّات نحاس. دخلت شيرين وبقيت هيوا واقفة تحرس خلوتها.

***

كانت سلوى بعد أن أخذت على عاتقها العناية بالخاتون شيرين في المستشفى لعدم اكتراث الممرّضات لها، تصغي إليها في أوقات تلوح فيها كأنّها تهذي، ومرّات تكون صافية الذهن فتستغرق في إرسال ذاكرتها، وتحكي مستطردة في شوقٍ دائم إلى الكلام عن ماضيها. تريد ان تفضي به إلى كلّ من يسمعها تخلّصاً من ضغطه عليها، وتخففاً من وطأته على كاهلها. الكلام دواء الروح.

مكتبة الفكر الجديد

تنصت سلوى بحنوّ وإشفاق وأحياناً بصبر، لأنّها لا تفهم تماماً ما تتفوّه به سيّدتها العجوز في بحرانها. تحزن لحزنها وتضاحكها وقت المرح.

نُقِلت الخاتون إلى مستشفى البصرة وقتذاك إثر تعرّضها لأزمة قلبيّة، ووضعت في غرفة العناية الفائقة، ثمّ حوّلت إلى حجرة خاصّة بها تدفع عليها أجراً طوال إقامتها فيها؛ حيطانها المطليّة بدهان حليبيّ اللون ما زالت متّسخة ببقع قديمة مما دفع سلوى إلى غسلها وتنظيفها.

السرير الحديديّ الأبيض مفروش بشراشف خضر، تحمل برغم الغسيل آثار إفرازات بشريّة، فاستعانت سلوى بشراشف أخرى جلبتها من القصر. هذه الغرفة هي أفضل ما يمكن الحصول عليه، وأغلى ما هو موجود، أمّا المرضى الآخرون الفقراء فمحشورون في عنابر تفصل واحدهم عن الآخر ستارة من قماش.

الهواء يعبق برائحة دواء قويّة، ومن الأروقة تتداعى ضجّة الزوّار: يذهبون ويجيئون، يثرثرون، يهتفون، ويقهقهون، وعلى الجدران لافتات تقول "الهدوء والسكينة رجاءً" "البصاق ممنوع" "حافظوا على نظافة المكان" "التدخين ممنوع"، مع ذلك فإنّك لا تعدم رؤية أحدهم سواء من أفراد الطاقم الطبّي أو من الزوّار أو من المرضى أنفسهم يتّكئ على إفريز النافذة وسيكارته في يده.

من كيس السائل المعلّق في حاملٍ حدّ التخت، يتدلّى مصل مغروز في ساعد الخاتون المعروق. السائلُ ينقط وكفّها ذابل ومسترخٍ.

أصبح وزن شيرين خفيفاً، نحو أربعين كيلوغراماً. وجهها تخدّده

الغضون، عيناها غائرتان، فمها مزموم ومنكمش، جلد على عظم، في ميسور سلوى أن تعدّ عظامها عظماً عظماً عندما تعرّيها لتحمّمها.

تغفو أحياناً وهي مستيقظة ويضطرب تنفّسها فتأخذ بالشخير. تحاول استنشاق الهواء فتسارع سلوى إلى تثبيت نافث الأوكسجين على أنفها لتساعدها على التنفّس.

ترى شيرين اهتمام سلوى بها وحبّها لها فتستغرب، لأنّها تدرك أنّ الشباب ينفرون من العجائز وخصوصاً المرضى منهم.

مرّة جاء الطبيب إثر إحدى الأزمات وقال:

- قلبها واهن، الشيخوخة ولا ريب.

* * *

كانت غرفتها في الطابق العلويّ منمنمة، لها مشربيّة تطلّ على شارع بيره مرد ومستشفى المدينة. على الحائط في مواجهة الباب مرآة بإطار مذهّب، وفي الرواشن مزهريّات. السقف مزيّنٌ بالنقوش والأرضيّة رخام.

ينتظم المكان فراشٌ وثير، خزانة من خشب الجوز مزخرفة بالحفر البارز على نحو عصافير وأوراق شجر، وطاولة زينة من السنديان محلاّة بنقوشٍ من السعف وورق الغار، وأصص نباتات إستوائيّة، ومقعد فخم، وخوان، وستائر من الحرير الصينيّ المطرّز بأزهار وطيور وثمار، ولوحات صينيّة من القصب والورق المقوّى والحرير، يجلبها باشا البصرة عزّة النقيب هدايا لها حينما يقضي

مكتبة الفكر الجديد

أصيافه في أراضي والدها في روستي[1] لائذاً بأحضان الجبال الزرق والحمر المتعانقة المتراكضة في تلك العزلة الأبديّة إلى حافة الدنيا.

في غيهب الليل والغرفة ساكنة إلاّ مما يترامى إليها بين الفينة والفينة من الشارع: نباح كلب، عربة مارّة، حديث سابلة، خطوات مسرعة، وضجّة غامضة تتأدّى من المستشفى. في تلك اللحظة التي يتسلّل فيها إلى الغرفة عبر النافذة المشرعة من جرّاء الحرّ ضوء خفيف من قناديل الشارع الواهنة، كانت شيرين غارقة في قرارة نومها الهانئ، في فراشها الوثير المفروش بالملاءات الأطلس، والشراشف المطرّزة المحلاّة بحواشٍ دانتيليّة. الهدأة عميقة تجعل كلّ شيء غافلاً سادراً في أحلامه.

حصل الأمر عندما دخل ذلك الرجل فأحدث في الهواء حفيفاً. فزّت شيرين حين انساب إلى جانبها ويده تتحسّس جسدها، وأنفاسه تلفح رقبتها ووجهها.

صرخت فعاجلها بوضع يده على فمها. جعلها تحته وصعد فوقها. طوّقها بأطرافه، كادت تختنق. قاومت بكلّ ما تملك من قوّة، عضّته وصرخت ماما. لكنّه غطّى وجهها بوسادة، هاهي ترفس، تموت من الاختناق، الهواء، الهواء، تدفع الرجل عنها مرعوبة كما لو أنّ ثعباناً قد تشبّث بحضنها، وصرخت ماما.

شقّ قميص نومها الموسلين الشفّاف. عاركته برجليها، بيديها، وهو يمزّق سروالها. فتح ساقيها مهتاجاً منتعظاً. أفلحت في إبعاد الوسادة والرجل منهمك بزجّ لحمه في أنوثتها.

---

[1] روستي: منطقة خصبة تقع بين جبلي حصاروست وبرادوست في شمال العراق.

مكتبة الفكر الجديد

كان أقوى منها، تدفعه رغبته الجامحة العاصفة إلى اختراق جسدها، وصرخت ماما. أحسّت بالوخز المؤلم مثل نارٍ تسري تحت بطنها وببللٍ، ولم تدرِ أنّها تنزف رعبها دماً. كانت روحها تطلع من الألم والذُعر، تتوثّب إلى الخلاص، الخلاص.

الظلام يتهاوى عليها ركاماً ركاماً، يجثم فوقها، ربّاه، إنّها وحيدة في فم الموت، ثمّ فجأة انزاح الثقل عنها. انقلب الرجل وسقط مطروحاً على الأرض بعيداً منها، ملتفاً بالظلام، ولم تندّ عنه غير صرخةٍ واحدةٍ "آخ"، وهيوا واقفة فوقه في يدها مزهريّة الورد الصينيّة الزخرف تهوي بها على رأسه، تضربه وتضربه حتّى صار الرأس كتلةً دمويّةً لا شكل لها، وهيوا وقد أخذ الغضب الجامح بكلّ كيانها تلفظ قولها مثل ضرباتها قوّةً وإصراراً "يا كلب، يا كلب"، كأنّها تقول: أنا أعرفك وأكرهك لذلك.

الرجل كان آسوس هورامي، خادم الآغا المرحوم أبي شيرين، وزوج أمّها الأرملة بعد ذلك.

أمرت الأمّ أحد خدمها المخلصين بتقطيع الجثّة ورميها إلى الكلاب السائبة في مزبلة السوق المركزي في حيّ ملكندي. ولم يعنِ اختفاء هورامي شيئاً للجندرمة الأتراك، فما للآغا للآغا وما للعثمانيين للعثمانيين. وكلّ ما فعلته الأمّ أن بلّغت قائد الجندرمة أنّ زوجها لم يعد من جولته في أراضيها ولم يهتمّ أحدٌ لشيء، وسقط الحادث في الظلّ، لا سيما أنّ آسوس لم يكن غير أفّاق ترك وراءه أمّه العجوز المشلولة في كوخٍ في منطقة هورمان، ونسي الموضوع في غياهب المنسيّات وما أكثرها في ذلك الزمان.

مكتبة الفكر الجديد

مرّت الحادثة في كتمانٍ تامّ، وأجهزت الأمّ على أية نأمة تدلّ عليها.

طبيب العائلة الخاصّ عالج شيرين في عناية، ونال على جهده خاتماً من الياقوت النادر. تعافت البنت غير أنّ آثار مخالب القدر الغادر قد بقيت ماثلة على جسدها، لقد فقدت عذريّتها، وتناهشت الأمّ مخاوف من أن تحبل البنت، لكنّ الطبيب قال إنّ الموضوع بعيد الاحتمال.

* * *

يقوم مستشفى البصرة في مواجهة قلعة السجن، يسوّره سياج متصدّع وتخاصره حديقة واسعة مهملة اجتاحتها الأعشاب البريّة. تجد الناس فيها يقعدون ويأكلون ويتحدّثون ويدخّنون؛ هي إذاً مطرح للقاء والانتظار. ولكن ما الذي يمنع هذه الجماهير من التمدّد إلى داخل المستشفى؟ لذلك ترى ما هو حاصل بالبديهة، المرضى وأقاربهم يجوبون الممرّات ويذرعون الباحات، يصعدون السلالم وينزلون، ماشين أو على العكاكيز وفي كراسٍ متحرّكة ينتقلون، الأصحّاء منهم يحملون الأكياس والسلال والبقج، والمرضى شاحبون ينظرون إلى الآخرين نظرة غائبة.

الممرّضون، الأطبّاء، الفرّاشون والخدم يغدون ويروحون، وبعضهم يقف عند النوافذ المفتوحة وبصره شاخص إلى الخارج.

لا هدوء، جلبة في كلّ مكان، فضلاً عن ضجيج أبواق السيّارات في الشارع.

مكتبة الفكر الجديد

ونظراً إلى ملازمة سلوى سيّدتها الخاتون صباح مساء لم تبدِ إدارة المستشفى اعتراضاً على منحها سريراً، وُضِع في موازاة سرير المريضة العجوز لتعنى بها؛ إذ من النادر أن تهتمّ ممرّضة بشؤون المرضى الشخصيّة إلاّ في حالات الضرورة القصوى، لذا فعلى الأهلين الأخذ بيد ذويهم. ولم يكن للخاتون أحد يسأل عنها، لا زوج ولا ولد، لا قريب ولا نسيب، غير سلوى تقف على خدمتها، وبدر الذي يمرّ بين آونةٍ وأخرى محمّلاً بالطعام والفواكه والدخان، يقضي بعض الوقت عندهما ثمّ ينصرف؛ وسادة المستشفى لا يسمحون له بالسهر حتّى منتصف الليل في الغرفة بتعلّة أن ما اجتمع رجل وامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما، على الرغم من أنّهما صارا خطيبين شرعاً.

سلوى تطعم الخاتون وتسقيها، تعطيها الدواء في وقته وتساعدها على قضاء حاجتها في قصريّة، وهي إلى ذلك تحمّمها، تغيّر ملابسها وتمشّطها، تقصّ أظفارها وتنظّف طاقم أسنانها، تداعبها وتطمئنها عندما تنوّه إلى نهايتها مذعورة من الموت أو من الألم شأن كلّ من تشرف حياته على الانتهاء.

والخاتون لا تني تأخذ يدها بين المرّة والمرّة، تبوسها وتقول لها في صوتٍ هدّجه الكبر: أنتِ أبي وأمّي يا سلوى، أنت روحي وحياتي، وكانت تقول لبدر عندما يأتي: ستتزوّج يا بدر أحلى جوهرة في الدنيا، وستكون سعيداً طوال حياتك، وهي تنقّل بصرها بينه وبين سلوى وتلمّ يديهما معاً.

وكانت سلوى تمضي هاتيك الليالي مع الخاتون، تصغي إليها وهي تسرد بصوتٍ مختلجٍ متكسّرٍ حكاية تلك الأيّام السالفة، أيّام

مكتبة الفكر الجديد

طفولتها وصباها المطويّة في ملفّ الأيام الغابرة المنسيّة على رفّ الماضي.

وعندما تنام تسوّي الملاءة فوقها وتبارح الغرفة إلى أسفل، آخذة طريقها إلى حديقة المستشفى الخارجيّة فتدهمها حركة الناس، رواحهم ومجيئهم ولغطهم، آنذاك تكون الشمس قد أعتمت وهبط المساء.

تنتبذ سلوى إحدى المصاطب تدخّن سيجارة (سومر) مسرّحة ناظريها أمامها. تنتبه العيون لجمالها فيراودها فرح وثقة بنفسها.

الحديقة مُنارة بأعمدة كهربائيّة، غير أنّ أطرافها المتنائية تغرق في الظلمة.

مرّات لا تجد مقعداً شاغراً فالزوّار وإن قلّ عددهم في ساعة الغروب يبقون كثراً، فتختار لها مكاناً تحت أشجار الصفصاف تقف وتدخّن، وتلك عادة درجت عليها مؤخّراً. يبادر البعض إلى مطارحتها الحديث أو يسألها عن مشغلة ما في المستشفى فتجيب بحسب المناسبة ثمّ تشيح ببصرها عن السائل.

يستغرقها التفكير في قضيّة جوني زوج أختها وإطلاق سراحه، ولقاءات بدر بالمشبوهين من مثل علاّوي الأعرج وحسين العامل ويوسف وإسماعيل، فتستبدّ بها المخاوف، ويستولي عليها القلق مما يخبّئ القدر لها ولأختها من مفاجآت، فتجد نفسها تمجّ سرسابها مع دخان سيجارتها الذي يتصاعد متراقصاً أمامها قبل أن يتلاشى في الهواء. مرّات يضيق صدرها بالمشهد المملّ الدائر من حولها، فتغادر إلى رصيف الشارع تتأمّل عربات الباعة المضاءة بمصابيح

مكتبة الفكر الجديد

الكاز المعلّقة فوقها، والناس يقفون أو يجلسون في جوارها، يتناولون اللحم المشويّ والكباب والخبز والمخلّل، يشربون الشاي والبيبسي واللبن، وعيونهم معلّقة بالسيّارات المارقة تنظر إليها في بلادة ولا مبالاة.

إلى المستشفى ومنه يدخل الناس ويخرجون فيعوقون حركة السير غير آبهين بزمامير السيّارات وهتافات السوّاق التي لا تخلو في أحايين كثيرة من مَهاجر الكلام.

في القصر تُرِكَ العم صالح وحده يحرسه، وإن كان في الحقيقة يغلق بابه ويقضي معظم وقته في بيته، وتراه في بعض الأحيان يكلّف نفسه ويأتي إلى المستشفى موسقاً بأغراضٍ وحاجاتٍ وثيابٍ وطعام. يجلبها في سلّة المسواق مستقلّاً عربة خيل، ولا ينسى أن يمرّ على المصرف ليتسلّم بعض المال الوارد من كراء عقارات وبساتين شيرين. ذلك المال الذي أخذ يتناقص يوماً إثر يوم على نحوٍ مشبوه، فقرّ عزم شيرين بتشجيع من سلوى على تعيين بدر لإدارة أملاكها بدلاً من المحامي المشرف عليها، عندئذٍ ترك بدر عمله في السينما واستلم وظيفته الجديدة.

* * *

في الصيف تصبح البصرة فرناً لاهباً، درجة الحرارة فيها تصل إلى خمسين مئوي. يدوخ السمك في الماء، تتساقط الحشرات من الإعياء وتموت، وتهرب الطيور مولّية من هذا الغضب اللاهب. أمّا

مكتبة الفكر الجديد

الإنسان فيتعرّى تحت المراوح الكهربائيّة ومكيّفات الهواء، أو يغطّ كالجواميس في الأنهار، ويقعي إلى جانب الكلاب في الفيء. يلهث وينعس بينما الرطوبة تهبط على الأرض وتحوّل الفضاء إلى إسفنجة مبلّلة، منها يتنفّس المرء الهواء ماءً وينضح عرقاً، لو رأيته لظننته خارجاً للفور من حمّام بخاريّ. أمّا التراب فيصير مسحوقاً نارياً يلسع الرجل العارية كالجمر، وحرارة الشمس تلفح الجلد فَيَسْوَدّ. الصيف في البصرة صورة أرضيّة من جهنّم.

كان (عزّة) باشا البصرة يحزم حقائبه في هذا الفصل وييمّم وجهه شطر الجبال الكرديّة في شمال البلاد. يصبح في دنيا أخرى كمن ينتقل من الجحيم إلى الفردوس. الهواء حرير والطبيعة معرض أخضر، ألعاب في لوحةٍ زيتيّة. السماء منديل أزرق، ونجوم المساء سلوى للسهران والمتأرّق والحيران. هناك تعرّف الباشا إلى الآغا شيركو سورجي، وامتدّت علاقات الصداقة بينهما وقويت عراها، فصارا يتبادلان الزيارات ويتسامران. وأصبح من الطبيعيّ إذاً أن يلبّي الآغا شيركو دعوة الباشا عزّة لقضاء فصل الشتاء في أحد قصوره في البصرة، حيث ينقلب الطقس فيها، يحلو يا سبحان الله. الشمس ترِقّ فتلذّ ملاقاتها، والنسيم يشفّ عن برودةٍ محبّبة، فتحسّ في روحك أثراً من طيبة الطبيعة وسماحتها. وحين تمطر السماء ينزل الماء عليك فيغسلك من متاعبك النفسيّة، فتتساقط عنك غلالات غير مرئيّة من الإرهاق والوهن والضيق.

لقد تحوّلت الحياة إلى قلقٍ مقيم بعد حادثة الاغتصاب، وصارت الأمّ دلسوز تنام مع شيرين في غرفتها، وشيرين تفزّ في آناء الليالي

مكتبة الفكر الجديد

تصرخ وقد تملّكها الكابوس: مرّة تحلم بذئبٍ ينهشها، وتارةً بيدٍ تجرّها إلى هاوية، وطوراً تسبح في الدم.

عقب تلك الواقعة الأليمة وقد هيمنت على البيت أجواء الوجوم والكآبة، لم تنقطع الدورة الشهريّة للبنت. لم يقع الحبل فتنفّست دلسوز الصعداء، وعقدت العزم مع ابنتها وهيوا على قضاء بعض الوقت في البصرة عند الباشا عزّة للترويح عن النفس، للاسترخاء والنأي عن أجواء الحدث الكابوسي، ولاسيّما أنّ الشتاء على الأبواب واقف بجبّته الفرو ولحيته البيضاء يعلن قدومه.

كان فرح الباشا بهنّ غامراً وترحيبه عظيماً، فتلقّاهنّ متهلّل الوجه تهزّه الضحكات. والباشا رجل خليّ البال، كريم مع النساء، وميّال إليهنّ. فخصّص لاستقبالهنّ وإقامتهنّ واحداً من أجمل قصوره، الأبيض ذا الشرفات الزرق، القائم في بساتين نخل البرحي[1] في منطقة السرّاجي حذاء شطّ العرب.

للباشا عدّة زوجات وله منهنّ أولاد كثار، لكنّ ابنه حامداً كان أحبّهم إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه، وطالما اصطحبه معه في رحلته الصيفيّة السنويّة إلى ربوع روستي المستلقية في أحضان جبل حصاروست.

كانت دلسوز تحبّذ الخلود إلى الراحة في تلك الباحة المشرفة على الشطّ مباشرة. تسترخي متمتّعة بالأنسام المؤرّجة بعطر بساتين النخيل. عليها ثوبها الحرير وفي قدميها خفّ مطرّز بخيوطٍ من ذهب وفضّة. شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها، وعيناها الخضراوان

١ البرحي: أجود أنواع التمور.

مكتبة الفكر الجديد

المتألّقتان بلونٍ زمرّدي يذهبان بعقل الناظر إليهما.

في الضفة المقابلة تزدحم غابات النخيل متتابعة على طول الضفاف. قدّامها الماء حيث تجلس فتركن إلى وحدتها المحبّبة إلى نفسها، مسرّحة بصرها في مويجات الشطّ، وعلى الجانبين يجثم أسدان من رخام يحرسان عزلتها.

غير مرّة حضر الباشا عزّة إلى غرفة جلوسها وسامرها على الديوان الوثير المفروش بالملاءات الحريريّة الملوّنة والمخدّات المطرّزة بأزاهير وثمار وطيور.

الظلام يرخي سدوله على الدنيا، والنجوم تتغامز في دروب السماء، تختلس النظر من النوافذ. هل بات الباشا يتعشّقها؟ هل أشعلت النيران في عروقه، ربّما، فمن يقاوم مفاتن دلسوز: حلاوة ودلال، عينان خضراوان كعيون القطط وشعر أشقر يغار منه الذهب. ذاك ما راح الخدم يتهامسون به ويوشوشون.

في تلك الليلة الصافية والقمر يرسل ضوءاً أصفر يتوامض على شطّ العرب، كان الباشا يعانق دلسوز على سريرها. جسداهما يشتعلان بالرغبة. يضمّها إليه، يعرّيان بعضهما بعضاً. تعطيه نفسها مشتهية فيأخذها متهيّجاً راغباً فيها. يتوهّج جسدها الأبيض متورّداً بلون زهر الجوري. يملّس عزّة ردفيها، يفرك نهديها ومابين ساقيها. تتعالى تأوّهاتها منتشية. يضع فمه بين فخذيها ويداعبها بلسانه بينما وجهها تحت بطنه وعرقه المشدود في فمها. يمتطيها، تتّقد، تشدّه إليها تتلوّى وتتأوّد. تبوسه وتجذب لسانه بشفتيها عميقاً في فمها. تحتوي عرقه المتصلّب المتهيّج المتوغّل في تلافيف أعماقها ملتذّة

مكتبة الفكر الجديد

به، تتشبّث به تريد الاحتفاظ به، متمسّكة باندفاعته، بصلابته. يرهز فوقها غائراً فيها، ماضياً جامحاً يطحنها، يتأجّجان بالشهوة ويغيبان في فردوس عشقهما المؤرّج بعبير العطور والبخور وضوع عَرَقهما المسكيّ. تحته مستسلمة بين ذراعيه يرويها ويطفئ نارها. تغمرهما المحبّة ويرضيان رافلين في اللذة والمتعة والولع بالجسد.

* * *

لم تغفل زهور أباها الأعمى الذي بقي وحده بين جنبات الجدران. كانت تسرق الوقت وتخطف رجلها إليه قاطعة الزقاق القصير من بيت زوجها جوني إلى منزل طفولتها. تصرف الوقت تنظّف، تكنس، تطبخ، تغسل ثياب أبيها وبياضاته، تنظر أين وصل الشراب في القنّينة، كم بقي من السجائر في علبة دخان بغداد، وما مدى صلاحيّة بطاريّات المذياع، وهل الصابون كافٍ، أتوجد فواكه في الثلاّجة... إلخ.

وقد دار في بال أختها سلوى أن تنقله إلى القصر ليقيم في إحدى غرفه الكثيرات تخلّصاً من الإيجار. الإيجارات تهلك. لاقت الفكرة تجاوباً كبيراً لدى الخاتون. هذه القصّة تمّت قبل مرضها، لكنّ الأب مانع ورفض، لاعتياده مسارات يسلكها مرتاحاً، وجوانب ينتبذها مطمئنّاً، ومطارح يرتادها آمناً. هنا يقعد وقربه المذياع، هناك ينام وتحت سريره نعلاه، وثمّة يتحمّم ومنشفته معلّقة على الباب، في جوار المطبخ يرقى الدرج إلى بيت الراحة وهكذا.

لكنّه رضخ في آخر المطاف نزولاً عند رغبة ابنتيه في التخلّص من

مكتبة الفكر الجديد

إيجار البيت الذي أمسى يشكّل عبئاً اقتصادياً على كاهليهما.

راحت سلوى تتناوب اختلاس الوقت وأختها للإطلال على الأب في القصر، ورؤية ما يلزمه ويعوزه، ومن ثمّ تعود إلى المستشفى إلى جانب المريضة العجوز شيرين.

ولم يتأخّر بدر في تقديم بعض الخدمات ساعة يحشر الوقت البنتين، فيساعد في التسوّق وتوفير الدخان والعرق للأب.

ذات مساء جاء الطبيب وفحص المريضة، قاس ضغطها، استمع إلى نبضها، رفع جفنها، وتمعّن في حدقتها، جسّ خاصرتها وسألها أتتوجّع فقالت لا، ولم تكن تشكو إلاّ من ضيقٍ يعتري تنفّسها، وضعف عام في جسمها. لا تقوى على المشي ولا على استخدام يديها لأنّهما ترتعشان.

أخذ الطبيب سلوى جانباً وأسرّ إليها بأن لا فائدة تُرجى من بقاء المريضة في المستشفى، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً لها، ومرضها هو الشيخوخة ولا ريب، وفي الإمكان العناية بها ورعايتها في بيتها. وقد كان يتخيّر الكلمات منوّهاً إلى أنّ أيّام المريضة في دنيانا الفانية باتت معدودة، ولا مفرّ من مواجهة مالا مفرّ منه، ولا منجاة مما قُدّر على كلّ إنسان في نهاية المطاف. ثمّ بارح الغرفة مع الممرّضة التي تتبعه كظلّه كأنّه ملك القدر وصاحب النهاية.

* * *

لم تشأ دلسوز الاقتران بالباشا، فهي على الرغم من حبّها له سأمت

مكتبة الفكر الجديد

الزواج حقّاً بعد حياتين مختلفتين. لعلّها ذاقت طعم الحريّة، والمرأة حين تذوقه بعد زواج تتغيّر. تكتشف أنّها صارت واحدة أخرى، امرأة حرّة. والمرأة الحرّة لا تفكّر في العودة إلى منزل الزوجيّة مرةً ثانية، فما بالك بتجربة ثالثة؟

قبل الباشا أن يبقى الوضع على حاله، أن يظلاّ عاشقين. ولكن ماذا عساه يفعل حين يحلّ الصيف وتعود الحبيبة إلى ديارها في الشمال؟ كيف سيفارقها؟ أيظلّ يتقلّب على جمر حبّها منتظراً مجيئها؟ وإذا لم تأتِ؟ حصل ما لم يكن في الحسبان، طارئ ما، وانقطعت عنه؟

ها قد وقع في حبّها وتعلّق بها، تولّع بعشقها وبالتهام لذائذ جسدها الفتّان، هاهو قد علق. لا مفرّ إذاً من المصاهرة والروابط العائليّة. لا بدّ من اقتران ابنه بابنتها ابتغاء تسليك الممرّات بين العائلتين على إيقاع الفصول. في الصيف يكون عندها وفي الشتاء تكون عنده، بذريعة القرابة وزيارة الأهل وقطعاً لألسنة السوء، فيتيسّر بذلك اجتماعهما ويتواصل عشقهما، فالغرام يشعل النار في القلب. الغرام فتّاك.

لم يكن حامد ابنه إلاّ ولداً غرّاً غير مبالٍ، وله عدّة جوارٍ، أضف إلى ذلك غزواته في غرف الخادمات والطبّاخات.

هذا كلّ ما نملك أن نقوله عنه. لم تعارض شيرين في الزواج كثيراً بعدما حصل لها. صحيح، هي تودّ أن تبقى طليقة حرّة من كلّ التزام إذا تيسّر لها ذلك، وشعور يخامرها بالنفور من الذكر، فالعهد بما جرى لها لم يكن بعيداً، والتجربة العنيفة لا تزال ماثلة مرعبة في ذهنها. لكنّها لكي تطمس ذاكرتها حقّاً عليها عدم العودة إلى مدينة السليمانيّة. تلك المدينة التي أمست كابوساً بالنسبة إليها. ينبغي لها

مكتبة الفكر الجديد

نسيانها. جسدها يرتعش حين يأتي ذكرها. صارت تشمئزّ منها.

ولكن كيف يمكن تجاوز مسألة العذريّة؟ وأيّ سبيل يمكن اتّخاذه لتخفيف وقع الصدمة؟ وهل في مُكْنَةِ أحد أن يغيّر إرادة القدر؟

تشجّعت دلسوز، وليس في ميسورها أن تقوم بخلاف ذلك، وأسرّت إلى عزّة بالقصّة، إذ لم يكن أيّ مهرب آخر متاحاً لها. فلم يعبأ الباشا كثيراً بالموضوع. لقد أضحى الرجل أسير غرامها، فضلاً عن أنّه هو نفسه لا يخلو من تهتّك ومجون، ولا يعوزه المرح واللامبالاة، وابنه ورث عنه تلك الخصال. لا مشكلة، فلقد فاز أخيراً بنعمة البقاء قرب حبيبته، وهي نعمت بالسكينة إذ وفّرت لابنتها حياة جديدة، إذا لم تكمن مرضية تماماً فهي مريحة وأمينة، ستخرجها حتماً من ظلام الشرّ الذي أصابها، كما تعمي العيون التي رمتها بالحسد.

عاشت شيرين في بداية زواجها مُهْمَلة بفعل ما في جسدها من عيب، انكشف لحامد ليلة العرس. لم يخبره أبوه بمصيبة شيرين. لماذا يجب عليه إخباره؟ هو الذي يقرّر والابن يرضخ بلا نقاش. انتهينا.

أبقاها حامد عنده وأهملها. لم تبالِ شيرين وواصلت حياتها في صبرٍ وبلا ضجيج. لم تنجب ولم يكترث زوجها لذلك، وذهب يطارد الحسان في القصر وخارجه ويحيا على هواه.

عنّ له ذات يوم أن يكون أباً، وهو لم يدرك هذه الغريزة إلاّ عندما سقط عن حصانه وكاد يدقّ عنقه، وإذا الموت حياله يصر به ويضحك منه، يومذاك فكّر في الخلود. ومن غير الابن يسعى على الأرض يخلّد اسمه؟ اقترن ثانية بفتاة لكنّها لم تحبل هي الأخرى، وكانت صلفة، عينها قويّة، تلمّح إلى عقمه كلّما تجاهل رغباتها ومطالبها فطلّقها.

مكتبة الفكر الجديد

اختلفت الحال عندئذ ووقع الرجل في نقيصة عيبه وصغر شأنه، حتّى كاد يصبح مسخرةً لولا مروءة شيرين. سامحته مستعيدة بلا شكّ هيبتها، وفرضت سطوتها عليه تقوده كيفما تشاء. لن تشمت به. وهل هناك أصعب من أن يطعن المرء في أعزّ ما لديه: رجولته؟

صار مغرماً بها أو خيّل إليه أنّه يحبّها، مع مشاعر تتملّكه بأنّها أقوى منه.

بات يحتاجها، فهي تحميه من نفسه، ومرّات من الناس الذين كانوا من وراء ظهره يسخرون من رجولته أو يشفقون عليه وعليها لأنّهما بلا عقب.

نختصر الحياة في كلمات، وما الحياة ما الكلمات إلاّ "ملك هازم اللذّات ومفرّق الجماعات". في نهاية المطاف أوصى الباشا حامد بكلّ ثروته لشيرين تتصرّف بها كما تشاء بعد وفاته.

* * *

في ليلة هادئة صافية الأديم ماتت شيرين، وقد جاء في وصيّتها أنّ القصر يكون ملكاً خالصاً لسلوى، وانّ ماتبقّى من أملاكها يوزّع بالتساوي على كلٍّ من سلوى وأحفاد هيوا.

* * *

أنفاسهما تتردّد مضطردة. شبق العشق حارّ، قويّ، يستحوذ على

مكتبة الفكر الجديد

أعصاب المحبّين ويأخذهما إلى المضاجعة في رغبة جامحة، فيتعانق عريهما في لذّة واشتهاء.

هكذا كان بدر وسلوى في مخدعهما يلتصقان ولا ينفكّان يدخلان بعضهما بعضاً. يتعرّقان، يلهثان، يتناوبان التقلّب، فوق وتحت، تحت وفوق، تارة بين ساقيها وطوراً بين ساقيه.

يتوغّل فيها متهيّجاً ويرهز مرّة على مهلٍ وأخرى في قوّة. تضمّه إليها مشتهية. يدعك نهديها، فخذيها وردفيها ويدقّها، ترتجّ وتئنّ. يغور في أنوثتها. تتلوّى تحته ملتذّة بصلبه القاسي يلجها. يرهز رهزات أخيرة فيُنزِل فيها، يمتزج ماؤه بمائها فينتشيان ويغمرهما الفرح.

وهما مضطجعان بعد تلك المواقعة الجسديّة الحارّة والهدأة تشملهما، والظلام يغشي الغرفة إلاّ من ضوء قمر ضعيف يتخلّل الشبّاك، وبينما هي تستلقي على جنبها الأيمن وهو يلتصق بها، يحتضن ظهرها وردفيها ويداعب ثديها، قالت له:

– نما إليّ أنّ نفراً من المارّة رأوا في المقبرة ليلاً ملاكاً يطوف حول قبر شيرين كأنّه يحرسه.

– الناس تحكي كثيراً، ومن يمرّ بالمقبرة ليلاً غير القرطة[1]؟

– كيف جاءت على بالهم هذه القصّة؟

– وهل رأوه رأي العين؟

– يقولون إنّهم رأوه.

– أو خُيّل إليهم ذلك.

---

[1] القرطة: حيوان متوحّش بحجم الكلب، له سمات الضبع وشكلها. يرتاد المقابر ليلًا لنبش القبور والتهام العظام كما تقول العامّة. وقد يكون هو حيوان الغُرَيْر نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

- لعلّه خيال، لا أدري.

- وكيف تراءى لهم؟ ما شكله؟

- على هيئة امرأة، فتاة على وجه التقريب.

فعلّق بدر ضاحكاً:

- قبلهم حار أهل بيزنطة في الجواب عن مثل هذا السؤال العويص، هل الملائكة ذكور أم إناث.

- عرفوا جنس الملاك من العلامة. كانت له جديلة بشرائط حريريّة. يعبث بها الهواء فتموج تارةً حمراء وتارةً خضراء وتارةً صفراء.

ما برحت الابتسامة تعلو وجه بدر:

- قصّة مثيرة. لا بدّ أن يكون عنوانها الملاك الحارس.

- إنّك لتسخر كثيراً، بالله، لقد كان لها ملاك يحرسها وهي صغيرة.

اكتفى بدر بالصمت والابتسام، بينما سلوى لم تشك ولو للحظة في الحكاية التي تداعت إليها.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثالث عشر

رعشة الحبّ ووشوشة النخيل

محلّة الباشا حارة تغرق في السكون كما لو أنّ أحداً لايسكنها. أزقّتها، ظلالها، كنيستها، مسجدها، دكاكينها، تتبدّى منسيّة، تشي بالوحشة والوحدة. الشرفات خالية، الأبواب موصدة، والنوافذ الواسعة مغلقة.

طراز بيوتها يرقى إلى قرونٍ سالفة: مشربيّات متقاربة، حيطان من الآجر عالية، أبواب عريضة من الخشب. إنّ أصحاب تلك البيوت الفخمة العتيقة الكامدة اللون من باشوات وتجّار وإقطاعيين قد هجروا المحلّة إلى نواحٍ في وسط المدينة، أكثر حيويّة وحركة وفاعليّة، من شأنها أن تنمّي نشاطهم التجاريّ وتبرز أهمّيتهم، أو أنّهم هاجروا، تركوا الديار بعد ضياع هيبتهم وسطوتهم إثر الانقلابات العسكريّة المتوالية التي هبّت على البلد تنادي بالاشتراكيّة تارةً وبالمساواة تارةً أخرى، فأوجسوا خيفةً منها على حاضرهم، وتناهبهم القلق على مستقبلهم.

مكتبة
الفكر الجديد

في الساحة، في تيك المحلّة تنتصب كنيسة ضخمة تسمّى كنيسة الكلدان. توحي بالثقة والرسوخ، وتنزوي في العزلة كأنّها منقطعة عن العالم. لها بوّابة مهيبة لا يذكر أحد أنّها فتحت إلاّ في أيّام الآحاد، وبرج عالٍ فخم تنساب دقّات جرسه الرتيبة في الدروب الخالية في أوقات محدّدة، تختلج في الهواء ثمّ تذوب في الفراغ.

مكثت كنيسة الكلدان في تفرّدها العمرانيّ والديني شاخصة جميلة، تقاوم اشتعالات الزمان وإرهاصاته، صامدة مدارية تقلّب السنين التي قاربت القرن على بنائها. تزداد قوّة من عصر إلى عصر وسط القصور الإسطنبوليّة الطراز التي لفحتها أنفاس الأيّام وطالتها يد الحدثان. أمّا كيف شيّدت كنيسة بين قصور العثمانيين فمسألة يصعب حلّها، ولكن قد يكون الكلدانيّون أوّل من نزل المحلّة وقطنها. ذلك جائز.

الخروج من خلوة ساحة الكنيسة الصغيرة الموشّحة بالشمس والظلال والصمت الموقّر ينتهي بك إلى ساحة أكبر تسمّيها العامّة البراحة، وهي في جزءٍ منها كناية عن طريق عام يربط محلّة الباشا بالسوق القديم. مساحة الأرض تلك لم يحالفها الحظ في أيّ نشاط، ولم يغدق عليها أيّة حركة، وظلّ السكون يرين عليها، وإن كانت تنتظم خلاءها بضعة حوانيت يمرّ بها السابلة الذين سرعان ما ينصرفون عنها، إذ لا يجدون فيها ما يغريهم بالبقاء عندها طويلاً، فيواصلون السير متدهدهين في الأزقّة، آخذين سبيلهم إلى سوق البصرة القديمة.

ولكنْ لهذه الساحة مفاتن كثيرة: عتقها الموحي بالجلال،

مكتبة الفكر الجديد

فضاؤها الرحب المملوء شمساً، وهدووؤها الشفّاف الصافي، حتّى إنّ المارّ بها قادماً من ضيق الأزقة ليمتلئ صدره نسيماً، ويغمر عينيه الضوء، فينشرح صدره، ويؤنس في نفسه رغبة في التمشّي متوانياً للاسترخاء وطرد الهموم من باله، كما أنّها برغم كلّ ذلك ليست مهملة تماماً ولا منسيّة كليّاً، إذ تكاد تكون مقصداً لعددٍ من المصلّين في جامعها، جامع أبي منارتين كما يُسمّى.

وهو مسجد واسع متقن البنيان، شاهق يضفي قدراً وافراً من المهابة على الساحة ويخصّ يا للمفارقة أهل السنّة في أرباض أغلب قاطنيها من الطائفة الشيعيّة.

العزلة تعروه والهدوء يوشّح بوّابته، شأنها في الرجاء والدعوة والحضور الوقور الخافت شأن رفيقتها بوّابة الكنيسة.

إنّه ولا شكّ من بقايا الحقبة العثمانيّة. قاصدوه قلائل يجرّون الخطى إليه وشعور بالتفرّد الشخصيّ واليقين الدينيّ يسيطر عليهم في محيطٍ يكاد يعاديهم.

اليوم الأحد، وقبل انتصاف الظهيرة انتهى القدّاس وقضيت الصلاة، وغشي قاعة الكنيسة حركة يشوبها الهمس والحفيف، وشرع المصلّون يبارحونها في خطوات وانية، يقطعون الساحة جماعات وفرادى ساعين إلى الدرب المحاذي للنهر، متوجّهين إلى بيوتهم في حارتي القطّانة و كامب الأرمن.

في مثل هذا الوقت من السنة يستدير الفصل ببطء ويأخذ الصيف في الانحدار إلى الخريف. يرقّ الهواء، يضحي عليلاً منعشاً، ويخفت وهج السماء. تغدو طاقة الشمس أضعف، ويصبح في مُكْنَةِ المرء أن

مكتبة
الفكر الجديد

ينعم بقدرٍ كافٍ من أشعّتها الخفيفة متمتّعاً بحرارتها اللطيفة في أيّ بقعة مشمسة متاحة.

غير أنّ ذلك لا يعني في كلّ الأحوال أنّ درجة الحرارة طرأ عليها انخفاض شديد، وأنّ المناخ صار أبرد، فالناس مازالوا ينامون على السطوح، اللحف الثقيلة والبطّانيّات مابرحت مكانها في الخزانات، المدافئ النفطيّة باردة مركونة في الزوايا، والأوان لم يئن لانتعال الأحذية الثقيلة، فيما الملابس الخفيفة دارجة سائرة، بيد أنّ الناس الآن لا ينضحون عرقاً لدى أقلّ جهد يبذلونه، ولا يقاسون وطأة الشمس اللاهبة والهواء الحار المثقل بالرطوبة الشديدة، ولا يكابدون أذى العواصف الضارية التي تهبّ فتسفع الأرض والزرع والوجوه.

بعد انتهاء القدّاس غادرت سميرة وأمّها وجمهرة من النساء الكلدانيّات الكنيسة إلى الساحة، وجعلن يدرجن بخطى وئيدة إلى الدرب الرئيس في محلّة الباشا في سبيلهنّ إلى بيوتهنّ، يواكبهنّ على الجانبين صفّان من المنازل المشيّدة بالآجر والخشب، فيها تعالٍ على رغم آثار الزمان الماثلة على حيطانها العالية الموحية بالسقوط. هنا خلفها ذات يوم كم تألّقت رغبات، وكم جاشت طموحات وآمال، وكم انطفأت حيوات.

كنّ جرياً على مألوف عادتهنّ صامتات، يشخصن في سهوم حينما يتدهدهن في سرب، وكلّ ما يحيط بهنّ قد ركن إلى الهدوء. الظلال تستلقي على حجارة الجادّة وتزحف على الحيطان. الظلال فاكهة النهار، تمنح البقع المشمسة طعم البرتقال.

قد تلقي إحداهنّ ملاحظة ما فتردّ أخرى بخفوت واختصار،

مكتبة الفكر الجديد

فالرزانة سمة من سمات المرأة الوقور في الشارع، وإلاّ فهي خفيفة، عينها شاردة ولسانها طويل.

بعضهنّ يلففن رؤوسهنّ بمناديل وأخريات يضعن شالات على أكتافهنّ. أزياؤهنّ تتشابه في أشكالها إلى حدٍّ بعيد.

تنّورات سابغة وقمصان فارهة، أو فساتين تزدهي بألوان ربيعيّة: الفستقيّ والليمونيّ والورديّ والبرتقاليّ، وأحذية جلديّة خفيفة محفوفة، وفي أيديهنّ جزادينهنّ. سيماؤهنّ توحي بالبساطة والنظافة والترتيب أكثر منها برقّة الحال، وإن كنّ فقيرات بالفعل، ينتمي أغلبهنّ إلى طبقة الحرفيين الأجراء.

– اسبقيني ماما، سألحق بك بعد قليل!

قالت سميرة لأمّها بينما النسوة يتّخذن جانب النهر متّجهات إلى بيوتهنّ.

فطالعتها أمّها بلوم لأنّها أبصرت يوسف يقف عند جسر الغربان على غرار من ينتظر امرأً ما، يرصد عابراً ما، وإنّ وقفته تلك في وقت خروجهم من القدّاس لم تأتِ اتّفاقاً، كما أنّها ليست بريئة.

لم يكن انطباع بقيّة النسوة بأقلّ مما ساور الأمّ، فلقد سبق لهنّ أن وقفن على قصّة الخطبة الفاشلة بين مسلم ومسيحيّة، بعدما راجت في أوساط الكلدانيين في البصرة القديمة؛ غير أنهنّ أطرقن ومضين في طريقهنّ إلى مستقرهنّ، تراود وجوه بعضهنّ تعابير الامتعاض والتساؤل، وترود شفاه بعضهنّ الآخر ابتسامات غامضة.

لكنّ سميرة كانت سادرة في حبّها، عازمة على لقاء يوسف غير متردّدة، ومصمّمة على وضع حلٍّ للمشكلة الناشئة الناشبة براثنها

مكتبة الفكر الجديد

في قلبيهما، وعلى اقتراح تصوّرات واستحداث خطط لتذليل العقبة الدينيّة أو في الأقلّ تأجيلها ومن ثمّ تمييعها، وذلك بالتشاور مع يوسف بادئ ذي بدء، وتطمينه بأنّ قرار أهلها ليس قرارها هي، وإن كان كلا القرارين يتأثّر ويؤثّر واحدهما في الآخر.

- لابدّ أن تُطوى صفحة هذه القصّة، سميرة!

قالت الأمّ في نبرة حثّ وتوسّل، وإن كانت تدرك في دخيلتها أنّ نار الغرام لا ينطفئ أوارها بسهولة، بكلمة من هنا واعتراض من هناك، وأنّ اندفاع العشق لا يقاوم، يحدوه على الدوام شغف لا توقفه عقبة، وجاذبيّة لا يردّها مانع، فالعشّاق يذلّلون الصعوبات مهما كانت، على نحوٍ عقلانيّ أو غير عقلانيّ، وإلاّ فإنهم يتسلّلون هاربين إلى مكانٍ آخر، وفي أسوا الأحوال يقضون من اليأس والحسرة.

كان متكئاً على سياج الجسر ناظراً إليهنّ في غير ما اكتراث، حتّى إذا انفصلت عنهنّ سميرة واتّجهت إليه بارح الجسر متمشّياً إلى درب محطّة القطار القديمة، لقلّة السابلة فيه وانعدام سير العربات.

تمهّل هناك تحامياً من الأعين ونجوةً من نظرات النسوة الكلدانيّات تحديداً، بيد أنّه حرص على أن يبقى في مدى بصر سميرة.

وفدت عليه، احتضنها وباسها. صورته وهو يبوسها مرقت اللحظة في أذهان النسوة فسرى في أعصابهنّ تيّار رغبةٍ وتشهٍّ، وعراهنّ حسد.

- كان يمكن أن نلتقي في وقتٍ آخر قطعاً لدابر الغمز.

قالت بلوم رقيقٍ وهي تلتصق به وتنضوي تحت صدره. هذا الإلماع إلى القيل والقال أيقظ في نفس يوسف حديث إعراض أهلها

مكتبة الفكر الجديد

عن سؤال أمّه القرب منهم. شدّها إليه، باسها من عنقها وقال:

- لن يغيّر الهمز في الأمر شيئاً، فأولئك النسوة يتوصلن إلى معرفة كلّ شيء يدور حولهنّ بطريقة أو بأخرى، أمّا ميلهنّ إلى الثرثرة فلا يقف عند حدّ، لأنّ النميمة عندهنّ متعة.

تأمّلته بعين متسائلة تريد أن تسبر دخيلته:

- أظنّ أنّ هناك طارئاً ما دعاك إلى انتظاري على هذا النحو المغامر والعلنيّ؟

ضحك وأكمل:

- أو المتحدّي، لكِ ما تشائين من الصفات.

ثمّ رانت عليه سيماء الجدّ وقال بعد فترةٍ وجيزةٍ من الصمت:

- هناك أمر أريد أن أطلعك عليه. لقد جئت من أجل ذلك.

- بخصوص الزواج؟

- أيّ زواج سميرة؟ قصّة وانتهينا منها، فأهلك أغلقوا الباب بوجه أمّي عندما رفضوا طلبها يدك.

- لم يرفضوا كليّاً ولم يوصدوا باباً ولا تبالغ! وإنّما وضعوا شرطاً.

- أن أدين بديانتهم.

رنت إليه مبتسمة مدارية خاطره، وكان هو يتسم أيضاً لهشاشة الشرط وتهافته.

- قضيّة في طوقنا دراستها، وإيجاد حلول مناسبة لتجاوزها.

قالت مهوّنة من الموضوع.

- سميرة، أنا لا أكترث للأديان، فأنا أعيش على الأرض لا في

السماء، وأنت على بيّنة من معتقدي أكثر من غيرك وتعلمين أنني ملحد، ومن ثمّ سيّان عندي أن أكون على ديني أو على دينٍ آخر، بمعنى أن لا مانع لديّ من أن أتحوّل إلى النصرانيّة أو أن أكون على دين الشياطين، فحبّك عندي أكبر من كلّ الأديان، ولن يضير شخصي أيّ شيء لأنّني أعتبر القصّة شكلانيّة بل تدعو إلى الضحك. على أنّ تفكيري يأخذني إلى ما ستؤول إليه الحال بعد ذلك التحوّل، ماذا سيكون مصير أهلي؟ هل سيغدو في ميسورهم مواصلة العيش بين الناس كما في السابق، أم أنّهم سيواجهون عداءً وكراهيّة فيتعرّضون إلى النبذ والعزل، مما يدفعهم إلى الرحيل والسكنى في مدينة لا يعرفهم فيها أحد، اللهمّ إلاّ إذا أعلنوا براءتهم منّي؟ ألا ترين أنّ للمشكلة وجهاً آخر لا يستهان به؟

- أرى ذلك يوسف والمسيح أراه، فأنا أواجه المشكلة ذاتها.

- لذلك فإنّ مثل هذا الزواج يستدعي وضعاً آخر وبيئةً مغايرة ويعوزه الوقت.

كان الحوار يسري في نبرة تفاهم عميق واتّفاق مبدئيّ، تنتابه من حينٍ إلى حين نظرات شاردة سارحة، زفرة حيرة، إطراقة تفكير، ضيق من معوقات الحاضر، وصعوبة في التماس أفق المستقبل.

كانا ينقلان الخطى ببطء في الظلال الطريّة، وتأتي لحظة يتريّثان فيها وفي جوانبهما يعتلج الهمّ وهما يتجاذبان أطراف الحديث، في نظراتهما وقدة الغرام وشوق الجسد إلى الجسد، ثمّ يستأنفان خطوهما المتمهّل في الدرب المتصدّع.

يمرق أحياناً راكب درّاجة أو يصادفهما عابر سبيل من الفلاّحين،

مكتبة الفكر الجديد

إلاّ أنه يمضي لشأنه، وإنّ تولاّه بعض الدهش من لقاء الحبيبين علناً في رابعة النهار.

تجاوزا محطّة القطار المهجورة، فارقا الدرب إلى نهج مخضوضر بالأعشاب وأشجار الدفلى والقصب، فانتهى بهما المُطاف إلى الجسر المتهالك القائم على نهر الخندق.

عبراه حذرين، فالفجوات بين أخشابه المتآكلة أضحت أدعى إلى الانتباه، وغدا منظر الهوّة تحته مقلقاً.

الهدأة عميقة والسماء زرقاء صافية. إلى اليمين على مسافةٍ دانية، في ضفاف النهر الغابيّة الواطئة، يظهر قصر الباشا الشريف شرف غامضاً، رافلاً في ظلال النخيل الوارفة، وهانئاً في خضرة الدغل النهريّ، في طوقٍ من مملكة نباتات بريّة تضجّ بزقزقة العصافير ونقيق الضفادع وطنين النحل والذباب والزنابير ووشوشة السعف والأغصان والأوراق، بينما أرج النهر بطينه وطحالبه الطافية على سطحه، بقصبه المتعفّن في الماء يملأ الهواء بعبير تختلط فيه رائحة العفونة بالطيب.

إلى يسارهما يقوم مخزن مبيد الحشرات الـ"DDT" الفائح برائحة كيمياويّة فاسدة، ومأوى العجزة الذي يغادره في ساعةٍ كهذه بعض الشيوخ إلى وهج الدرب المشمس آخذين طريقهم إلى ظلال النخل وخضرة الضفاف يتنزّهون فيها، مستروحين نسائم النهر ولائذين بجنّة النخل من نذر الموت والمرض وألم التفكير في قساوة أهلهم الذين هجروهم.

لدى سورٍ من الطين اليابس الذي نالت منه عوامل الريح والشمس

مكتبة الفكر الجديد

والمطر والرطوبة فحتّه وضعضعته، في الطريق الزراعيّ الموصل إلى حيّ كوت الحجّاج، وإزاء بوّابة من الخشب الغليظ العتيق، تأنّت سميرة ريثما يفرغ يوسف من معالجة البوّابة التي تراجعت ضلفتها منفتحة ببطء لثقلها.

هبطا إلى بستان النخل فأرضه منخفضة عن مستوى الطريق بنحو درجتين اثنتين، فغمرتهما ظلال النخل المتقارب بعضه من بعض في صفوف منتظمة صيّرت تيجانه السعفيّة أشبه بمظلّة خضراء هائلة، أشعرتهما بلذّة التمايز بين لطافة أفياء البستان وضوء النهار الساطع في العراء خارج السور.

على مقربة منهما تتلألأ الشمس على مياه نهر الخندق فتثير الانتباه.

اتّخذا هامش النهر ممشى لهما، وكانت الأرجل التي سبقتهما إليه قد سوّته على مرّ الزمن نهجاً بين النخل والماء. راحا يذرعانه في تؤدة ويوسف يتملّكه تردّد في الإفصاح عمّا يجيش به صدره وما يعتمل به فكره، لأنّ سميرة ستعارضه وتحاول أن تمنعه، حتّى إذا وجدت أن لا جدوى من ذلك ازداد ألمها من عناده، مما يزيد بدوره ألمه وحرجه وتأرجحه ما بين حبّه ونداء الواجب السياسي الذي التزمه عن وعي ودراية.

وهو إذا كان يستطيع أن يخفي هدف رحلته عنها ويمضي في إنجاز ما يريد إنجازه، فهو يودّ في الوقت ذاته أن يعلمها ولو تلميحاً بمغادرته المدينة، فذلك ما ينبغي له أن يفعله، حتّى لا يشغل بالها بغيابه غياباً قد يطول، علاوة على أنّه يرغب في الإنعام بلقياها قبل

مكتبة الفكر الجديد

رحيله، فقد لا تتيح له الأيّام فرصة أخرى لرؤيتها. فكان مثل من يقوم بمراسيم الوداع. هل هو الوداع الأخير؟

الجانب الخفيّ من حياته السياسيّة يملي عليه أن يكون كتوماً يحسن إخفاء نشاطه التنظيميّ وتحرّكه الحزبيّ على كلّ من لا صلة له بالحزب، بخاصّة في ميدان العمل السرّي، فيما عاطفته ومشاعره تحتّم عليه أن يكون أكثر تفهّماً وإشفاقاً وشفّافيّة مع من هم أحبّ الناس إليه: سميرة التي استولت على قلبه وملكت خواطره.

لشدّما يتمنّى لو يلمّها في شغاف قلبه حين يرحل فتستقرّ في روحه حبّاً لا يزول، وأملاً يستمدّ منه قوّةً وصبراً على مؤونة الزمان وعوادي الأيّام.

- طرأت بعض المشاغل التي تقتضي أن أرحل قريباً.

- مشاغل؟ أيّة مشاغل؟ وإلى أين تريد أن تذهب.

تساءلت سميرة في دهشٍ وضيقٍ ثمّ أضافت:

- الاختفاء لا يحلّ معضلة.

كأنّها تلومه على انسحابه المباغت من مواجهة مشكلة التمايز الدينيّ الذي يعوق زواجهما. حزر يوسف ما ينوس في خاطر حبيبته فقال:

- لن أذهب بعيداً جدّاً، كما أنّني لست هارباً من "وجه العدالة الدينيّة"، فسفري الآن لا يتعلّق في كلّ حال بزواجنا أو عدمه، لا من قريب ولا من بعيد... إنّه موضوع آخر وقصّة ثانية.

- يتعلّق بالسياسة إذاً؟

استفسرت مثل طفلة تمسك ترباً لها متلبّساً بالجرم المشهود،

مكتبة الفكر الجديد

وافترّت أساريرها عن ابتسامة حلوة.

أفلتت من بين شفتي يوسف ضحكة مفتعلة قصيرة أفصحت عن خجله من عدم طوقه الإدلاء بتفاصيل وافية، فقال في ابتسارٍ ضبابيّ وقد تولاّه الحرج:

- إلى حدّ ما.

ففي دخيلته يتصارع عاملان شديدا الوطء، يتجاذبانه، يؤثّران في سلوكه، وينعكسان على ردود أفعاله: حفاظه على سريّة التنظيم الذي ينتمي إليه وعدم كشف نشاطه لسميرة من جهة، وحبّه لها وإشفاقه عليها كيلا تهوي في دوّامة اضطراب وريب تؤذيها وتغرقها في لجّةٍ جيّاشةٍ من مخاوف هي في غنى عنها من جهةٍ أخرى.

- وهل ستطول غيبتك؟

- لا أدري، بيد أنني ساعود في نهاية المطاف، طال السفر أم قصر.

- سأشتاق إليك.

- وأنا أكثر.

بلغا مطرحاً فسيحاً من الضفة محاطاً بحلقة محكمة من شجر النخيل، ناعم التراب، غير مزروع، طالما سوّته الأجساد ودعكته، وكان يوسف يلحظ أحياناً زوجة الفلاّح وأولاده يختلفون إليه للراحة، حفاة لا تستر أجسادهم إلاّ الأطمار، يلتمّون في زحمة الظلال، يطعمون خبزاً وخضراً وتمراً، يشربون الشاي ويشقّقون الأحاديث، مفترشين حصيرة بالية، مسرورين بخلوتهم وانقطاعهم عن العالم إلاّ عن الأرض والنخل والنهر.

مكتبة الفكر الجديد

الآن البستان فارغ، فالفلاّح وأهله في كوخهم القصبيّ يغطّون في قيلولتهم. يسود المكان هدوء. النسيم يوشوش بين السعف، ونقيق ضفادع ملولة ينطلق، وعلى البعد من جهةٍ ما يُسمع نباح الكلاب السائبة التقليديّ.

في الهواء طنين ذباب ونحل، ومن بين دغل الضفة تتسلّل حيّات نحو أهدافها فتخشخش الأعشاب. يخفق سطح النهر على حين غرّة من تقافز سمكات مرحات، وفوق الطين تدبّ سرطانات صغيرات في حذرٍ، ثمّ تتريّث كي تستطلع العالم من حولها.

اقتعدا الخلوة واستغرقا في العناق والتقبيل تجرفهما رغبة جامحة في المواقعة.

أزاح يوسف تنّورة سميرة إلى أعلى فخذيها وخلّصها من سروالها الحريريّ الأسود، وأصابعه تملّس بشرتها وتداعب موطن أنوثتها، حتّى إذا هيّجها الشبق وحفّزتها الإثارة تبلّلت. انتعظ هو أيضاً وتصلّب عرقه وجعل يفكّ بنطاله ويحرّر نفسه من سرواله وهي تساعده، وما إن تهيّأ لها الوضع انحنت على حضنه، وجهها بين ساقيه وفي فمها عصبه المشدود. ما لبثا بعد لأي أن عادا إلى العناق والتبويس.

باعدت سميرة ما بين فخذيها فاتحة جسدها له مستلقية ساخنة فسارع إلى اعتلائها، دخلها وهي تستقبله مشتهية مشتاقة إلى الجماع، تحرق عروقها نار الشهوة. يدعك نهديها، يدلك ردفيها وفخذيها، تطوّق وسطه بساقيها، تشدّه إليها، يتصاعد أنينها من فرط اللذة. يتداخل جسداهما أكثر فأكثر، ويوسف يرهز فوقها، يغوص لحمه في لحمها، يغور في جوفها داكاً أعماقها، تمتزج شهوته بشهوتها،

مكتبة الفكر الجديد

ولمّا بلغ ذروته أفلت نفسه وأراق على بطنها، وكانت هي قد أراقت معه وغابت في بحران من النشوة والخدر اللذيذ.

في تلك الساعة من الحبّ العميق والمتع المحرّمة، في ذلك المكان المغمور بالعواطف المشبوبة المكبوتة المتأجّجة بالعشق والراغبة في الإشباع، في بستان الغرام ذاك، تحوّلت مياه النهر والترع إلى عسلٍ ولبن، وانسلّت بعيداً من بين أجمة النخل حيّة تشرق على محيّاها ابتسامة ماكرة ولكن ظريفة، وصار التمر على العذوق من فرط الغبطة والسرور تفّاحاً أحمر بلون اللذّة.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الرابع عشر

المطاردة

قال الملاّ جعفر:

السلام على الحسين[1] وعلى أولاد الحسين وأصحاب الحسين، السلام عليك يا أبا عبدالله، السلام عليك يا أبا الفضل العبّاس، السلام عليكم ياعترة آل محمّد، وعلى امّكم الزهراء فاطمة، وعلى أبيكم المرتضى علي.

اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم.

فردّد الجمع اللابس السواد وراءه: صلوات على محمّد وآل محمّد.

واستطرد الملاّ:

السلام على رأسك الشريف ياسيّدي يا أبا عبدالله وعلى دمك الطاهر.

---

١ يريد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.

مكتبة الفكر الجديد

سادتي[1]،

وُجِدَ مكتوباً على بعض جدران دير: أترجو أمّة قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب؟ فلمّا سألوا الراهب عن السطر وعمّن كتبه قال: مكتوبٌ هنا قبل أن يبعث نبيّكم بخمسمائة عام.

وقالوا إنّ رجلاً قدم من الكوفة قال: ألم تروا إلى هذا الفاسق ابن الفاسق؟ إن الله قتله، ويعني الإمام الحسين بن علي فرماه الله بكوكبين في عينيه وطمس بصره.

وقال يعقوب بن سليمان: ثمّ جلسنا جماعة فذكروا الإمام الحسين فقال رجل: ما من أحد أعان على قتل الحسين إلاّ أصابه بلاء قبل أن يموت، وكان معنا شيخ كبير فقال: أنا ممن شهدها ويقصد واقعة كربلاء، وما أصابني أمر كرهته.

وخبا السراج فقام ليصلحه، فأخذته النار وجعل ينادي النار النار وخرج هارعاً إلى الفرات وألقى بنفسه فيه ولم تزل النار به حتّى صار فحمة.

لم يبق ممن قتل الحسين إلاّ عوقب في الدنيا، إمّا بقتلٍ أو عمى أو سواد وجه أو زوال ملك في مدّة يسيرة.

وقيل لمّا منعوا الإمام الحسين من الماء قال له رجل: انظر اليه كأنّه كبد السماء، لا تذوق منه قطرة حتّى تموت عطشاً، فقال الإمام: اللهمّ اقتله عطشاً! فلم يروَ مع كثرة شربه حتّى مات عطشاً.

وما تطيّبت امرأة بطيب نهب من عسكر الإمام الحسين إلاّ برصت.

---

١ مرويّات من التراث الشعبيّ الشيعيّ.

مكتبة الفكر الجديد

وفي بريطانيا أمطرت السماء دماً وتحوّل الحليب إلى دم في السنة التي استشهد فيها مولانا أبو الأحرار الإمام الحسين وأهل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

يا إخوان،

قال أئمّة أهل البيت عليهم السلام: وكّل الله بقبر الحسين أربعة آلاف ملاك يبكونه إلى يوم القيامة، فمن زاره عارفاً بحقّه شيّعوه حتّى يبلغوه مأمنه، وإن مرض عادوه غدوةً وعشيّاً، وإذا مات شهدوا جنازته واستغفروا له إلى يوم القيامة.

وليس من ملاكٍ في السماوات إلاّ وهو يسأل الله أن يأذن له في زيارة قبر الحسين، ففوجٌ ينزل وفوجٌ يعرّج.

ومن زاره عارفاً بحقّه غفر الله له ما تقدّم وما تأخّر، ويدخل الجنّة قبل الناس بأربعين عاماً، فإنّ زيارته تدفع الهدم والحرق والغرق وأكل السبع.

وقالوا إنّ موسى بن عمران سأل ربّه زيارة قبر الحسين بن علي، فزاره في سبعين ألف من الملائكة.

يا إخوان،

لمّا جيء برأس عبيد الله بن زياد (قائد جيش الملعون يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) جاءت حيّة ودخلت في فمه فمكثت هنيهة ثمّ خرجت من فيه، وشرعت تدخل وتخرج من رأسه، وصار الناس يقولون خاب عبيد الله وأصحابه وخسروا دنياهم وآخرتهم.

وهكذا سيكون مصير الشيوعيين الكفرة الملحدين الذين لا يتورّعون عن إتيان الزنا بأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم لعنة الله عليهم،

مكتبة الفكر الجديد

مأواهم جهنّم وبئس المصير.

إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قولوا متى ذكرتم الإمام الحسين وأصحابه: ياليتنا كنا معكم سادتي فنفوز فوزاً عظيماً!

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا!

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

في المنحدر الواقع خلف مرتفع محلّة نظران يتفرّع الدرب إلى مسالك ترابيّة شوكاء، تقود إلى مأوى العجائز يميناً وإلى حارة الحساوية يساراً. بعد ذلك المفرق تتدفّق غابات النخيل ممتدّة إلى مسافات متنائية حتّى تختفي فجأة لتحلّ محلّها أرض سبخة تسطع فيها الشمس وتحرقها الحرارة مثل كوكب قاحل، يشقّها شارع إسفلتيّ عصريّ عريض تحفّه بيوت من القرميد الأصفر، متشابهة قبيحة يسوطها الهواء الحارّ: تلك هي منطقة الويمبي.

تحت جنح الليل المنار بمصابيح الطرقات اتّخذت سيّارة سوداء تابعة لمديريّة أمن البصرة سبيلها من شارع الويمبي حتّى انتهت إلى ذلك المفرق، جازته وتوقّفت أمام أكواخ القصب المتراصفة على جانبي الطريق في أطراف محلّة نظران.

غادر السيّارة ستة من رجال الأمن المسلّحين بالمسدّسات والمتخفّين في ملابس مدنيّة، وهبطوا مسرعين المنحدر إلى عمق

مكتبة الفكر الجديد

الأرض المعتمة، وانتشروا حول كوخ حسين العامل القصبيّ متستّرين بالظلام ومتنبّهين لكلّ حركة ونأمة، وكان الضابط قائد المفرزة قد احتلّ موقعه تجاه الباب وأحد رجاله إلى جانبه.

في أقصى ذلك الموقع القاتم تتناثر علاوة على الكوخ نخلات وبيوت من الطين متهدّمة مهجورة.

الأرض وعرة، تكثر فيها القنوات والترع الجافّة والحفر الناجمة عن الانهيارات الترابيّة التي أحدثتها السيول.

في الكوخ كان حسين جالساً على حصيرٍ يتعشّى خبزاً وبيضاً مقليّاً وخضراً وتمراً على ضوء الفانوس الأصفر الشاحب، حينما بلغت سمعه جلبة مريبة صادرة من الباب والسياج.

اندفع خارج حجرته القصب إلى الحوش الترابيّ الحالك الظلام وكان باب الكوخ المسوّى من الصفائح المهملة على وشك الانهيار تحت الضربات. أفلح أحد رجال الأمن في تسلّق السياج الملفّق من طينٍ وقصب والهبوط إلى داخل الحوش.

سمع حسين هتافاً:

- قف مكانك! سلّم نفسك!

ودوّى طلقٌ ناريّ صوبه.

رمى بنفسه على ضلع الكوخ وارتقاه بخفّة القرد متستّراً بالعتمة الدامسة فصار فوقه. كان السطح هشّاً لكنّه زحف عليه بطواعية جسد مرن تعوّد الحركة والعمل ناهيك عن الرغبة التي تدفعه للتملّص والخلاص؛ فيما صياح ضارٍ يندلع في جوف الليل:

- سلّم تسلم!

مكتبة الفكر الجديد

قفز في الظلام وجرى متوارياً في الأرض الليليّة والرصاص يئزّ من حوله.

أمر الضابط اثنين من عناصره بالانطلاق إلى محلّة الباشا عند جسر الغربان وقطع الطريق هناك، بينما مضى البقيّة يقتفون أثر الهارب بالسيّارة عبر درب ترابيّ يحاذي نهر الخندق، شاقّين طريقهم بمصابيح السيّارة الكشّافة التي بدّدت سواد الليل بوهج يتراقص الغبار في أشعّته، متوغّلين في الأرض البكر التي أقام عليها الناس بيوتاً جديدة سمّوها الجُدَيْدَة[1]، كعادتهم في تصغير الأسماء.

انتهت السيّارة إلى القنطرة الخشبيّة المتداعية وخطّ السكّة الحديد الطويل المهجور، فاضطرّ الشرطة إلى تركها وقطع القنطرة راجلين حيث افترقوا: اثنان سلكا الدرب إلى منطقة كوت الحجّاج، والضابط وعنصرٌ آخر توجّها نحو غابة النخيل التي تحتضن شاطئ نهر الخندق.

الظلمة الشاملة تغمر الكون، والعماء يسود مبتلعاً كلّ وضوح. أوغلا في الحرج منيرين المسالك بمصباحين يدويين، بانا مثل حُباحِبتين ناريّتين متوهّجتين في بهم الليل.

كان لدى الضابط جهاز اتّصال، ولم تكن تسمع سوى ضجّة الدغل الغابيّة المتواصلة. بدت متابعة البحث في متاهة النخيل ضرباً من العبث فكلّ شيء وله هيئة الظلام.

---

١ حيث يقع منزل طالب غالي، كاتب الأغاني والملحّن الشيوعيّ الذي لجأ إلى الكويت إثر صدور مذكّرة بإلقاء القبض عليه بسبب نشاطه السياسيّ المناهض للدولة.

مكتبة الفكر الجديد

- إذا كان مختبئاً هنا سيّدي، فمن الصعوبة العثور عليه في هذا الليل البهيم.

قال الشرطيّ المرافق.

- لكلّ موضع مداخل ومخارج، معابر وجسور، والهارب ابن المنطقة ولابدّ أن يعرف ممرّاً ما يقوده خلال الدغل إلى جهةٍ آمنة، وما علينا إلاّ تعقّب أثره قبل أن ينجح في الافلات نهائيّاً.

وتابعا سيرهما على حرف النهر، فالمشي في العمق شبه مستحيل بسبب شبكة القنوات والترع ومساكب الخضروات وأحواض البرسيم. استرعى انتباههما على هامش ضوئيهما اليدويين زورق على الماء.

ولمّا تدانيا منه بات في ميسورهما رؤية سياج آجريّ عالٍ خلل صفوف النخيل وأشجار الرمّان والسدر والقدّاح، هو بلا شكّ سياج قصرٍ قائم في جوار النهر.

بلغا واجهته البيضاء المشرفة على رحبةٍ مرصوفةٍ بالحجر حيث يقع مرسى الزورق، فطالعهم باب خشبيّ ضخمٌ مزيّنٌ بالنقوش. أمسك الضابط بالمقرعة وقرع الباب مرّةً ومرّة، فطرق سمعهما بعد حينٍ من خلف الباب صوت رجل يسأل بلهجةٍ عالية:

- من هناك؟

فردّ الضابط في صوت سلطويٍّ حادّ:

- افتح، أنا ضابط الأمن!

قلقل القفل وانفتح الباب عن رجلٍ نحيفٍ حاسرٍ يرتدي جلاّبيّة. أفسح المجال لهما ليدخلا وهو يقولُ مذعوراً:

مكتبة الفكر الجديد

- أهلاً وسهلاً سيّدي أنا الحارس، تفضّلا! كيف أستطيع أن أخدمكما؟

- نبحث عن رجل.

أشعل الحارس فانوساً موضوعاً في المدخل الشاهق السقف ورافقهما إلى فناء القصر، فارتسمت ظلالهم المتحرّكة على الجدران.

ثمّة الكثير من الزخارف الملوّنة التي تزيّن الحيطان وأطر النوافذ وزجاجها والأبواب والكوى والسلالم، بأشكال نباتيّة وحيوانيّة وخطوط هندسيّة وتصاميم فلكيّة، بعضها مطليّ بالدهان، وبعضها منقوش على الخشب والجصّ والحجر.

- لا أحد يقوى على التسلّل إلى داخل القصر سيّدي، فكلّ منافذه مرتّجة ترتيجاً محكماً، كما أنّ اجتياز غابات النخيل في الليل أمرٌ شاقّ ونادر، من أين انطلقتم؟

قال الحارس موجّهاً سؤاله إلى الشرطيّ المرافق.

- من نظران.

- إذاً من الأيسر على الفارّ سلوك درب منطقة الصبخة الكبيرة، وإذا كان قد اختار جهتنا فسيقصد في أرجح الظنّ السبيل الذي يقوده إلى حارة كوت الحجّاج لسهولته، أمّا إذا جازف بولوج بساتين النخيل فهو لا يزال في مكانٍ ما من غابة النخل، والبحث عنه في الظلمة في بقعةٍ واسعة محفوف بالصعوبات إن لم يكن مستحيلاً، ولكنّه سيجد في نهاية المطاف ممرّاً ينسلّ منه إلى المناطق المجاورة.

- مفارزنا قطعت الطرق التي تتحدّث عنها.

مكتبة الفكر الجديد

ردّ الشرطيّ حاسماً ثرثرة الحارس لعدم إثارة الضابط أكثر من ذلك.

وكان هذا الأخير شاباً حيويّاً قصير الشعر متوقّد العينين، ترتسم على قسماته مخايل الذكاء والقسوة وتشوّه خدّه آثار بثرة (أخت)[1]. هاهو يتأمّل الأشكال التزيينيّة في جنبات الدار على ضوء مصباحه اليدويّ وما لبث أن أطفاه. وضع الحارس الفانوس على نضدٍ وكان ضوؤه الخافت ينير جزءاً من الفناء، أمّا الأجزاء الأخرى فبقيت غارقة في الظلام.

جلس الضابط في إحدى الأرائك التي تنتظم الفناء وقال مأخوذاً بروعة المبنى وفخامته:

– قصر من هذا؟

– قصر الباشا الشريف شرف.

أجاب الحارس.

– وهل لا يزال لدينا باشوات؟

– لا سيّدي، ولكن أحفاده يتردّدون إلى القصر بين آونةٍ وأخرى.

– أين الكهرباء؟

– مقطوعة سيّدي.

الكهرباء تقطع من مكانٍ ما في الشبكة الكهربائيّة حتّى عودة أصحاب القصر من خارج البلاد، يقضون فيه بعض الوقت، يستجمّون ويغادرون. إجراء اتّخذ عقب اكتشافهم استخدام الكهرباء بوفرة في غيابهم.

---

١ الأخت: تسمية يطلقها العوام على بثرةٍ تترك وسماً تشويهيّاً يلازم المرء طوال حياته.

مكتبة الفكر الجديد

عرا الضابط شعورٌ بالاسترخاء وفتور الهمّة لحظة وقوعه أسير فكرة أوحت إليه بأنّ الهارب قد وصل إلى صقعٍ ناءٍ، وأنّ المطاردة الليليّة قد انتهت هنا.

- سآتيك بمشروبٍ يسعدك سيّدي.

انبرى الحارس قائلاً عندما وجد لدى زائره رغبة في أخذ قسط من الراحة كأنّه يقرأ أفكاره.

رافقه الشرطيّ التابع تاركاً جهاز الاتصال على الأريكة وهو يقول:

- أنا ذاهب معه.

لم يردّ عليه.

توجّها إلى غرفة الحارس المجاورة للبوّابة الرئيسة وغابا هناك.

بعد حينٍ قصيرٍ من الزمن قفل الحارس عائداً بصينيّة موسقة بقنّينة ويسكي وقدحٍ فيه ثلج وطبق عامر بشرائح الجبن والخيار والطّماطم وعلبة دخان مارلبورو وقدّاحة.

وضع ما في يده على الطاولة بإزاء الضابط ثمّ غادر ساحباً معه ظلّه المتحرّك المتطاول على الحيطان.

صبّ الضابط لنفسه كأساً وطفق يحتسيها بأناة وفي نظراته غموضٌ وتأمّل، وتوق إلى الطواف في غرف القصر وردهاته يستولي عليه.

هي رغبة نابعة من الفضول والملل ونزعة الاستحواذ، كأنّما مسّه الصمت والحلكة المبهمة مسّاً راح يحفّزه على النهوض والتقدّم حثيثاً نحو أرضٍ مجهولةٍ لا تدرك إلاّ بولوجها وفضّ أسرارها واستكشاف خفاياها قبل مغادرتها نهائيّاً.

نادى الحارس وأمره بفتح الغرف، فهرع من فوره يحمل المفاتيح

مكتبة الفكر الجديد

ويفتح الأبواب، وقلقلة الأقفال تتردّد في أبهاء القصر.

بعد انتهائه أعلن لسيادته أنّ كلّ شيء مفتوح وانصرف.

أشعل الضابط مصباحه اليدويّ وراح يذرع الفناء ثمّ توقّف أمام باب إحدى الغرف وكان مرتفعاً تنتهي حافته العليا بأرابسك نباتيّ. دخل، أجال ضوءه في الأثاث المترف: أرائك وفرش وآنية وطنافس ولوحات وسجّاد ووقع بصره على النافذة الواسعة المطلّة على الباحة الخارجيّة.

استوقفه طاق بحنية نصف دائريّة، ولجه فإذا هو في غرفة أخرى، ألفى فيها ديواناً مفروشاً بسجاجيد ومساند ووسائد ونافذة بزجاج ملوّن، أزرق وأصفر وأحمر وأخضر، ورواشن في الحائط تضمّ أسرجة للزينة ونسخاً من القرآن الكريم. السقف الشاهق كناية عن عقود مبنيّة من الآجر ومنقوشة بأهلّة ونجوم وشهب وشموس.

دلف إلى غرفة ثالثة فرأى حنيات على هيئة محاريب بحجم الإنسان، أمّا السقف فعالٍ مزخرف بزهور وثمار وأوراق أشجار وطيور ووعول، كلّ ذلك ملوّن بالأصفر والحشيشيّ والليلكيّ والأرجوانيّ والسماويّ والقهوائيّ، وهكذا ظلّ الضابط يدخل الغرف واحدةً تلو الأخرى إلى أن عاد كرّة أخرى إلى الفناء نفسه الذي انطلق منه.

نقّل نظره مع ضوئه اليدويّ فطالعه سلّمان: الأوّل خارجيّ يؤدّي إلى قمرة قد تكون مخزناً كما هي العادة في البيوت القديمة الطراز، والثاني يغور في عمق الحوائط صاعداً إلى أعلى. ارتقى الأخير إلى الطابق العلوي فصار في ممشى تحفّه غرف عديدة. في الطرف

مكتبة الفكر الجديد

الأقصى رأى مدخل درج ثالث يقود إلى سطح القصر ولا شكّ.

دخل أوّل غرفة فوجدَ فيها شرفة تواجه النهر، ولم تختلف الحال في الغرف الأخرى التي وطأها على أنّ لبعضها المشرف على الجهة الخلفيّة من القصر "مشربيّات" من خشبٍ مزخرف.

حيطان القصر مبنيّة بالقرميد الأصفر المكسوّ بالجصّ، وسقوفه مدعومة بألواحٍ من حديد، أبوابه من خشب السنديان وحمّاماته ودورات مياهه مكسوّة بالقاشاني المزيّن بوفرةٍ من الزخارف النباتيّة والحيوانيّة.

في الطابقين تنتشر أصص ضخمة تكلّلها الورود اليانعة، حدّها على الجدران نباتات متسلّقة متألّقة الخضرة حتّى لتبدو جوانب القصر وحنياته وزواياه حديقة وارفة زاهرة لايزال الاعتناء بها جارياً من يناعة الورود ونضارة خضرة النباتات.

عاد الضابط أدراجه إلى الطابق الأرضيّ وجلس على الأريكة معاوداً الرشف من كأسه، ومزدرداً من حينٍ إلى حين بعض الجبن.

ذاب الثلج لكنّ المشروب ما انفكّ بارداً. تولاّه كسل وخمول، دغدغه السكر، راوده التأمّل، واستحوذت روح المكان على حواسه: السكينة، الظلال، النور الفاتر، أصوات حيوانات الليل المتصاعدة من النهر وغابة النخل وزمان الأبهاء الغابر، حتّى هُيّئ له أنّ أطياف النساء اللائي كنّ يقطنّ في القصر يدنون منه، ويهمسن إليه بأسرارهنّ وأنّ أجسادهنّ الأثيريّة العارية تلتصق به وتداعبه.

تفتّحت قسماته واختفت القسوة من ملامحه. شابت عينيه طراوة وتملّكه استسلام.

مكتبة الفكر الجديد

تحفّ النهر أشجار النخيل في صفوفٍ متراصّة وتغطّي جرفيه الأحراج، أعشاب وقصب وطرفاء وغرب. يمسي ماؤه الأخضر الزمرّديّ قاتماً في الليل، رقراقاً، يبقبق آناً فتطفو على سطحه حببٌ، ويخبط صفحته أحياناً كائنٌ نهريٌّ ينقضّ على جاره أو لعلّه يلعب لا أكثر، فتنداح آنئذٍ دوائر الماء حلقات تموّج الأشنات، تهزّ الحشيش المائيّ ثمّ تتلاشى.

الظلام يسبل ستره على النهر، حياة الليل في الغاب تبدأ؛ فيُسْمَعُ همس بين الشجر، وقع أقدام وحشيّة على أرض جافّة، حركة خفيّة تنطلق، خطوات تجري للحظةٍ من الزمن، خدش مخالب في التراب، صرير يتردّد خلل الأعشاب، حفيف زحف على ورقٍ يابسٍ يتكسّر، صوت خافت حذر، احتكاك جسم بالحشائش، هسيس زواحف تبتعد بآذان يقظى، وأنفاس مخلوقات مرتعدة القلب تربض بعيونٍ تتألّق في الظلمة.

ولا يلمح المرء إلاّ أخيلة شبحيّة، مرئيّات غير حقيقيّة تكتنف تدرّجات العتمة، مثل حلم غامضٍ ينجم عن شفافات ضوء النجوم وعناقيد المجرّات وكواكبِ درب التبّانة.

الهواء مليء بأنفاس النهر، يتضوّع بأَرَج النباتات والطين وعَرْف الأرض المعشوشبة، حتّى لكأنّ ضباباً يعلق به فلا رؤية يوثق بها ولا برهان على ما تراه.

اختلج النهر للحين وتحرّك بفعل قوّةٍ تريد الانبثاق منه.

ارتعد الماء واضطرب، وانتشرت على سطحه رغوة. جاشت أمواج، تلاطمت وضربت الجرفين.

مكتبة الفكر الجديد

ارتعش الهواء وانفعل الدغل، تمايل وحلّ بمخلوقاته الشلل، وفار ضباب من رذاذ ودخان من أعماق النهر وانطلق إلى الفضاء. بات يتكثّف كغمامةٍ محمّلة بالمطر، يتلوّى كالدخان، يتعالى ثمّ يأخذ طريقه إلى القصر. يجتاح الفناء، يهبط عليه، يغطّي الضابط ويحتويه فإذا هو يأخذ بالارتجاف. بدا كأنّه ينزلق إلى وهدةٍ فلا يسيطر على حركته. يريد إيقاف جسمه، يحدّ من انزلاقه ولكن من دون فائدة، فجسده يغور في تجاعيد الهيولي، مجذوباً بقوّة إلى ثقبٍ عميقٍ فيه مثل فرجٍ هائل، يشدّه إليه باستمرار وتواصل، يأخذه مستحوذاً على كيانه ومستولياً على قواه. صار الجسد الأسير مقيّداً محصورًا، مضغوطاً وجامداً لا يتحرّك كذبابة شلّها عنكبوت.

رفع الضابط رأسه إلى أعلى وأخذ يمتصّ حلمة ثدي الهيولي، حلمة من ظلام، بينما جذعه الأسفل يغور في الفرج الضبابيّ الداكن المشعر الذي كان يشفط ماء ذكورته حالباً نسغه. هاهي روحه تنسلّ وبدنه يغوص عميقاً في الجوف العظيم الذي أنشا يهضمه بواسطة طاحنات وعاجنات وعالكات وماصّات ونافثات تذوّب بحرارة هوائها وفوران بخارها وقوّة شدّها وانبساطها وحدّة ضغطها وسحبها وسرعة بلعها، اللحم والجلد والعظام والدم والأعصاب.

بدأ الجرم البشريّ يتلاشى قليلاً قليلاً، يختفي إلى أن تمّ التهامه كليّاً.

تراخى الهيولي النهريّ العظيم كأنّما امتلأ بشبعه، ثمّ تهادى طائفاً في الهواء شاقّاً طريقه خارجاً من القصر إلى غور النهر.

ارتعشت المياه عندما عاد وولجها بلطف ورفق ولوج المرود جوف المكحلة.

مكتبة الفكر الجديد

الليل ساجٍ يتمدّد ليّناً على بساط الأرض، يصغي بفتور إلى قصص النجوم مستسلماً لخدر النعاس.

بساتين النخيل تنعم بالهدوء بعد أن أوى البشر إلى أسرّتهم وأخلدوا إلى النوم، لا أحد يقلقها فاستكانت إلى الظلام.

أقلعت نباتات الجروف عن الاهتزاز العصبيّ، مالت إلى التماسك والثبات، وانتشرت فيها روائح ذكيّة، فتأرّج النهر بعبق الخضرة وعبير الطلع والورد والأنساغ واللحاء، وزايل الخدر مخلوقات الدغل والنخل والماء، فاستأنفت الحركة والتنفّس والمضاجعة وإطلاق القهقهات والنداءات والهتافات والابتهالات صريراً ونقيقاً وأزيزاً، صياحاً وفحيحاً وصفيراً.

صدرت للتوّ عن جهاز الاتصال ضجّة أقلقت الهدوء المسيطر على الفناء، فشاب الفضاء تغيّر وانفعال، كأنّما الناس هبطوا فجأة إلى مكانٍ مسحورٍ تسكنه الأشباح، كأنّ المكان بات بشريّاً.

هالة ضوء الفانوس الصفراء الشحيحة، الظلال القاتمة، الفراغ وضوضاء الدغل والهواء الواجم، كلّ ذلك يثير مع الخشخشة المنطلقة من الجهاز وحشة.

كان ثمّة هاتف يهتف عبر الأثير:

- ألو، ألو، هل تسمعني سيّدي، رصاصة واحدة في رأس الأحمر. أجب سيّدي! ألو، ألو..

إلاّ أنّ أحداً لم يجب، وإنّما ظلّت تلك الضجّة تتواصل مثل صوت دخيلٍ غريبٍ فظٍّ، شديد الادعاء والغرور في عمق العزلة إلى أن توقّفت نهائيّاً وران الصمت من جديد.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الخامس عشر

كان النصل أسرع منه

صعد كَنَش الدرج في حركات نشيطة بجسده المفتول العضلات، بعينيه الواسعتين الذكيّتين ورأسه المتوّج بشعرٍ مصفّف، وهو يترنّم بأغنية شاعت في تلك الأيّام، وعلى محيّاه تورق ابتسامة مزهرة.

فكنش راضٍ عن نفسه وقانع بعمله؛ فالقيادة ليست بمهنةٍ صعبة ولا خطيرة ولا قذرة، القيادة جمعٌ لشمل المحبّين والمحبّات واقتناء للمال سهل، ألا يستحقّ من ينشر الحبّ في العالم بعضاً من ثوابٍ وأجر؟ ألا يستحقّ المحبّة؟

حثّ خطاه على البساط المفروش في الممشى أمام الغرف الموصدة والمشقوقة التي تندّ عنها ضحكات وثرثرات، وفي الهواء تسطع رائحة سجائر وعطور يستروحها الزائر فتأنس نفسه إلى عالم الإناث ولذائذه.

وقف حيال أحد الأبواب وهو يدندن بتلك الطقطوقة، قرعه وهتف:

مكتبة الفكر الجديد

- ياللاّ بديعة، جاهزة؟

- جاهزة، قادمة.

فتحت الباب فبدت بكامل استعدادها للعمل، بشعرها المشقّر بصبغة البيروكسيد، وبقسماتها المزوّقة. فخذاها مرصوصتان في البنطال الجينز، وقميصها الورديّ يشفّ عن جلدها وحمّالة صدرها السوداء.

كانت هناك سيّارة بانتظارها خارج البيت، صعدت فيها، استقرّت في المقعد الخلفيّ، ووضعت على عينيها نظّارتها الشمسيّة.

قاد السائق السيّارة إلى خارج الحيّ فسُمِعَ أطيط العجلات على وعر الجادّة؛ ثمّ نزلت صوب شارع بشّار بن برد في حذرٍ وتؤدة، حتّى إذا استقام لها السير انطلقت تسابق الريح إلى حيّ الجزائر.

توقّفت ونزلا منها أمام بيتٍ أبيض مكوّن من طابقٍ واحدٍ وحديقة خارجيّة غزتها الأعشاب البريّة، يسوّرها سياج واطئ من شجر الآس له مدخل مفتوح، جازه السائق وبديعة تتبعه في ممرّ يقود إلى الباب الرئيس المشقوق في دعوة إلى الدخول، مع ذلك قرع السائق الجرس على سبيل التنبيه، ودعا بديعة إلى الدخول فخطت فإذا هي في الصالون.

اتّخذت لها مكاناً على كنبةٍ وثيرة منجّدة بمخملٍ قرمزيّ. الستائر المورّدة على الشبّاك تحدّ من تسلُّل الشمس، وهواء بارد منعش ينبعث من مكيّفٍ للهواء يصدر أزيزاً متواصلاً. أمامها المائدة عامرة بالويسكي والنقل والسجائر والمناديل الورقيّة.

دخل عليها رجلٌ رائق المزاج في الخمسين من عمره، أصلع،

مكتبة الفكر الجديد

يرتدي دشداشة بيضاء تنحشر بين ساقيه السمينتين فينتأ ما تحت كرشه الضخمة. عيناه جاحظتان من وطأة السمنة، وحمراوان بسبب شربٍ كان قد استغرق فيه قبل مجيئها بفترة.

على وجهه تتهدّل ابتسامة شهوانيّة تنمّ على أصلٍ خسيس، وفي نظراته رغبة فاحشة في النزو.

ارتمى جالساً لصقها، حضنها ومصّ شفتيها وقال في بله ومن فمه المفتوح تفوح رائحة حامزة نفّاذة:

- أنا أسعد والدلع سعّودي، وإذا لم يرقك ذلك سمّيني سعدان، أنا سعدان.

وانفجر في قهقهة عارمة وغدت كرشه تهتزّ، فلقد طرب لهزله وبان أنّ الكؤوس التي احتساها قبل حين قد خفّفت من ظلّه كثيراً ومن عقله أكثر.

ابتسمت بديعة له وقالت:

- أنا بديعة.

فأكمل مستغرقاً في سخفه، وبعض من رذاذ بصاقه يتطاير على وجهها:

- بَدَعْ، أشهر من نار على علم، أعرف ياحلو أعرف، من أين يبدأ السعدان بأكل بطّته؟ سؤال.

مدّ يده وطفق يقرصها ويفركها بين فخذيها بقوّة جعلت قسماتها تتلوّى ألماً، فهمست معترضة:

- على رسلك!

لم يأبه وشرع يقبّل رقبتها ويعضعضها، ثمّ استوى بغتة وانبرى

مكتبة الفكر الجديد

متسائلاً في خفّة مصطنعة وقد أمسك عن مداعباته القاسية:

- مالك لا تشربين؟

صبّ لها كأساً وذهب يسقيها ويطعمها بيده على نحوٍ قسريّ وهي تسايره على غير رغبةٍ منها تارةً، وتحاول أن تحدّ من تماديه تارةً أخرى، لأنّها لا تؤانس في نفسها ميلاً طبيعياً إلى الكحول فكيف إذا أرغمت عليه، ولكن لا بدّ لها من الرضوخ.

طلب إليها أن تنضو عنها ملابسها وتبقى في ثيابها الداخليّة فنزلت عند رغبته. خلعت بنطالها الجينز وقميصها ماعدا السروال الأحمر الضيّق وحمّالة الصدر السوداء.

أدار الرجل شيئاً من الموسيقى الراقصة من جهازٍ مركونٍ في الزاوية، ثمّ قفل عائداً إليها يهتف وقد استبدّ به المرح والطرب:

- قومي ارقصي!

حدجته بعينين معترضتين وقالت برمة:

- أنا لا أتقن الرقص، ثمّ إنّ الاتفاق بيننا لم ينصّ على فقرة الرقص.

- وعلام كان الاتفاق "ياسيّدتي"؟

فكان النغم في "يا سيّدتي" مشوباً بالحدّة والغيظ:

- أن نذهب إلى الفراش فقط.

- هيّا ارقصي يا قحبة!

ثمّ نهض في نصف انحناءة حيالها منثنياً عليها وصفعها بقوّة وقسوة وهي جالسة. امتثلت لأمره وقامت ترقص في خرقٍ وتشنّج، لا تدري ما تحرّك أردفيها أم يديها أم صدرها، فهي ترتجّ وتتمايل أكثر مما ترقص، والرجل يحدّق إليها في هوسٍ أقرب إلى الجنون

مكتبة الفكر الجديد

مطلقاً ضحكات تشي بمجونه.

قام وصفعها كرّةً أخرى بعدوانيّة وشراسة، فجلست خائفة معتصمة بالصمت. رمى بجرمه الثقيل المترجرج إلى جوارها وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة حيوانيّة، وأنشأ يعبّ من الويسكي.

- حسنٌ اشربي!

نبر بعد حينٍ بصوتٍ مبحوحٍ أقرب إلى النباح منه إلى صوت البشر بفعل حدّة المشروب. احتست بعضاً مما في كأسها وسألته بلهجةٍ خفيضةٍ مشوبة بالرجاء والاستسلام وهي ترتعد:

- يا للاّ، لنذهب إلى الفراش!

- يا سعّودي.

- يا سعّودي.

- ما بالك مستعجلة! هاه! اخلعي السروال وافتحي فخذيك!

فلما فعلت تناول خيارة ضخمة شاذّة في ضخامتها موضوعة حدّ صفحة السلطة عن قصد، وكانت قد استرعت انتباه بديعة غير أنّها لم تعلّق عليها أو تستوضح سرّ وجودها، وراح يدسّها في عضوها وهو يلوك الكلمات في لؤمٍ ولذّة وغرابة:

- لا بدّ من أنّ هذه الخيارة العملاقة ستضيع في سردابك الواسع يا عاهرة.

تحمّلت نزوته المتوحّشة بألمٍ وصبر، ثمّ توسّلته أن يكفّ لما حاق بها من وجع لم تعد تطيقه.

كفّ عن فعلته مصطنعاً التعقّل وعاد إلى النهل من الويسكي. بعد لأيٍ جرّدها من حمالة صدرها حتّى كادت تتمزّق بين أصابعه، وأخذ

مكتبة الفكر الجديد

يمصّ حلمتيها ويعضعضهما.

رفع دشداشته وأمرها أن تأخذ شياه بفمها فانحنت على كرشه الضخمة المضحكة وقامت بما يريد منها، ولمّا تهيّأ له الوضع أنهضها عامداً إلى أن تركب حضنه ليدخلها فامتطته ومكّنته منها حتّى فرغ من شهوته.

دفعها في ضجرٍ من صدرها فابتعدت عنه بهدوء. سرّها أن أنهت عملها فلم يبق عليها إلاّ أن تبارح هذا المكان الكابوسيّ إلى غير رجعة.

وبينما هي ترتدي ثيابها حملق الرجل الغريب الأطوار فيها فاغر الفم، فكأنّ الدهش قد أخذه على حين بغتة فاستفهم قائلاً:

– أين تريدين؟

– ماذا؟ ألم ننته بعد؟

– لا.

ودعاها معه إلى إحدى الغرف، وكانت قد استكملت ارتداء ملابسها على عجلٍ ولهوجة، وما إن دخلت الغرفة حتّى طلب إليها أن تخلع ما عليها وتستلقي على الفراش.

امتثلت لأمره على مضض، ولكنّها صرخت:

– لا

عندما رأته يخرج الحبال من خزانة الملابس، فذكرى تعذيبها بعد تقييدها بالحبال في حادثة سابقة لاتزال تراودها كابوساً في منامها، ولم تنجُ من جلاّدها الذي جلدها وهي مقيّدة آنذاك إلاّ بأعجوبة وبعد حيلةٍ وتدبير.

مكتبة الفكر الجديد

هجم الرجل عليها وكمشها من شعرها. دفعته وقفزت إلى حقيبتها واستلّت مدية منها، فضحك مستخفّاً بها وقد استحوذ عليه اللهو واللعب والسكر، وتولّته اللامبالاة فصيّرته سادراً في سلوكه الطائش غير محترزٍ ولا مكترثٍ للعواقب، وهمّ بها يريد تجريدها من سلاحها إلاّ أنّ النصل كان أسرع منه فغار عميقاً في فؤاده. صرخ صرخة واحدة انقلب إثرها ميّتاً.

مسحت بديعة الدم عن جسدها بالشراشف، لبست ثيابها وحملت حقيبتها معها ثمّ غادرت الدار مسرعة واختفت.

* * *

ولم تعثر الشرطة عليها بعد ذلك إلاّ في مبغى محلّة الذهب في بغداد، بعد تعقّبٍ وتحرٍّ إثر بلاغ ورد من القوّاد كَنَش يشير إلى اختفائها وإلى آخر مكان قصدته لإنجاز عملها ولم تعد منه.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السادس عشر

عنف في قرارة السكون

الليل يتقدّم في هزيعه الأخير ولمّا يكد الفجر يطلع بعد. الظلمة تنشر أجنحتها على أكواخ محلّة البلوش القصبيّة المتراكمة على سنمٍ ترابيّ يشرف على ساحة كرة القدم.

لا أحد يعرف سبب نشوء ذلك المرتفع في الأراضي المنبسطة المترامية الأرجاء، في كلّ حال هناك واحد مثله تنهض عليه البيوت يدعى جبل خمّاس كما عرفت.

للهواء هسيس بين الأكواخ وسعف النخيل، لا يتنبّه له أحد سوى القلقين المتأرّقين وحيوانات الظلام.

السماء المنجّمة حالكة السواد، والنجوم تومض فوق أجمات النخيل فضيّة لامعة، تغمز أهل الأرض وتضحك لهم أو منهم.

الناس يرقدون غارقين في أحلام يزيّنها البِشْر لعلّها تتحقّق، أو متململين من كوابيس تفاجئهم من حيث لا يحتسبون.

الحارات التي تطالعك بأزقّتها القديمة يدثّرها الهدوء لولا نباح

مكتبة الفكر الجديد

كلابٍ يردّ بعضها على بعض حتّى يلجّ أحدها منفرداً ثمّ يسدّ التعب والضجر بوزه، أمّا الطرق المؤدية إلى السوق فتخفق في تلك الساعة من النزع الأخير لليل بالعمّال والباعة والجنود الغاذّين الخطى في نور مصابيح الدروب، والدرّاجات الهوائيّة تمرّ بهم فيقرع سائقوها الأجراس تحيّةً لمن يعرفون منهم أو يلقونها عليهم بروحٍ مؤنسةٍ متهلّلة، ثمّ يجوزونهم سراعاً ماضين في رحلتهم لا يثنيهم عن سعيهم شيء.

أكواخ محلّة البلوش مَثَلٌ للهشاشة والفقر يسترها الله، تفصل مابين بعضها بعضاً مماشٍ يسلكها الأهلون، وهي حواشٍ جدّ ضيّقة تسمح بالكاد لمرور شخصٍ واحد، أرضها تراب لا يعدم طارقها التعثّر بكلبٍ نائم أو مطروحٍ أرضاً مرضاً أو كسلاً.

وهي بعامّة كِلاب لا تعضّ، ألفت البشر وألفوها، أو قد يُفاجَأ ذلك المارّ بحزم قصبٍ ودوّارة طين متبّن تسدّان عليه الطريق، ذلك أنّ أحدهم قد شرع ببناء كوخ جديد أو انبرى لتجديد واحد قديم، فينكفئ العابر عائداً على أعقابه باحثاً عن مخرجٍ آخر. وإلاّ فإنّه إذا كان غريباً سيكون مرغماً على الاستعانة خجلاً بالسكّان لمبارحة شبكة الأزقّة والمسالك الموصلة إمّا إلى ساحة كرة القدم لجهة النهر أو دكاكين البراحة لجهة سوق البصرة القديمة.

يغلب طابع الزنوجة على ساكني هذه الأكواخ. والزنج قومٌ فقراء لا تعرف لهم مهنة خاصّة بهم أو تنتظمهم حرفة معيّنة، فمنهم من يرتاد البحر ومنهم من يعتاش على تهريب البضائع من الكويت إلى البصرة وبعضهم يحترف الغناء والموسيقى ويزاول بيع الطيور، وهم

مكتبة الفكر الجديد

نادراً ما يتزوّجون بغيرهم من العوام لا لشيء إلاّ لأنَّ العامّة ترى نفسها أرفع مرتبة بشريّة منهم، فالزنجيّ في البصرة القديمة لا يزال يسمّى عبداً على الرغم من عدم كونه رقيقاً، والمرأة غير السوداء لا تفتأ تسمّى حرّة باعتبارها من طبقة السادة كما هي حال التسميات في العصور الغابرة.

ينفرد عنتر مع قلّة في ذلك المجتمع الأسود الصغير بعدم زنوجته، بيد أنّ زوجته سوداء وأهلها من ساكني الحيّ نفسه، وأولاده أدنى إلى السواد منهم إلى السمرة، فيما هو نفسه أسمر ضارب إلى الدكنة، تقرب ملامحه من ملامح الأهلين العاديّة التي تجد نظائرها غالباً في قسمات البدو.

وعنتر إلى مهنته في إصلاح الدرّاجات الهوائيّة وتأجيرها يتقن إصلاح أجهزة التلفزيون والمذياع التي لا تعدو أن تكون على الجملة من منتجات شركة سوني، علاوة على امتلاكه قطع غيارٍ خاصّة بها.

وهو الوحيد في تلك التخوم الذي يقود درّاجة ناريّة سوداء ضخمة من نوع جاوة، يمتطيها في جولاته على البيوت للنظر في ما عطل من أجهزتها، فتصير مثار دهشة الناس وفرجتهم.

ولكنّ لعنتر وجهاً آخر لا يحيط به أحدٌ تماماً، فصار محطّ أقاويل غدت تتناوله على الظنّة والشبهة، لا تخلو أحياناً من سخرية وتندّر، ذاك أنّه من الحمر وأنّه على صلة ما بالحزب الشيوعيّ العراقيّ.

إنّ عسر إدراك ذلك وصعوبة تأكيده مردّه إلى سببين اثنين: أوّلهما حذر عنتر من الظهور علناً في صحبة المكشوفين من الحزبيين، وثانيهما تجنّبه الخوض في الشؤون السياسيّة اللهمّ إلاّ تعاطفه من

مكتبة الفكر الجديد

طرفٍ خفي مع سياسة الاتحاد السوفياتي وعلى نحوٍ مجازي كأن يكنّي ويواري.

والشيوعيّون العراقيّون جرياً على مألوف عادتهم يعنون عناية فائقة بسريّة العمل التنظيميّ، فيتقنون فنّ التخفّي والمواربة والتقيّة والتمويه والتضليل لطول العهد في مناوأة السلطة وتحدّيها، وجديّة تلك السلطة في تعقّبهم والقضاء عليهم، لذلك بنوا تنظيماتهم تنظيماً هرميّاً دقيقاً غاية في الدقّة[1]، واتخذوا لأنفسهم أسماء مستعارة أصبحت على مرّ الزمن لصيقة بأصحابها فذهبت هاتيك الحقيقيّة إلى مهاوي النسيان، فضلاً عن أنّهم يتنادون بكلمة رفيق على غرار ما كان يفعل الحشّاشون[2] في العصور الإسلاميّة الوسيطة.

استقبل عنتر نسمةً وانيةً من نسمات البكور الخفاف بصدرٍ رحبٍ، وسار في دغش الفجر صامتاً. لا حسّ في الجوار والنجوم ترتعش فوق العالم.

فرّ أحد الكلاب الشاردة حين تقدّم في الممرّ الكائن بين كوخه وكوخ آخر، ثمّ أخذ سبيله خارجاً من زحمة الأكواخ القصبيّة إلى فضاء ساحة كرة القدم، ومن عينيه تطلّ روح العزيمة والإصرار.

لا تفتأ العتمة تغمر الساحة، ومصابيح الأعمدة الكهربائيّة تكشف بضوء باهت الدروب في الضفة الثانية من النهر.

---

١ التنظيم في الحزب الشيوعيّ العراقيّ يقوم على الترتيب التالي: خليّة أصدقاء، خليّة أعضاء، لجنة قاعديّة، لجنة محليّة، لجنة منطقيّة، لجنة مركزيّة، مكتب سياسيّ، وسكرتير الحزب.

٢ الحشّاشون: الطائفة الإسماعيلية المشهورة، أصحاب حسن الصباح، ومركزهم قلعة (آلموت) في جبال شرق إيران.

مكتبة الفكر الجديد

خطا عنتر بين عارضتي كرة القدم العاريتين من الشبكة وشخص قدماً نحو ورشته، فألفى جواداً في انتظاره بشعره المجزوز لالتحاقه بخدمة الجيش الإلزاميّة. كان لحظتئذٍ في ملابس مدنيّة.

وقفا يمدّان النظر عبر النهر إلى بيت الملاّ المنار بضوء عمودٍ كهربائيّ:

– أخشى أن يكون قد خرج؟

قال جواد متسائلاً، فالملاّ في وقتٍ كهذا يبارح داره إلى سوق البصرة القديمة لابتياع السمك من الصيّادين وبيعه من ثمّ في معرضٍ خاصٍّ به في المسمكة العامّة[1].

– لا أظن.

ردّ عنتر ثمّ عمد إلى فتح ورشته. طال منها مقعدين وأوصد الباب. جلسا عليهما وواصلا مراقبة الجانب الآخر من النهر.

– هل أخذ رفيقنا في نقطة الإسناد محلّه؟

تساءل عنتر فقال جواد:

– لا بدّ أن يكون في محلّه.

خلل الأضواء المتراخية في الظلمة المحدقة بها وقع بصرهما على الملاّ يخطو خارجاً من الزقاق فهبّ جواد قائلاً:

– هاهو.

هرولا صوب جسر نظران حتّى إذا وصلاه كان الملاّ قد جاز قصر النقيب نحو الميتم في سبيله إلى السوق. عبر الطريق بضعة من

١ المسمكة في سوق البصرة القديمة عبارة عن بهوٍ تنوّره النوافذ وتنتظم جانبيه فسحٌ إسمنتيّة يُطرَح عليها السمك معروضاً للبيع.

مكتبة الفكر الجديد

راكبي الدرّاجات الهوائيّة ثمّ أقفر. أخذ الرفيقان يتبعان الملاّ حتّى إذا ألمّ بجسر الغربان اقتربا منه وصارا وراءه. أوقفه عنتر لافتاً انتباهه بالتحيّة بينما أسرع جواد فتقدّمه:

- صباح الخير ملاّ.

حدّق إليه الرجل مبهوتاً، وحين استجمع حواسه واستدرك نفسه برقت في عينيه نظرة كراهيّة والتوت قسماته بمشاعر الاحتقار، فهو يبغض عنتراً ولا يطيقه.

- أهلاً عنتر.

ردّ على مضض.

- لو سمحت ملاّ، هلاّ أعطيتني من وقتك لحظة؟

- ماذا تريد؟

نبر بفظاظة ثمّ أكمل:

- أنا مستعجل ووقتي ضيّق.

- ليس هنا في منتصف الطريق والسيّارات تغدو وتروح.

احتجّ عنتر بذلك على رغم خلو الطريق من حركة السير ثمّ تأبّط ذراعه وقاده مسافة خطوات أبعد من الجسر وهو يردّد:

- لن آخذ من وقتك كثيراً مولانا، فالمسألة مصيرية وتخصّ أسرتي وأطفالي، اصغ إليّ فقط ولن أطيل عليك وأجرك على أبي عبدالله الحسين[1]!

والملاّ يحاول سحب ذراعه في ضيقٍ حتّى أفلتها.

- هات ما عندك!

---

١ ابو عبدالله الحسين: هو الحسين بن علي بن أبي طالب.

مكتبة الفكر الجديد

- والله أخي انت ادرى بوضعي.

- لا.. لا أدري.

قالها في تبرّم.

- زوجتي أنجبت البارحة.

- مبارك لك الوليد الجديد.

- والدنيا صعبة.

أطلق الملاّ زفرة من فرغ صبره وهتف:

- أخي لا مال عندي.

وقبل أن ينهي جملته كان نصل سكّين جواد قد غاب في ظهره فندت عنه صرخة ألم ضارية، مالبث ان استلّ عنتر مديته وراحا يطعنانه وهو يجأر منكفئاً على نفسه يريد إيقافهما ويحاول الهرب إلى أن تهاوى على الأرض مضرّجاً بدمه.

كان منظراً مخيفاً والسكون موحشاً والحارات نائية غافلة.

سحب جواد مصباحاً يدويّاً من حزامه، أضاءه ولوّح به لسيّارة تتراءى على مرمى بصره في ظلال أنوار أعمدة الشارع المتباعدة، فتحرّكت متجهة صوبهما.

جرّ عنتر جثّة الملاّ بعيداً من الدرب الخالي إلى حافته المستورة بالأعشاب والنخل قرب سور قصر النقيب الخلفيّ.

توقّفت السيّارة عندهما وخفّ سائقها "رفيق الإسناد" إلى مساعدتهما في رمي الجثّة في صندوقها.

استبدلا بثيابهما الملطّخة بالدم ملابس أخرى جافّة ثمّ استقلّ جواد السيّارة إلى جانب السائق الذي ما لبث أن أقلع بها إلى شارع

مكتبة الفكر الجديد

بصرة-عشّار وغابا عن الأنظار.

قفل عنتر عائداً إلى محلّه وقام يمارس عمله كعادته.

بعد حينٍ من الوقت ارتفعت تباشير الضوء من حافة السماء.

وبدأ الصُبح يتنفّس.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السابع عشر

سدنة الموت

ساعة الفجر تسبغ هدوءاً موقّتاً على الزنازين الماثلة على جانبي الممرّ المبني بالآجر والمدهون بلونٍ رماديّ.

مصابيح الفلورسنت تصبّ أنوارها على الحديد والحجر فتضفي شعوراً عميقاً بالعزلة، تعزّز الصمت وتوحي بالتوجّس والمفاجأة.

في هذه الساعة لا يتناهى إليك إلاّ هينمات أو حسيس أقدام ديدبان ينقل خطاه بانتظام في أرجاء السجن الكبير، سجن البصرة العموميّ[1] في الجناح الخاص بحبس النساء.

ولا يعدم المرء انفجار السكون على حين فجأة بقلقلة أقفال تفتح أو صفق أبواب تغلق، كما أنّ الحال لا تخلو من صرخات معذّبة وعويل وهتافات تنذر وتحذّر، ثمّ لا تنفكّ الضوضاء أن تنحسر ويعود

١ كان في الأصل قلعة بناها العثمانيون لأغراض عسكريّة، ثمّ حُدّثت لاحقاً وأصبحت سجناً تنتصب جدرانه قبالة مستشفى البصرة الجمهوريّ في منطقة باب الزبير.

مكتبة الفكر الجديد

الصمت الثقيل يهيمن من جديد.

في آخر الممرّ تقع الزنازين التي تثير الرهبة في النفس حين يأتي أحد ما على ذكرها، وهي عادة لا تذكر بصراحة وإنّما تكنّى كناية فتعرف بـ"غرف النهاية"، فهي إلى موقعها الأخير المنعزل تستعير اسمها في الواقع من نهاية المطاف والحياة.

وإذا ارتفع ضجيج انفتاح أحد أبوابها واتّفق أنّ إحدى السجينات كانت مستيقظة، فإنّ الفضول سينزع بها إلى تفحّص الممرّ من خلال الكوّة في الباب، لإلقاء النظرة الأخيرة على التعسة الحظ التي تجرجر قدميها بصحبة حرّاسها من دون رجعة.

إنها زنازين المحكومات بالإعدام، يقضين فيها أيّامهنّ الأخيرة قبل سوقهنّ إلى حبل المشنقة.

بدّدت صمت الممرّ الآن خطى امرأة متينة البنية، ثلاثينيّة، شعرها أسود قصير وملامحها واجمة صلبة، عيناها داكنتان لا توحيان إلاّ بالحياد وبتلقّي الأوامر وإلقائها، ولا شيء يشي بأنوثتها غير صدرها.

ترتدي زيّ السجّانات الرسميّ الرصاصيّ المؤلّف من بنطلون عريض وصديريّة، وتعلّق بحزامها العسكريّ الأخضر الفاتح حلقة مفاتيح وعصا من المطّاط الأسود وقيداً من الفولاذ اللامع وجهاز اتصال.

كانت فاتن تتعرّق في منامها، يندّ عنها أنين ناجم عن كابوس، أصابعها متشنّجة كأنّها تريد القبض على شيءٍ ما سيفلت منها. هل تتشبّث بالحياة؟

إنها تعاني ولا شكّ هاجساً يقلق أعماقها، واضطراباً يلازم

مكتبة الفكر الجديد

أفكارها، بيد أنّها لشدّة إرهاقها من التفكير في مصيرها خلدت إلى هذا النوم الأقرب إلى الغيبوبة.

ضاءت الزنزانة فجأة ففاض النور على وهن الفتاة وهزالها، على شعرها المجزوز الذي يُجَزّ عادة قبل تنفيذ الحكم، وعلى يديها الصغيرتين الدقيقتي الأصابع، وردائها القطنيّ الأزرق القصير الخشن العاري من القبّة، فأسبغ عليها شكلاً طفولياً منحها لمحةً بريئةً ملائكيّة.

على الجدار منشفة معلّقة، وفوق المغسلة صابونة وفرشاة أسنان وأنبوب معجون الأسنان، وفي الزاوية مقعد دورة المياه. الحيطان مدهونة بلونٍ رماديّ، ولو دقّق المرء فيها لميّز في ثناياها كلمات ورسوماً هي ولا ريب الرسائل الأخيرة لأولئك اللواتي أقمن في هذا المكان قبل أن يبارحنه إلى الأبد.

فوق السرير الحديديّ حشية من القطن تصلّبت وتعقّدت من كثرة الاستعمال ومرّ الزمان، وعلى المخدّة آثار لعابٍ ودموع.

تحت الفراش على الأرض مشّاية من الإسفنج وغطاء أخضر ناصل اللون، سقط على حين غفلة من النائمة.

كان محيّا فاتن شاحباً هزيلاً تكتنفه ظلال من الآلام كأنّها تشكو مرضاً، وحول عينيها هالتان داكنتان، أين بهاؤها؟ أين جمالها؟ لقد تلاشت نضارتها وضوي جسمها وغدت أشبه بالشبح منها بفتاة عذبة تتألّق جمالاً وتتخطّر غنجاً وخفّة.

لقد جرت عليها النوائب في الفترة الأخيرة المفزعة والمضطربة من حبسها، إبّان التحقيق الهائج معها. كان العالم مخيفاً من حولها،

مكتبة الفكر الجديد

والأفواه ترمي بوجهها نيراناً من غيظٍ وكراهيّة، حتّى تُوّج الرعب المحيط بها بالحكم النهائيّ الصادر بحقّها في محكمة البصرة الواقعة في حيّ السيمر، بمبناها الأجرب الذي يشاكل في هوله وقبحه المحجر الذي يحجز فيه مرضى البرص.

انفتح باب الزنزانة مؤذناً بحلول الساعة وقرب النهاية، وظهرت في فراغه السجّانة الثلاثينيّة القويّة البنيان في وقفةٍ أشبه بالقدر، حيال الفتاة التي أفاقت حال اشتعال النور.

- فاتن الغزاليّ.

سرى الصوت في نبرةٍ واضحةٍ في الزنزانة.

قامت فاتن من رقدتها وقعدت في الفراش.

- هيّا معي!

أكمل الصوت مسراه بنبرة الأمر.

- نعم.

ردّت فاتن مذعنة هادئة.

لبست مشّايتها، مضت إلى المغسلة، غسلت وجهها ونشّفته. كانت بطيئة الحركة، نظرتها فاترة، يعلو أساريرها وجوم.

أفسحت السجّانة لها المجال ودعتها تمشي قدّامها بإيماءة من رأسها. سارت فاتن تجرّ خطاها وئيدة وعيناها شاردتان تنظران ولا تبصران بتأثير عقلها الذي أغلق على نفسه الجهات.

انتهتا إلى بوّابة مقضّبة في أوّل الممرّ، حيث وقفت تنتظرهما سجّانة تماثل صاحبتها، بيد أنّ أساريرها أكثر غلظة وانغلاقاً.

جُسنَ خلال رواق تصطفّ على جهتيه غرف موصدة، أبوابها

مكتبة الفكر الجديد

المغلقة دون فاتن تعاديها، تطوّقها، وتدفعها دفعاً إلى آخرتها مثلها مثل الحرس والجدران.

تريّثن أمام باب مفتوح، ثمّ دخلن الواحدة تلو الأخرى غرفةً عاريةً من الأثاث إلاّ من كرسيّ وطاولة عليها صحن شوربة عدس وخبز بائت وكوب شاي وكأس ماء.

ألقت فاتن نظرة لامبالية على الأكل وقالت بصوتٍ خافت:

- لا أريد أن آكل.

فأضفى صوتها الضئيل الرقيق على ذلك المكان الجهم المغلق الخشن والمعادي ملمحاً بشريّاً.

رفعت نظرها إلى السجّانة الأولى فعدن أدراجهنّ إلى الرواق الساكن الذي أدّى بهنّ إلى جدار بسيط من الطوب، يحتلّ وسطه باب حديد علّقت فوقه لوحة من الخشب كُتِبَت عليها تلك الآية القرآنيّة بخطّ النسخ المزخرف ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. قرعت السجّانة جرساً حذّ الباب ففتحه شرطيّ وهبّت من الداخل رائحة كريهة أشبه برائحة جيفة. دخلت فاتن تتبعها السجّانتان، فإذا هي في قاعةٍ واسعة منارةٍ بنورٍ واهنٍ تعمّها الرطوبة وتشتد فيها العفونة، وفي بقعة أشبه بمساحة للفرجة فيها مقاعد جلس رجل يرتدي مريولاً أبيض تتدلّى من رقبته سمّاعة منتظراً إنهاء واجبه الرسميّ في سأم.

في الصدارة ترتفع منصّة من الصلب، تنتأ من أعلاها ذراع من حديد، يتدلّى منها حبل بأنشوطة.

عرت فاتن رعدة وأطرقت. أطبقت يد السجّانة على يدها وسحبتها

مكتبة الفكر الجديد

فارتقيا درجات المنصّة على عجلٍ إلى حيث يقف الجلاّد منتظراً، حتّى إذا تسلّمها ذاك في حزم أجهشت في البكاء. غلّل يديها خلف ظهرها بقيد حديديّ، خلّص قدميها من النعلين، وغطّى رأسها بكيسٍ أسود، ولمّا شعرت فاتن بالحبل الغليظ يضيق على عنقها الأبيض الرهيف، أغمضت عينيها المغمورتين بالدموع وشدّتهما في قوّة رجاء تحمّل الألم، ثمّ على حين بغتةٍ جاء الألم صاعقاً وحلّ الظلام.

تحرّك الرجل ذو الرداء الأبيض من مكانه أخيراً وانحنى على الجثّة الهزيلة المرميّة على الأرض. حطّ السمّاعة على صدرها وجعل يستمع إلى الصمت الأصمّ، ثمّ اعتدل في وقفته ونظر إلى الجلاّد مومئاً برأسه مؤكّداً نجاح المهمّة وانتهاءها.

ثمّ بارح بهو الموت مسرعاً تاركاً وراءه مخلوقات الظلام منهمكة في ترتيب شؤون الموت الأخيرة.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثامن عشر

المحقّق بعينيه الماكرتين

كان جوني عارياً إلاّ من سرواله ملقىً في ظلمة الجدران، مضطرب السريرة خاوي النظرات، يحترق من حمّى ويئنّ من ألم يسري في جسمه المدمّى بفعل التعذيب، وفي ذهنه يقلّب البيّنات للاحتجاج بها على براءته.

الأرض مبلولة والهواء حبيس، ورائحة نتنة شديدة تفوح من سطل البراز في الزاوية.

في الأعلى كوّة يصل منها في بعض الأحيان خبط أبواب حديد وصرخات، على الأرض كسر خبزٍ يابس وكوب ماءٍ معدنيّ.

انفتح باب الزنزانة وبان شرطيّان، أبصرهما جوني في رؤية مهتزّة قاتمين يسدّان وراءهما المجاز المضاء بأنوار صفر، وطرقت سمعه أصوات بشرٍ حادّة وصلصلة.

أمره أحدهما بالنهوض فلم يستجب، أو هو أعجز من أن ينهض لما في رجليه من وهن. رفعاه فاعتمد عليهما وذهب معهما واجف

مكتبة الفكر الجديد

القلب يخطو بصعوبة إلى غرفة التحقيق.

أدخلوه على محقّق شاب تنبيء نظراته الباردة الصبورة بأنّه سيفوز في النهاية بما يريد.

أمر المحقّق الشرطيين بإجلاس السجين المتهدّم على كرسيّ ومداراته بكأس ماء وسيكارة علّه يثوب إلى نفسه، ثمّ استقرّ في مقعده وراء مكتبه وهو ينعم النظر في جوني كما لو أنّه يتطلّع إلى الإفادة من شيءٍ قليل الفائدة، على أنّه وطّن النفس على كسب ما يمكن كسبه من هذا الركام البشريّ الماكث قبالته، والذي لا يعدو أن يكون مشتبهاً به بريئاً وفق القاعدتين الجنائيّتين الذهبيّتين: لا جريمة بلا جثّة، والمتهم بريء حتّى تثبت إدانته، أما تحصيل المعلومات تحت التعذيب من دون أدلّة ماديّة وشهود فأمر يصعب على القاضي الأخذ به مأخذ الجد.

كانت عينا جوني منتفختين، يشيح بهما عن وجه المحقّق، وكان بالكاد يقوى على فتح فمه. يده متورّمة، فلقد رُضّت حينما أوغل المحقّقون في استجوابه آخر مرّة.

– أين أخفيت جثّة الملاّ يا جوني؟

قال المحقّق فلم يحر جوني جواباً، كما أنّه لم يجرؤ على التقاط السيجارة من المنفضة.

– مالك لا تدخّن؟

استدرك المحقّق فردّ جوني في خفوت شأن من لا يملك جواباً آخر.

– والله أنا بريء، بريء والله.

مكتبة الفكر الجديد

- إذا اعترفت يا جوني وتعاونت معنا نجوت من حبل المشنقة، وسأوصي بإيداعك السجن فقط.

- لم أقتل الملاّ والله العظيم، وقد كنت في البيت يوم اختفائه، وعندي من يشهد على كلامي.

- لقد تعبت وأتعبتنا. اعترف وخلّصنا، لا أحد يتمنّى الموت للملاّ أكثر منك.

- ولماذا سيّدي؟

- الم يشِ بك لدينا في قصّة الويسكي؟

- لم يكن لي علم بذلك الافتراء، وأنّى لي ان أعلم بما يفعل الملاّ من وراء ظهري؟

- ولكنّه كان يفضح أساليبك التجاريّة غير المشروعة في كلّ مجلس عاشوراء ويحرّض الناس عليك.

- لا شيء بيني وبينه والله وإن لفّق تهماً ضدّي، وأنا بريء من دمه.

كانت السيكارة مشتعلة في المنفضة ولم يقربها جوني. سدّد المحقّق نظره إلى أحد الشرطيين وأومأ إلى اللفافة الداخنة فقام ذاك للفور بإطفائها.

قال جوني:

- ولماذا لا يكون الشيوعيّون هم الذين خطفوا الملاّ وقتلوه، أو الله أعلم بما فعلوا به، كما هو دأبهم في أعمال التخريب والاعتداء.

ابتسم المحقّق وقال:

- ها أنت بدأت تفكّر على نحو جيّد وسليم. مديرية الأمن العامّة على دراية بأنّ الشيوعيين لا ينفّذون جرائم اغتيال في الوقت الراهن،

مكتبة الفكر الجديد

ليس لأنّهم شرفاء وتعوزهم الميول الإجراميّة، وإنّما لأنّ ذلك لا يدخل في تكتيكهم الحالي، ما عدا الجناح المتطرّف المنشقّ عنهم. مع ذلك فنحن نبحث في ملفّهم.

- ألم يتسبّب الملاّ في مطاردة زعيمهم حسين العامل وقتله.

- حسين العامل ليس من الجناح المنشقّ، كما أنه ليس زعيمهم.

- وما دخلي أنا سيّدي، مالي ولهذه القصّة، أنا مظلوم.

- الدلائل تشير إلى أنّك خطفت الملاّ وقتلته، أو احتجزته في مكانٍ ما أو على علم بذلك.

- لا والله، لا يد لي في ما جرى له.

ثمّ تأنّى قليلاً وقال بعد ان استجمع شجاعته:

- ولا إثبات يؤكّد تلك التهمة.

- نحن نثبت ذلك جوني.

- كيف سيّدي؟

- لأنّنا نحن أصحاب القرار.

- لعلّ الملاّ ذهب إلى مكانٍ ما ولم يعد، أو ربّما سعى إلى الاختفاء.

- وأين سيذهب، إلى جهنّم؟

قال المحقّق ضاحكاً واستطرد:

- ثمّ أنّ زوجته لا ترى سبباً يدعوه إلى التخلّي عنها والهرب منها. لا بدّ من إغلاق ملف هذه القضيّة جوني، وإلاّ..

- وإلاّ ماذا سيّدي؟

مكتبة الفكر الجديد

- فإنّك ستتعفّن في الحبس إلى أن تموت، وحتّى من دون محاكمة.

- لماذا، وأنا بريء؟

- بريء مم؟ من الخطف والقتل، أم من التهريب؟

هسّ المحقّق وقام يذرع أرض الغرفة في تلك الخطى الثقيلة ماجّاً دخان سيجارته، ثمّ وقف يحدّق إلى جوني بعينين ماكرتين ومزدريتين، قبل أن ينقلب عائداً إلى مكانه كأنّه قرّر أن يحسم المسألة، وجوني خافق القلب مطرق في سيماء ذليلة زريّة.

- حسنٌ جوني، سنخلي سبيلك لعدم كفاية الأدلّة ضدّك، ولكن هذا لا يعني أنّك بريء في نظرنا، فالشكوك فيك ما انفكّت تساورنا، وافتراضنا أنّك أحد الجناة لا ينِي ماثلاً في تحقيقاتنا، حتّى نحلّ لغز اختفاء الملاّ وحتّى نقع على المجرم أيضاً.

- أنا ممتنّ لك سيّدي.

- ولإثبات براءتك كليّاً وتلك فرصة سانحة، عليك أن تبدّد الشكوك التي تحوم من حولك وأن تساعدنا في العثور على الجاني.

- وماذا في وسعي أن أفعل؟

- أن تراقب الشيوعيّين وأعضاء "حزب الدعوة"[1] في المنطقة وتبلغنا بنشاطهم أوّلاً بأوّل.

- أنا حاضر للتعاون معكم وسأكون عند حسن ظنّكم.

- ليس معنا نحن الشرطة على وجه الدقّة وإنّما مع مديريّة الأمن

---

١ حزب الدعوة: حزب دينيّ شيعيّ معارض، أسّسه محمّد باقر الصدر عام ١٩٥٧. ما لبثت السلطة العراقيّة في سبعينيّات القرن العشرين أن اعتقلت الصدر مع مجموعة كبيرة من أنصاره وأعدمتهم جميعاً بتهمة محاولة إسقاط النظام القائم.

مكتبة الفكر الجديد

في البصرة، سنرتّب لك الصلة وستكون أنت المخبر البديل ممن فقدناه.

- أنا في خدمة الدولة.

- وإذا خطر لك ان تلعب بذيلك ستعود إلى ضيافتي.

- ستكونون راضين عنّي إن شاء الله.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل التاسع عشر

الشمس في الأعالي

غبار، كلّ شيء مغبر في مدينة الناصريّة أو في الأقلّ ذلك ما يوحي جوّها به.

ذاك ما تبادر إلى خلد يوسف وهو يفارق موقف الحافلات حاملاً حقيبةً صغيرةً، وسائراً في دربٍ متآكل الإسفلت ومحفوف ببيوتٍ من قرميد وإسمنت، غيرِ مدهونة وواطئة.

السيّارات تمرق مطلقة أبواقها، والسماء مضوّاة بنور الشمس.

كان وقت الظهيرة وشيكاً. الساحات مجدبة والشوارع التي يلفحها هواء حارّ ملوّث بدخان عوادم السيّارات خالية من أيّ مظهر من مظاهر الترف، لا حدائق، لا ملاعب، لا أسيجة، لا مبانٍ فارهة، إنّها مجرّد منافذ إلى أحياء بلا زينة ولا جمال، بمنازلها المتراكمة بعضها فوق بعض.

الذباب يحطّ على الوجوه، والحيوانات من حمير وخيول ودجاج وكلاب وقطط تسرح في الأرجاء مع السيّارات القديمة الصاخبة

مكتبة الفكر الجديد

بمزاميرها والدرّاجات الهوائيّة الضاجّة بأجراسها في إلحاح متواصل، تنبيهاً للأطفال اللاعبين في الخلاء وللسابلة المارّين بملابسهم البالية: عباءات خلقة، دشاديش كالحة، عقل مهترئة، كوفيّات منسولة، وأنعل جلديّة وبلاستيكية محتوتة ومطيّنة، هؤلاء ناس فقراء، فلاّحون وعمّال ورعاة وحرفيّون وباعة.

ويوسف علي ذلك لم يحفل إلاّ بالوصول إلى علوة الغنم، وذهب يبحث عن أقرب وسيلة للمواصلات، ولمّا لم يكنِ في تلك المدينة إلاّ مواقف قليلة لسيّارات الأجرة يعرفها بعض السكّان، ولمّا كانت سيّارات الأجرة الجوّالة غير مألوفة ولا معروفة في تلك الأصقاع، وحافلات الركّاب الحكوميّة لا تنطلق وفق جدول منتظم، ولا تصل بمقتضى زمنٍ معيّن، وتلك الحال ليست وقفاً على هذه المدينة الجنوبيّة الريفيّة، وإنّما هي حال أغلب المدن العراقيّة ما عدا العاصمة، ولمّا كان يوسف على بيّنة من ذلك الوضع الذي لا يدعو إلى الاستغراب فلقد عقد العزم على انتهاز الفرصة لالتقاط أيّ واسطة نقل متيسّرة تحمله إلى ذلك المكان، وعربات الخيول هي الواسطة الأكثر شيوعاً لنقل البضائع والبشر والحيوانات على حدٍّ سواء.

وكان له ما أراد حين أقبلت عربة باتجاهه، أشار إليها فتوقّفت قربه واتفق أن حوذيها يقصد ناحية قريبة من علوة الغنم، فأسرع يوسف مقابل درهم واحد إلى ارتقاء جانب العربة الخلفيّ وجلس مدلياً رجليه خارجَ الحافة وحقيبته إلى جانبه.

وعلوة الغنم سوق تبلغك منه رائحة روث وبعر قبل أن تصل إليه، ثمّ تثقل الوخمة كلّما دنوت منه كأنّها تدلّك عليه، آنئذٍ يطالعك

بَرَاحٌ تُعرَض فيه الأغنام والجمال والبقر والخيول وحتّى الجاموس للبيع، في معارض غير منتظمة يقف فيها ويتنقّل بينها فلاّحون ورعاة وتجّار صغار وصيّادون حاسرو الرؤوس شعث الشعور أو يعتمرون الكوفيّات والعقل، ويلبسون دشاديش وعباءات سود وبنيّة وأحزمة جلديّة وسترات غامقة، وفي أقدامهم الخشنة أحذية أو أنعل جلد، يساومون ويدقّقون ويلغطون ويخاطبون بعضهم بعضاً بأصوات عالية منفعلة، وثغاء الغنم وهدير الإبل يعلو تارة هنا وطوراً هناك، وعلى الأرض تتناثر أعواد التبن ومخلّفات العلف وفضلات الحيوانات وأكياس خيش خالية أو معبّأة ببعض الشعير والشوفان والبرسيم والحشيش، وجرادل فارغة وأخرى ممتلئة بالماء. إنّه مسرح حقيقيّ للرعي تختلط فيه الحدود والمظاهر بين الإنسان والحيوان، فالناس هنا لشدّة انغمارهم وانشغالهم واحتفالهم بسوائمهم يلوحون أشبه بها من أيّ شيء آخر.

سأل يوسف أحدهم عن التاجر حمزة مطر، فأشار إلى جماعة دلّوه بدورهم على شابٍّ أسمر نحيف مغبر له لبدة شعر كثيفة يجادل في شأن أغنامه رجلاً عجوزاً ينظر إليه بعينين متضرّعتين مبتسماً كي يخفّف من غلوائه، حتّى إذا فرغ الشاب منه أقبل يوسف عليه، حيّاه وقال له بنبرةٍ تدلّ على ثقةٍ تسم شخصين يكتمان سرّاً واحداً:

– أريد الذهاب إلى الدوّاية[1].

تأمّله الشاب مليّاً بعينين يقظتين حذرتين، وقال له على البديهة مماحكاً وسابراً غوره:

---

١ الدوّاية: ناحية تقع في قضاء الشطرة التابع لمدينة الناصريّة.

مكتبة الفكر الجديد

– اذهب!

رمقه يوسف بنظرةٍ صابرة واستفهم:

– ومن يقودني من الدوّاية إلى سلف[1] آل بو سعد.

– ومن تريد في آل بو سعد؟

– الجماعة.

– من أنت؟

– فهد[2].

لمعت في عيني حمزة مطر ومضة انفرجت إثرها أساريره عن ابتسامة طيّبة وقال:

– اسأل عن شبل بن سوادي!

كان هذا التاجر أحد العناصر السريّة في التنظيم وعلى بيّنة من أمر يوسف، وكانت كلمة السرّ (الجماعة) وصاحبّ السرّ (فهد).

عاد يوسف أدراجه إلى موقف الحافلات بعربةٍ لا تختلف عن تلك التي اعتلاها قبل قليل، ومن هناك بعد فترة انتظارٍ مملّة استقلّ حافلة ركّابٍ قميئةٍ وقديمة من نوع نيرن تكتظّ بالقرويين نساءً ورجالاً وأطفالاً، وسقفها يغصّ بالصرر وأكياس الخيش والصناديق والحقائب والزكائب والسلال، مالبثت بعد حينٍ من الوقت أن انطلقت تختضّ على الشارع المحفّر قاصدة قضاء الشطرة.

ومع أنّ الشمس كانت ترسل أشعّتها لكنها ما برحت تجنح

---

١ السلف: عاميّة وتعني المحلّة أو الربع، ولا يستخدمها إلاّ أهل الريف.

٢ فهد: هو الاسم الحركيّ ليوسف سلمان يوسف، مؤسّس الحزب الشيوعيّ العراقيّ في عام ١٩٣٦. أعدم مع نخبة من رفاقه علناً ببغداد في ١٤ نيسان عام ١٩٤٨.

مكتبة الفكر الجديد

رويداً إلى الغرب، وأفياء العصر تشرع في نشر أجنحتها على الأكواخ والحقول والترع والدروب التي يغمرها الهدوء. وماهو إلاّ زمن يقارب الساعة قضاه يوسف بين القرويين محشوراً ومتشاغلاً بتأمّل المشاهد الخلويّة عبر النافذة، وأريج النساء الرخيص يفغمه، وحقيبته الصغيرة بين ساقيه، حتّى وصلوا إلى فضاء الشطرة وترجّلوا من السيّارة في بقعة خالية تقريباً، مقفرة وكئيبة، والسماء التي تسرح فيها طيور بيض بدأت تغيّر لونها، أمسى نورها ضعيفاً وزرقتها فاترة. وجد يوسف نفسه وحيداً، قلّب ناظريه في العراء فألفى إلى يساره ساقية تغطّيها نباتات الحلفاء والقصب والشوك، وعلى مبعدة يسيرة إلى يمينه قهوة مبنيّة بالطين والطوب، تتصدّر واجهتها أرائك ينتبذها بعض الأعراب السئمين. يدخّنون، يشربون الشاي، ويسرّحون البصر في الفراغ.

الوجوم يرين على العالم. إنّه صمت الريف في هاته الساعة من أواخر النهار حيث لا هدير مركبات ولا دويّ آلات ولا ضجيج ازدحام.

أقبل يوسف على المقهى وولجه فملأت أنفه رائحة الشاي والتبغ، وغشيته ظلال تراخى عليها الزمن، أشعرته بالمفارقة بين قفر الخلاء وأنس عالم المقهى الجوّانيّ.

تبادل التحيّة مع النادل الشاب المنهمك في إعداد الشاي، وألقى عليه سؤاله:

- كيف أروح إلى الدوّاية؟

- امضِ في الدرب المحاذي لنا قدماً حتّى يطالعك مفرق طرق!

مكتبة الفكر الجديد

اتجه يساراً وأوقف أيّة واسطة نقل تقصد الدوّاية!

قال ذلك وهو يشير بيديه دالّاً على الجهات التي ينبغي ليوسف اتخاذها.

- وهل أستطيع الوصول مشياً؟

- بعيدة. إذا رغبت فستبلغها بعد منتصف الليل، ولكنْ لِمَ كلّ هذا العناء؟ المركبات تذهب وتجيء في ذلك الدرب، ولن يقتضيك الأمر غير انتظار يسير تتابع بعده مشوارك.

شكره يوسف وبارح المقهى إلى الدرب الموازي لدغل الترعة وسربٌ من الهوام يلحّ عليه، كشّه فتفرّق.

كانت الطبيعة تتلوّن قليلاً قليلاً، تفيض بمشهديّتها كلّما فارق بيوت الطين والطوب والدروب الترابيّة.

أمامه منظرٌ فسيح بدأ يزهو: الترعة في انسياب مائها وخضرة ضفافها تجلّت أنظف، وحقول الرزّ والسكّر والقمح على امتداد البصر تحلّق فوقها زرازير وغربان، أشجار نخيل وصفصاف تتمطّى في خطٍّ قاتم على حفافي الأفق، وومضات أشعّة الشمس المائلة نحو الغروب تأتلق على صفحات القنوات المائيّة.

بين حواشي المزارع ومماشيها يبين صيّادون وفلاّحون ورعاة وماشية وكلاب، وعلى الدرب حيث يسير يمرّ السابلة وراكبو الدرّاجات الهوائيّة، وبعض السيّارات التي تثير الغبار وتبدّد الهدوء بنفيرها وهديرها.

بان المفرق قدّامه ولم يكن من مفرقٍ غيره، ماوَنِيَ بعد أن بلغه أن انعطف إلى جهة اليسار في الطريق الزراعيّ الكائن بين الحقول

مكتبة الفكر الجديد

ووقف ينتظر على حافة حقلٍ تشقّه الترع، ولم يطل به المقام حتّى أقبلت صوبه سيّارة شحن، أشار إليها فتوقّفت عنده.

ولمّا عرف بعد السؤال أنّ وجهتها الدوّاية ارتقى حوضها، وكانت قد سبقته إليه قرويّتان فجلس معهما متكئاً على الحاجز.

واندفعت السيّارة تنهب الدرب الذي تملأ جانبيه الأعشاب والأشجار.

طفقت الأرض تختفي رويداً منحسرةً عن مساحات من المياه تنبسط بعيداً حتّى حافة السماء، توشّيها أجمات قصب وبرديّ، وتحلّق فوقها أسراب الإوز والبطّ، وفي غمارها تنساب زوارق موسقة بحزم القصب والجولان[1]، يقودها صيّادون يحملون العصي الطويلة والمجاذيف ورماح الصيد.

بين غابات القصب تتنافذ ممرّات مائيّة ترودها الزوارق منزلقة بهدوء في مجاريها، وفي بعض الجزر نخيل وصفصاف يظلّل الأكواخ والجواميس الجاثمة أمامها.

كان المساء قد حلّ حين بلغ يوسف الدوّاية، وهي قرية مبنيّة بالقصب والطين واللبن، يحوم في فضائها الهوام وتفوح في هوائها رائحة الدخان والروث، ومن جنباتها يتأدّى نباح كلاب. طريق ترابيّ عريضٌ يشقّها، مضى يوسف فيه يسأل عن شبل بن سوادي فدلّوه.

---

١ الجولان: ضرب من نباتات المستنقعات ينتمي إلى فصيلة القصبيّات، غالباً ما يستخدم علفاً للماشية.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل العشرون

ملمس المسدّس

كيف لمعت هذه الفكرة في خاطره وعمّ نورها عقله؟ لايدري. لعلّ الهوّة تجذبه وتغريه وما عليه سوى القفز، ولعلّ الإنسان يفكّر في إلقاء نفسه حين يقف على حافتها. السقوط واقع لا محالة حينما لا تكون ثمّة إرادة تمنعه. الهاوية مظلمة، مخيفة، عميقة، يدوخ من يحدّق فيها، تستولي على ذهنه، تجرّه إليها كما تعانق الحبيبة حبيبها وتضمّ الأمّ طفلها إلى صدرها، وتكون المفاجأة حين يجد نفسه يهوي في ماء جارٍ يغمره ويأخذه في مسارب معتمة، يتقلّب فيها، غارقاً تارةً وطافياً تارةً أخرى، مذعناً للسيل يقوده حيثما شاء فيجد في ذلك لذّةً وسروراً، لأنّه لا يمخر الغمر وحده وإنّما في صحبة أنثى حارّة ريّانة تسبح معه وتلازمه، تجاوره وتلتصق به. تحتدم المشاعر وتلتهب الأحاسيس، يتحاضنان، يتباوسان، ويضاجع بعضهما بعضاً، يركبها من فوق الماء ويأتيها من تحت، يدخلها بزخم يجاوز الحدّ إلى درجة الألم لكأنّه يقذف بأحشائه حين يريق فيها، ثمّ يعوم منتشياً إلى جانبها

مكتبة الفكر الجديد

فينزلقان في الماء معاً.

أفرغ علاّوي في نشوة بعد تشنّج فأفاق من النوم فإذا هو قد أراق على نفسه في سرواله، وكان في منامه قد ولج فاتن وأنزل فيها، كأنّ الجماع لشدّة حرارته قد جرى حقّاً في عالمنا الواقعيّ في ذلك الهزيع من الليل.

استوى في فراشه وفي عينيه نظرة شاردة ملؤها الوحدة والحزن، كان يتمنّى لو يظلّ سادراً في حلمه لا يفيق.

الهواء حارّ برغم دوران المروحة الكهربائية والنافذة المفتوحة على الزقاق، فالحرّ تصعب زحزحته إذا كان مثقلاً بالرطوبة.

لم يشأ أن يشعل الضوء، لعلّ الضوء يجعل العالم حقيقيّاً جدّاً، واضحاً وصارماً، يترك أفكاره مكشوفة. الضوء يفضحه والظلام يخفيه، وهو بطبعه أميل إلى الخفاء

والسرّ، يصغي دائماً إلى دواخله.

اكتفى بما يلقيه مصباح الزقاق خلال النافذة من نورٍ شحيح يرقّق العتمة فيجعل الغرفة شاعريّة وأنيسة.

أنزل رجله السليمة واستند عليها. جمع بقدمه فردتي خفّه بعضهما إلى بعض، ثمّ أنزل رجله المصابة الأخرى لينتعل الخفّ، وبمساعدة يديه اعتدل قائماً في سريره. في وجهه كدر من أثر النوم وأسى خلّفه حلمه في نفسه.

البيت غارق في الصمت. أمّه وأبوه يخلدان إلى الفراش باكراً ويغطّان في نومهما بعمق. حتّى الزقاق كان هامداً تماماً، لا أحد، لا عابر سبيل، ولا سائق درّاجة في تلك الساعة المتأخرة من الليل، إلاّ

مكتبة الفكر الجديد

حفيف المروحة الكهربائيّة يُسمَع مؤكّداً قوّة السكون والليل والنوم التي تعمّ العالم.

فتح باب غرفته وخطا في الحوش نحو الحمّام. دخله وأشعل الضوء. نضا عنه سرواله واقتعد مقعداً خشبيّاً واطئاً بلا ظهر، وراح يغسل ساقيه وبطنه وعضوه. إنّ بعضاً من الضيق يداخله حين يقذف في منامه فينسفح أثرٌ من ماء روحه على جسده.

لعلّ وسواس النظافة ناجم عن طقس دينيّ ترسّخ في طفولته يُراد به التطهّر من رجسٍ ما.

نشّف جسده بالمنشفة المعلّقة على الحائط وقفل عائداً إلى مخدعه وعقله لايني عن التفكير في فاتن، وكان قد دخل في روعه أنّها ضحيّة استغلال حملها على أن تبيع جسدها مما أدّى بها إلى نهايتها.

حاول أن ينام على أنّ النوم جافاه، ولم يغمض له جفن لشدّة استغراقه في أفكاره.

إنّ شيئاً غامضاً ناجماً عن ضعفه وعدم قدرته على تحويل إرادته وأفكاره إلى واقع ليعتمل في دواخله ويسري في خفايا روحه، لقد كان سبب كلّ ذلك، وهو يعرف، عوقه بالذّات، لذلك طالما عاش في الأماني، وطالما رغب في أن يضعها موضع التطبيق، ولكنّها تضحي مستحيلة في ظلّ ظروفٍ واقعيّة، لأنّها ولسببٍ بسيط كانت خياليّة.

كأنْ يلعب كرة القدم مع أترابه وهو لا يملك أن يقوم بذلك، كأنْ يسبح، يصارع، يركض، يقفز، وليس في ميسوره فعل هذا ولا القيام بذاك، ولا في استطاعته تدبير ما يدبّره الأولاد، لذا فهو غير قادر على

مكتبة
الفكر الجديد

ممارسة حريّته إلاّ ذهنياً. إنّ عجزه يجعله شارداً في أغلب الأحيان، كئيباً ورقيقاً أيضاً.

مرّةً سخر منه أحد أترابه فصفعه علاّوي للفور من دون تردّد على رغم ميله إلى الودّ والسلام، وكان لصفعته دويّ في نفوس الطلاّب فحاز الإعجاب وأحاطت به المهابة، وصار الطلاّب ينظرون إليه على أنّه صاحب سطوة وكفّ ضاربة.

لليدين إذاً قوى قادرة على فعل التغيير إذا شاءتا، وإذا أضفنا إلى ذلك قوّة الإرادة ومضاء العزيمة والرغبة في بلوغ الهدف من دون تردّد ولا تراجع، فإنّ الحياة حينئذٍ ستأخذ مساراً جديداً.

لم تغب عن باله سخرية القوّادة منه ولا اعتداء تابعها كنش عليه، ولا رضي أن يكون محطّ احتقار أناسٍ يبغضهم ويأنف أن يضع نفسه في مصافهم، لا لشيء إلاّ لأنّهم يتاجرون بأجساد النساء ويتسبّبون في هلاكهنّ، فكيف إذا كان الاستغلال متعلّقاً بحبيبته فاتن إلى حدٍّ أفضى إلى هلاكها؟ بسبب ماذا؟ المال.

حسنٌ وما يحملهما على السخرية منه؟ ألأنّهما كاملان مثلاً ولهما مزايا جسديّة بينما هو معاق أعرج؟ فليذهبا إلى سقر إذاً، بنزرٍ يسيرٍ من الثقة واستعمال الحذر يستطيع أن يطولهما وينال من سطوتهما.

هاجس ملحّ صار ينزع به إلى ولوج غرفة والديه الآن.

لم يملك أن يصرف الفكرة عن دخيلته وظلّت تلازمه بلا كلل بعدما تناوشته عواطف متصارعة، فلم يعرف النوم طريقه إلى عينيه، لذا قام كرّة أخرى وقطع الحوش برويّة إلى غرفة والديه. دفع الباب وخطا بخفوت حذراً من استيقاظهما وكان يسمع صوت تنفّسهما.

مكتبة الفكر الجديد

تلمّس بنطال والده ودسّ يده في الجيب الذي يضع فيه المفاتيح فضمّها بكفّه ثمّ انسحب إلى الحوش. وعلى ضوء المصباح أفرد مفتاحاً واحداً وعاد أدراجه إلى الغرفة وفتح الدرج الذي يعرفه جيّداً في الكومودينو. مدّ يده فكان لملمس المسدّس بعضٌ من القوّة الغريبة التي تخامر النفس حين يسري ملمسه في أروقة الذهن. استحوذ علاّوي عليه ووضعه في جيب بيجامته، وبينما كان يعيد المفاتيح إلى البنطال صلصلت فجفل حين طرق سمعه صوت أمّه أجش من النوم يسأل:

- ماذا تفعل هنا علاّوي؟

- لا شيء ماما، سمعت صوتاً وجئت أرى ما الأمر.

ردّ في خفوت وثقة.

- حسنٌ، عد إلى فراشك! إنّك تحلم ولا ريب.

غادر الغرفة وردّ الباب خلفه في احتراس لئلاّ يُحدث مزيدًا من الإزعاج.

تملّكته الغبطة والمسدّس في حوزته. لقد بات الآن في مقدوره أن ينام.

عاد إلى غرفته ووضع السلاح في الخزانة بين كتبه. أخلد إلى فراشه وسرعان ما تعانقت أجفانه وغرق في النوم.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الواحد والعشرون

أوان الغروب

في طرقة ترابيّة تضمّ بيوتاً من اللبن متشابهة خفيضة وهشّة يقع البيت الذي أوصلوا يوسف إليه.

لمعة الشمس تختفي وراء حافة الكون. اللون النحاسيّ يخبو كأنّه شعلة نارٍ تنطفئ، والسماء تصطبغ بلونٍ أزرق ضارب إلى العتمة، في صفحتها تخفق أوائل النجوم. ولا نور في الدروب إلاّ ما يتسلّل عبر الكوى وشقوق الشبابيك وخصاص الأبواب من المواقد والقناديل.

على الجانب الآخر نخيل وصفصاف ومدى متدفّق من مزارع الحنطة والرزّ والبرسيم،

في الأعالي تمرّ أسرابٌ من الغاق والإوزّ وفي جوار الترع والبرك تقف اللقالق، بينما الجواميس الكسلى تغادر المناقع مرغمةً على وقع صرخات أصحابها.

على البعد يتميّز المرء بعض الفلاّحين المتأخّرين يبارحون مزارعهم إلى بيوتهم.

مكتبة الفكر الجديد

المارّة قلائل في هذا الوقت من الأصيل، فالناس يلزمون دورهم للراحة بعد يوم من العمل الشاق.

من مكانٍ مّا ظهر رجلٌ يمتطي حصاناً، تمهّل نظره على يوسف وألقى عليه السلام ثمّ انصرف. مرق كلبٌ شارد ماعتم أن توارى في أعشاب الترعة المجاورة، وراحت بنت صغيرة تقود الدجاج والبط الذي يتراكض بين أكوام المطّال[1] والتنانير إلى وكناته.

كان باب بيت شبل بن سوادي منفرجاً يتأدّى منه لغط أطفال وضوء فانوس.

طرق يوسف الباب وصاح:

- السلام عليكم.

جاءه الردّ كدأب القرويين في الترحيب من دون إلقاء نظرة على الطارق:

- تفضّل!

- أهنا شبل بن سوادي؟

استفسر يوسف من مكانه فخرج إليه شاب حافٍ، أشعث، قوي الجسم، يرتدي دشداشة وفي عينيه نظرات متسائلة:

- خيراً؟ أنا شبل.

- أنا فهد، آتٍ من طرف حمزة مطر.

- حلّت البركة.

- وأريد أن أصل إلى الشباب في بني سعد.

غطّت ملامح شبل سحابة من التفكير واستقصى:

---

١ المطّال: أقراص من روث الجواميس وجذاذات القصب المفروم تستخدم وقوداً.

مكتبة الفكر الجديد

- الآن؟

- نعم.

- الوقت متأخّر والعتمة بدأت تحلّ. وما يحملك على الاستعجال؟ تقضي الليل عندي وغداً ننطلق بإذن الله.

- لا شبل، يحسن بنا أن نتوكّل على الله الآن.

- كما تشاء، هل تقف على الباب هكذا؟ ادخل، تناول لقمة ريثما أجهّز نفسي!

أدرك يوسف أنّ دعوة العشاء ستمتدّ إلى جلسة الشاي الذي سيُحْتَسى على هدى تبادل الأحاديث وسرد الحكايات، فتطول السهرة ويتراخى الزمن ويمسي تأجيل الرحلة إلى الصباح أمراً لابدّ منه، وهو لا يأنس في نفسه السهر ولا تبديد الوقت في السمر.

- شكراً شبل، البيت عامر، سأتمشّى في الجوار أتنسّم الهواء بينما تكون قد رتّبت أمورك.

- كما تحب، لن أتأخّر عليك.

لم يكد يمضي بعض الوقت حتّى أقبل شبل وفي صحبته فتى. لم يجد يوسف في نفسه فضولاً لمعرفة من يكون. كانا مدجّجين بالسلاح. على كتفه علّق شبل بندقيّة برنو[1] وعلى صدره شدّ خراطيش الرصاص وفي حزامه شكّ خنجراً، أمّا الفتى فتمنطق بحزام جلد في قرابه مسدّس وعلى جنبه خنجر مُغْمَد، وكان كلاهما قد لفّ رأسه بكوفيّة.

توجّه الثلاثة إلى خارج القرية وقد بدأت معالم المساحات العامرة

---

١ برنو: بندقيّة قديمة تعود أصولها إلى الحرب العالميّة الأولى، يستوعب مخزنها أربع رصاصات فقط.

مكتبة الفكر الجديد

ببيوت الطين تختفي تدريجياً لتحلّ محلّها مزارع وترع وأشجار نخيل وصفصاف وغرب وحلفاء وأسل تجثمَ عليها الطيور.

وعلى خلفيّة الصمت المطبق على العالم كان يرتفع نقيق الضفادع وصرير الجنادب ونباح الكلاب.

لم يتناقلوا كثيراً من الكلمات وبدوا ميّالين جميعاً إلى الصمت. وكان إحساس ما يسيطر على يوسف بأنّ شبلاً هو أحد أدلاّء التنظيم لكنّه لم يؤانس في نفسه ميلاً إلى وجود الفتى معهما، إذ كيف يمكن السيطرة على أسرار الكفاح المسلّح بوجود فتية على طرق النشاط الثوريّ. لم يكن هناك شيء ليقوله لدواعٍ أقلّها العلاقات الأسريّة والعشائريّة التي تربط الأدلاّء في ما بينهم، لذا جعل يسرّح طرفه في قتام الحقول حواليه.

انتهوا إلى مشحوف[1] شبل المستكنّ عند ضفّة نهرٍ يغور قصيّاً في الحقول. ركب الفتى أوّلاً محتلاّ مؤخّر القارب والتقط مجذافاً من جوفه، صعد يوسف بعده واستقرّ في الوسط المفروش بحصيرة وحقيبته في حضنه، ثمّ اعتلى شبل القيدوم حاملاً قصبةً من البرديّ طويلة وسميكة تناولها من الضفة، ومافتئ أن غرزها في قاع النهر لدفع الزورق فانساب في ليونة بينما انبرى الصبيّ يجذّف، فأبحروا خلال الأحراج المنتشرة في الضفاف المتقاربة على هدى نور قمريّ بات يكشف المسالك أمامهم.

أخذ النهر يتّسع تدريجياً فاقداً سماته، وولجا فاتحة الأهوار[2]

---

١ المشحوف: زورق رشيقٌ مطليّ بالقار يستخدم في المستنقعات.

٢ الأهوار: المستنقعات الواقعة بين دجلة والفرات في جنوب العراق.

مكتبة الفكر الجديد

المائيّة الشاسعة حتّى ذاب فيها واضمحلّ في مدياتها.

اختفت الضفاف وانبسطت أكوان من الماء المعتم المرقّق بلمسةٍ من نور القمر فضيّة، وتعالت أجمات من القصب المحتشد القاتم، والزورق يشقّ طريقه بينها في ممرّات معلومة يسمّيها المعدان[1] الكواهين: وهي طرق مائيّة بين القصب شقّتها الجواميس والخنازير أو الطبيعة، ذهب الزورق يسلكها بثقة يأخذه عبرها الملاّحان في تؤدةٍ ودراية.

كان الطقس حلواً في تلك الأيّام من آذار، يشوبه عَرْفٌ طيّب مصدره النباتات المائيّة. السماء صافية، تشعّ نجومها الدانية وتغمز، والقمر ساطع ليمونيّ، وأصوات تضجّ: خفق أجنحة طيورٍ تفرّ إذ يدهمها الزورق، وعدو خنازير تبتعد في الدغل، وعواء بنات آوى يتهادى من العمق على أثير المسافات مختلطاً بالنقيق والصرير والصراخ. إنّ حيوات الغاب يقظة، قلقة، خاتلة، كامنة ومسيطرة، تفترس وتتناسل، تنجب وتتصارع، تلهو وتطارد بعضها بعضاً، تعيش وتموت في صفاء الغريزة ويقينها.

انفجر فجأة نباح كلاب، جعل يتواصل كلّما اقتربوا منها، فإذا أنوار ضئيلة تبصّ في الظلام، هي أضواء فوانيس الأكواخ القصبيّة القائمة على جزرٍ طبيعيّة وصناعيّة[2] ظهرت مثل كتلٍ ضخمة، مبهمة، طافية على سواد المياه، وترامى منها على حين غرّة صياح رجل يسأل:

---

١ المعدان: أهل الأهوار.

٢ الجزر الطبيعيّة تسمى إيشانات، أمّا المصنوعة من الطين والقصب والحصران فتسمّى جباشات.

مكتبة الفكر الجديد

- من هناك؟

- صديق.

ردّ شبل هاتفاً إشاعةً للطمأنينة وتهدئةً للنفوس.

وتابع الزورق طريقه يخفق فوق الماء حتّى خلّف القرية وراءه فخفت النباح ثمّ تلاشى.

جاسوا بعد ذلك خلال العديد من الممرّات القصبيّة اضطرّوا في أحدها مرّة إلى التريّث ريثما يمرّ قطيع صاخب من الخنازير البريّة يجوب المقاصب سابحاً من جزيرةٍ إلى أخرى قاطعاً المسالك المائيّة، فلتلك الحيوانات المتوحّشة الضخمة زخم ثيران منطلقة، فلو اصطدموا بها لقلبتهم وداستهم ومزّقتهم بأنيابها. كان الدليلان يرهفان السمع لأقلّ نأمة وحركة، يستغرقان في تحليل الأصوات وتقدير مداها ومصدرها ثمّ يتصرّفان.

السماء مرصّعة بالنجوم. النسيم طريّ يعبق بعبير النباتات. القمر يتسلّق قبّة السماء، ضوؤه الفضيّ النحيل ينعكس على مديات المياه اللامتناهية، يسبغ على غابات القصب والبردي مسحةً من نورٍ باهت، يتلامع مع المويجات آن يشقّ الزورق الماء.

وظلّت تتراءى لهم بين الحين والحين، بينما القصب يختلج ويخشخش، أشباح حيوانات تتسلّل أو تكمن وترقب ثمّ تعدو مبتعدة، هي أرهاط من بنات آوى وقطط وحشيّة وضباع تتحرّك وتتريّث، تتعقّب أو تولّي هاربة، على إيقاع غريزة الدفاع والانسحاب والخوف أو الاندفاع والهجوم.

عادت الأضواء مرّة أخرى ضئيلة متناثرة على كون المياه القاتم

مكتبة الفكر الجديد

الغارق في الصمت الذي لا تخدشه أصوات الحيوانات، بل تعمّقه وتمدّ فيه فيصير صمتاً حيّاً يدوّي في جوف الدغل ويسود.

هي أنوار القناديل الأزليّة تتسلّل من خصاص أكواخ متناثرة طافية على جزرها. ثمّ بلغهم النباح المعهود والسؤال الخالد في تلك المستنقعات:

- من هناك؟

- صديق.

صاح شبل وتابعوا الرحلة خلال الكواهين التي سوّرتها جدران القصب العالية وقبّبتها بذؤاباتها، وكان قد انقضى وقت ليس بالقصير منذ أن انطلقوا، لكنّ الليل لا يلبث في هٰذه الأوّل في كلّ حال.

لاحت لهم في أحد المنعطفات بحيرة هادئة ترقد بين الأدغال القصبيّة في ضوءٍ قمريٍّ يوشّح الأكواخ الطافية عليها بغلالات من نورٍ فضّيٍّ فاترٍ، كشف هياكلها المغمورة بسكونٍ لافت، إذ لا نباح كلاب هنا فظّ وشرس كما هي الحال في الأكواخ التي جازوها.

انساب زورقهم باتّجاه التجمّعات القصبيّة حتّى ليخال المرء أن وقع المجذافين في الماء هو الصوت الحقيقيّ الوحيد في هذا العالم المسحور.

على حين فجأة بلغ مسمعهم النداء التقليديّ صادراً من جهةٍ ما من الأحراج ليست بنائية:

- من هناك؟

أجاب شبل بينما الزورق يتأنّى:

- صديق.

مكتبة الفكر الجديد

- سرّ الليل؟

- ماء.

ثمّ جاء الردّ: "نار"، بمثابة الموافقة على دخول المجمّع القصبيّ السريّ.

حينئذٍ تبيّنوا شبح زورق ينفصل من مكمنه في غابة البردي المظلمة ويتحرّكُ مقترباً منهم وصاحبه المسلّح يتفرّس فيهم، لا بدّ أن يكون هو الحارس الخفر الذي سمح لهم بالمرور.

رسا زورقهم عند الجرف بإزاء الكوخ الأكبر الرئيس الذي يلمع من خصاص مدخله ضوء فانوس. خرج من الكوخ لملاقاتهم رجل في الثلاثين أسمر فارع مسلّح بمسدّس في حزام دشداشته. صافح الثلاثة وقال ليوسف مرحّباً:

- أهلاً بك رفيق فهد، أنا الرفيق إلياس.

عاد الملاّحان بالزورق إلى غياهب المياه وغابا في العتمة والدغل، فيما اصطحب إلياس رفيقه القادم الجديد إلى جوف الكوخ.

على ضوء الفانوس رأى يوسف شباباً مجتمعين وبين أيديهم أوراق وأقداح شاي، وفي الوسط موقد عليه إبريق.

وكان الكوخ واسعاً قياساً إلى حجم الأكواخ العاديّة التي ميّزها يوسف في طريق رحلته، ولعلّ مساحته أقرب إلى مساحة دار كبيرة. وقد بُنِيَ على أرض إيشان[١] بحزمٍ من القصب والبرديّ أما أرضه فمفروشة بالحصران والبسط، وفي جنباته أفرشة ومخدّات وعباءات وصناديق وقدور وصفائح تنك وعدول ومجاذيف ومغارف وشباك

---

١ إيشان: الجزيرة الطبيعيّة.

مكتبة الفكر الجديد

ورماح صيد، علاوة على أسلحة معلّقة ومركونة: بنادق سيمينوف[1] ومسدّسات في أجربتها، وأحزمة خراطيش الرصاص، ومن السقف المسودّ بسخام الموقد والفانوس تدلّت الخفافيش معلّقة غير آبهة بمن يشاركها مأواها من بني البشر.

هذا المقرّ هو المركز العسكريّ لتنظيم القيادة المركزيّة[2].

---

١ سيمينوف: نسبة إلى مخترعها الروسيّ سيمينوف، وهي بندقيّة نصف أوتوماتيكيّة تعود أصولها إلى الحرب العالميّة الثانية.

٢ القيادة المركزيّة: تنظيم شيوعيّ خرج على الحزب الشيوعيّ العراقيّ واتّخذ لنفسه نهجاً مغايراً في النضال، يعتمد أسلوب الكفاح المسلّح في المستنقعات لإسقاط الدولة البرجوازيّة العراقيّة وإقامة دولة دكتاتورية البروليتاريا على أنقاضها.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثاني والعشرون

ضجّة في بيت اللذّة

أضاء الصباح الغرفة التي لا يتبيّن المرء فيها ما يسترعي الانتباه إلاّ الكتب في خزانة تحتلّ الحائط المقابل للسرير، وصورة كبيرة لكارل ماركس مزجّجة ومعلّقة فوق الفراش، أمّا ماتبقّى من أثاث فلن يجد الإنسان إلاّ ما لا يمكن الاستغناء عنه، كدولاب الملابس والسرير والبساط والمروحة الكهربائيّة السقفيّة وكرسيّ، وطاولة في جوار الشبّاك عليها كوب ماء وأوراق وأقلام وكتاب مفتوح، لو ألقينا نظرة عليه لوجدناه الغريب لألبير كامو.

حين لا يستوفي علاّوي قسطه الكافي من النوم تفتر حيويّته وينتابه وهن وصداع في اليوم التالي، لذلك يسعى إلى البقاء في الفراش مستلقياً أطول فترة ممكنة، مغمضاً عينيه ونائياً بنفسه عن الحياة الواقعيّة، على رغم نداءات أمّه له مرّة ومرّة للقيام إلى الفطور ومن ثمّ التوجّه إلى المدرسة للالتحاق بصفّه السادس الثانويّ في ثانويّة البصرة للبنين.

مكتبة الفكر الجديد

كانت الشمس تلقي بأشعّتها القويّة في الغرفة عبر النافذة الواسعة العارية من الستائر، وكان الضحى قد ارتفع، وإذ يضحي الوقت كذلك يتولّى الإنسان شعورٌ بالملل، ويتملّكه إحساس بالفراغ إثر نهوضه من الفراش.

لم تكن لعلاّوي رغبة في رؤية أحد. بدا مستوحشاً كارهاً للناس وضائقاً بهم، ففي خاطره تتنامى أفكار مشؤومة، وأخيلة مظلمة ترود جدران عقله، وغدا ينظر إلى كلّ ما جرى له وما يجري على أنّه محض تفاهات، مجرّد لغو وأفعال لا فائدة منها، لا، لا يمكن القبول بكلّ ما تمليه إرادات الناس عليه، فأنظمتهم السائدة وأخلاقهم بؤرة من تسلّط وظلم واستغلال.

تراءى له العالم خرباً عفناً قبيحاً وقاسياً، لم يعد يعني له أيّ شيء. لقد أصبحت وطأته أثقل من أن تطاق. فهو مُذ رحلت فاتن عن هذه الدنيا الوحشيّة لا يملك بالفعل أن يواصل الحياة كما كان، وسيطر عليه صمتٌ كئيب.

برح الغرفة مكفهرّاً إلى الحوش، لا نأمة، لا صوت غير ما يترامى إليه من جلبة متنائية تفد من خارج الدار. أمّه في السوق كما يبدو، وأبوه يقتل وقته في مكانٍ ما.

دخل المطبخ وتناول من الثلاّجة لبناً وزيتوناً وجبناً وعروقاً من الريحان الطازج، وضع كلّ ذلك في الصينيّة مع خبزٍ حضّرته له أمّه، وكان إبريق الشاي لا يزال معبّأً على الطبّاخ، سخّنه وصبّ لنفسه قدحاً منه. تربّع على الحصير وأخذ يطعم ولكن بلا نفس على الأكل.

آب إلى غرفته بعد فراغه من فطوره، غيّر ثيابه ودسّ المسدّس في

مكتبة
الفكر الجديد

حزامه تحت القميص، ثمّ خرج من الدار وكلّه عزم على تحقيق ما يجول في خاطره.

وكان ذات يوم في غابة نخلٍ، في عمقها المنقطع عن العالم، قد تلقّى دروساً على استخدام المسدّس على يد يوسف، إبّان استغراقهما في حمّى التحضير للثورة العمّاليّة المسلّحة التي ستطيح بسلطة الطبقة البرجوازيّة وتقيم بدلاً منها دولة العمّال والفلاّحين.

شملته شمس الصباح فأخفض عينيه متفادياً أشعّتها الجامحة ودهمته الضجّة المنبعثة من السوق القريب، حيث محال الحدّادين والدهّانين ومصلّحي السيّارات وتجّار قطع الغيار والخردوات ومواد البناء والأدوات الصحيّة والكهربائيّة.

أغذّ علاّوي السير ميّمماً وجهه شطر شارع بشّار بن برد حتّى انتهى إليه. السيّارات تندفع بسرعة في ضجيج يطغى على كلّ الأصوات. الغبار يتراقص في الهواء ولا يهدأ. سابلة مهمومون يجرّون الخطى، وبعض راكبي الدرّاجات يسلكون الطريق. ولدى ناصية الشارع تكدّس نفرٌ في موقف للسيّارات يلتمسون مكاناً لهم في حافلاته الصغيرة المزيّنة بالرسوم والعبارات الشعبيّة والدينيّة.

واصل علاّوي سيره حتّى غدا سوق الجمعة إلى يمينه وبيوت المبغى إلى يساره، تنكّب عن الشارع وارتقى النهج الصاعد إليها.

دخل المبغى ومشى بين المنازل الشائخة في الزواريب الوعرة التي يشقّها مسيل من ماء صنابير الحمّامات والمطابخ.

من حينٍ لآخر يمرّ رجالٌ بدشاديش أو بملابس إفرنجيّة، في وجوههم المشوربة إثمّ وفي عيونهم ظلال قسوةٍ وريبة.

مكتبة الفكر الجديد

ونساء مزوّقات يذرعن الأزقّة، ينتعلن الأخفاف والمشّايات، متلفّعات بعباءات سود تقليديّة مفتوحة تسفر عن ملابسهنّ المغرية، ونظراتهنّ مصوّبة لمّاعة تشي بالإغواء والدعوة.

بلغ البيت الذي يعرفه جيّداً، والذي لا يميّزه شيء عن البيوت الأخرى: حيطان عالية كالأسوار، ميازيب معدن مهترئة تعاورتها غاشيات المطر، شبابيك خشب أكلها الغبار، قضبانها صدئة، وبوّابة خشب ثقيلة.

السماء الزرقاء صافية مضوّأة بنور الشمس، الظلال تفترش الجدران، ندف من غيومٍ معلّقة بأطراف الأفق، وطيور متفرّقة تحلّق مغادرة إلى مكانٍ ما.

وقف أمام الباب المغلق ودقّ المقرعة الحديد. فُتِحَ الباب فإذا إحدى البنات المتبرّجات تقف في فرجته، عليها مبذل بسيط يظهر محاسنها وأمارات أنوثتها.

لم تكن تتعدّى سنّ الرشد كما تنمّ على ذلك قسماتها.

- أين صاحبة الدار؟

قال علّاوي وتعابير الجدّ والرصانة تكسو وجهه.

- غير موجودة.

أجابته في ودٍّ ونعومةٍ وقد افترّ ثغرها عن ابتسامةٍ مشرقة.

- وتابعها؟

- كَنَش؟

- نعم.

- تعال معي.

مكتبة
الفكر الجديد

سار وراءها إلى الفناء فرأى بضعة أنفار مسترخين على أرائك مع نساء بثيابٍ تشفّ عن أفخاذهنّ وأثدائهنّ. أمامهم على طاولات خفيضة علب دخان ومناديل ورقيّة وأقداح، وصوت أغنية خافت ينطلق من الراديو.

تبع علاّوي البنت إلى الطابق الأعلى، فإذا هو في رواقٍ مفروشٍ بسجّادٍ تنهض على جانبٍ واحد منه حجرات بأبوابٍ مردودة، وعلى الجانبِ الآخر درابزين يشرف على فناء الدار.

انتهت البنت إلى حجرة تعرفها ولجتها ثم انقلبت راجعة وقالت لعلاّوي تفضّل من دون أن تزيح نظرها عنه.

اجتاز علاّوي الباب، حتّى إذا صار في الداخل صكّت الأسماع عدّة طلقات ناريّة هزّت البيت هزّاً. تعالى الصراخ وركض الرجال والنساء إلى خارج الدار هاربين لا يلوون على شيء.

أشاح علاّوي بوجهه عن جثّة كنش المدماة وفيّ يده المسدّس وفي عينيه ومضة انتصار. غادر الغرفة، هبط إلى أسفل، وتابع سبيله إلى الجادّة من دون أن يتعجّل الهرب.

انتشر الهلع بين السكّان وأخذوا يفرّون إلى جهاتٍ شتّى وفي ذاكرتهم صورة ذلك القاتلِ المهووس بقتل الغانيات الذي ظهر فجأة وانبرى يطلق النار على كلّ من يصادفه من الناس.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثالث والعشرون

عبر القصب والماء

عصراً وضوء الشمس يفتر في السماء والظلال تتطاول وحياة الماء لا تنفكّ مستغرقةً في نشاطها، تحرّكت أربعة زوارق تخفق مجاذيفها في الطرق المائيّة. كلّ زورق بثلاثة رفاقٍ مسلّحين ببنادق سيمينوف ومسدّسات وخناجر وبنادق صيد. انطلقوا يريدون أهدافاً لهم كانوا قد حدّدوها من قبل.

وكان يوسف في صحبة إلياس الوحيد الذي يحمل بندقية قصيرة الماسورة تدعى برنو ١٤ تمييزاً لها عن تلك الطويلة الماسورة المسمّاة برنو ١٧، اختارها لرشاقتها ومتانتها وسهولة التصويب فيها.

وكان الجميع يرتدون بزّات شرطة على اختلاف ضروبها، ما بين مفوّض وعريف ورأس عرفاء وشرطيّ عاديّ.

الزوارق تشقّ سبيلها في المياه الفسيحة المنبسطة على مدّ البصر، أو تمرّ خلال أنفاق القصب الـ"الكواهين"، وكانت تلتقي اتّفاقاً أسراب البجع التي تجفل وتطير مبتعدةً إلى داخل الأجمات نائية

مكتبة الفكر الجديد

بنفسها عن ذلك السرب البشريّ المفاجئ والمثير للأعصاب.

كانت تلك المفرزة من الرجال تتجنّب قدر الإمكان جمهرات الأكواخ وتجمّعات الصيّادين لعدم إثارة الانتباه، لكنّها كانت بالطبع تصادف في مسيرها نساءً ورجالاً يسعون في زوارقهم الموسقة بالقصب والبرديّ والجولان علفاً للجواميس ومادّةً لسفّ الحصران وبناء الأكواخ.

كانوا يخالسونهم النظرات، يلقون السلام عليهم ويمضون في سبيلهم.

في مفرق هور الغموكة – هور الحمّار، لدى قناة تشتدّ في مياهها أعشاب الشمبلان والكاط والكعيبة[1]، انفصلت الزوارق إلى مجموعتين وفق اتّفاق مسبق، وكان يقود الزورقين اللذين سلكا اتّجاهاً مغايراً رفيق آخر اسمه هِنْدال.

تقدّم الزورقان بقيادة إلياس في أعماقٍ فسيحةٍ لا متناهية من المياه تبلغ الأفق، وكانوا كلّما توغّلوا في هور الغموكة كثر القصب وتماسك في غاباتٍ مائيّة مؤلّفة مقاصب عظيمة تنتشر في مساحاتٍ واسعةٍ ممتدّة إلى مسافات بعيدة، حتّى إنّ العابر من خلال مسالكها ليشعر بأنّه معزول ومطوّق بجدرانها القصبيّة، كأنّه يلج تيهاً لا يسبر غوره وقد يبتلعه بعد وهلة، فإذا هو على حين غفلة يجد نفسه كرّةً أخرى في فضاء الماء المفتوح مفارقاً تلك العزلة الغابيّة، وريحٌ رخيّة

١ الشمبلان والكاط والكعيبة: تسميات عاميّة لثلاثة أنواع من زنابق الماء، فصيلة النيلوفريّات، الأوّل منها له عناقيد عشبيّة تحت مائيّة، فيما الآخران يورقان على سطح الماء بأوراق خضرٍ سميكةٍ تتوّجها وردة صفراء أو بيضاء.

مكتبة الفكر الجديد

تنسم عليه من الغمر الذي لا ضفاف له.

على الجزر القريبة منهم كانت خنازير سود ضخمة مشعرة تزعق خائفة، وتعدو هاربة من قطيع ضباعٍ هائج لجّ في مطاردتها فألقت بنفسها في الماء ثم اخترقت الدغل واختفتْ فيه، فظهرت على سطح الماء المتموّج ثعابين سود ضخمة فزعة شاردة من الضجّة والخراب اللذين أحدثتهما الحيوانات في حمّى كرّها وفرّها.

في الأعالي تجوز الفضاء أسرابٌ من الغرانيق، ولعلّها بدت الآن أشبه بغمامةٍ تقطع السماء حرّةً، ولكنّها في الحقيقة تبقى في مرمى بصر طائر الحوم[1] الذي سرعان ما ينقضّ على أحدها ساقطاً عليه من شاهقٍ كالحجر.

في الضفاف تقف طيور مالك الحزين تحدّق إلى الماء تراقب حركة الأسماك والضفادع وإلاّ فهي تروح تخطو في هدوء ووقار.

ألوان الغروب تشوب السماء فتتألّق نجمة هنا ونجمة هناك، وتتوهّج البطائح حتّى آخر المدى بوهج كالنار، بينما قرص الشمس يتشبّث بالأفق يائساً منحدراً ببطء وراء حافته المشتعلة والمعتمة في آنٍ واحد.

وكان في كلّ مرّة تعوق فيها انسياب الزورقين حشائش الماء المتكتّلة على السطح وفي القعر ينزل أحد الرجال إلى الغمر لتخليصهما وتحريرهما، شاقّين لهما سبيلاً خارج شبكة الأطراف النباتيّة المتشبّثة بهما.

بعيداً أو قريباً كانت تتلامع أضواء نيران مواقد وفوانيس أكواخ

---

١ الحوم: كلمة عاميّة تُطْلَق على نوعٍ من الكواسر أشبه بالنسر.

القصب التي ترقد على أطرافها الجواميس وينزوي داخل حضائرها البقر، وفي جنباتها يتسكّع الدجاج والبطّ، والكلاب لا تفتأ تزمجر وتنبح في عدوانيّة وشراسة كأنّها في حربٍ مع كلّ من يمرّ بها من غير أصحابها، وقتئذٍ يصلهم صوت يقظ حذر ومحذّر من داخل أحد الأكواخ:

- من هذا؟

- الحكومة[1].

يردّ إلياس.

رسوا لدى جزيرة تنمو في جروفها خميلة من أشجار الصفصاف والنخيل، وكان المساء قد هبط والسكينة عميقة والمنطقة منقطعة عن العالم.

إلياس يتقدّم رفاقه بزيّ ضابط شرطة، وكانت وجهتهم مخفراً متواضعاً للشرطة في هور (الغموكة) مبنيّاً بالطين والآجر، يرسو قبالته زورق وتبصّ من فرجة بابه ونوافذه أضواء الفوانيس، وفي أعلاه ينتأ علم نهكته الأنواء.

طرقت سمعهم صرخة آمرة:

- قف.

- ضابط شرطة الشطرة[2].

جأر إلياس فجاءه الردّ حماسيّاً مرحّباً:

- تفضّل سيّدي!

---

١ الحكومة: وتعني الشرطة لدى الريفيين.

٢ الشطرة: قضاء في مدينة الناصريّة في جنوب العراق.

- وأنت انزل إلى تحت!

- حاضر سيّدي.

هبط الشرطيّ المدجّج ببندقيّة كلاشنكوف إلى أسفل على درجٍ خشبيّ، أدّى التحيّة لإلياس في الوقت الذي ظهر فيه على الباب عريف المخفر ودعاهم ما إن رآهم إلى الدخول مهلّلاً ومحتفياً بهم بنبرة رهبةٍ وتذلّل.

دخلوا فطالعهم شرطيّان آخران جالسان على الأرض يحتسيان الشاي ويدخّنان، ما عتما أن سحقا سيجارتيهما في المنفضة وقاما يؤدّيان التحيّة للضابط إلياس.

- أين بقيّة الشرطة؟ سأل إلياس عريف المخفر.

- ها نحن الأربعة هنا فقط سيّدي.

- اجمعوا الأسلحة كلّها أمامي لفحصها قبل المباشرة بدوريّة خاصّة هذه الليلة.

- حاضر سيّدي.

وكانت الشكوك قد ساورت رجال الشرطة غير أنّهم انقادوا للأمر ما عدا واحدًا تظاهر بالطاعة وأخفى في سريرته أمراً، فدخل دورة المياه محتجّاً بقضاء حاجته، ثمّ تسلّل من نافذة فيها إلى الخارج واختفى في الأحراج، ولم يفطن الرفاق لاختفائه إلاّ بعد وقتٍ كان كافياً ليذوب في الظلام.

آنئذٍ سحب إلياس مسدّسه وأمر الشرطة بالاستسلام.

أوثقوهم بالقيود الحديديّة والحبال المتوفّرة في المشجب. كمّموهم ونقلوا الأسلحة والمؤن إلى الزورق الخاصّ بالمخفر،

مكتبة الفكر الجديد

وهتف إلياس وسط ذهول الشرطة واستغرابهم:

- عاشت الثورة، عاش تحالف العمّال والفلاّحين، المجد للطبقة العاملة، النصر للشيوعيّة، ولتسقط السلطة البرجوازيّة الغاشمة.

ثمّ تمّ تكليف يوسف بقيادة الزورق المحمّل بالأسلحة والعتاد والخبز وعلب الدخان وعدول الحبوب وصناديق المعلّبات والحلويّات.

عقب مفارقتهم المنطقة بوقتٍ قليل وصل إلى مسمعهم فجأة من بين أصوات الأدغال هدير محرّك يدنو ويعلو رويداً رويداً. تريّثوا وهم يصيخون السمع منشدّين إلى الصوت فخطف أبصارهم ضوء لامع بدّد العتمة من بين البردي، فإذا هي دوريّة للشرطة على متن مركبٍ آلي يضيء مقدمه مصباح الأسيتلين.

لم يتسنّ لإلياس ورفقائه الوقت الكافي لتفادي ذلك الموقف المزعج. تبادلوا التحيّات ولكنّ الدهش تولّى رجال الدوريّة لجهلهم بوجود دوريّة أخرى، فضلاً عن أنّهم لم يسبق لهم أن عرفوا أحداً من طاقمها من قبل أو رأوه في الأقلّ، مع ذلك استأنفوا طوافهم في قلب الظلام.

راود الرفاق القلق وخامرتهم غريزة الحذر وحاسّة الحسابات والتوقّعات، فالدوريّة ستستفسر لاسلكيّاً من مركزها عن وجودهم الغريب، أضف إلى ذلك أنّ أحد أفراد المخفر قد أفلت من أيديهم، لذا أجمعوا بعد تبادلٍ سريعٍ للرأي على الابتعاد عن موطن الخطر، وتأجيل العمليّة التالية إلى وقتٍ لاحقٍ، والعودة إلى المقرّ طلباً للأمان.

وكان الهَدْء الأوّل من الليل يعمّ المياه والأدغال، وكانت معرفة

مكتبة الفكر الجديد

إلياس بالطرق المائيّة في المستنقعات وخبرته بجغرافيتها تقودهم عبر المسالك علاوة على استعانته بالنجوم، فهو قد قضى ردحاً من عمره متاحاً في الأهوار.

في تلك الأثناء ارتجف الهواء وطفق النسم يقوى، وشرعت الريح تغزل وتدور مصفّرة خلال غابة البرديّ. علا الغمر وماج، تأرجحت الزوارق وصار الماء يطول حافاتها، وناءت الكواكب متوجّسة من التحوّل الطارئ في الجوّ. ففي لحظة في هاتيك البطائح يتغيّر مزاج الهواء، تضطرب المقاصب، يختلج الماء وتشيع في الأمداء إشارات تغيّر في المناخ لايلبث أن يشمل الأغوار بأجمعها.

أمسى من العسير مواصلة السير وإلاّ انقلبت الزوارق وغرقت. تدفّقت الرياح بعنف، تلاحقت نفثاتها واشتدّ زفيفها. فهاهو نذير عاصفة طالما حطّمت الزوارق ودمّرت الأكواخ ومزّقت الشباك وأغرقت حقول الرزّ وقصب السكّر والحنطة والشعير والبرسيم. قرّر إلياس اللجوء إلى جوف غيضة البرديّ التي يزيد ارتفاعها على ثلاثة أمتار واللوذ بسواترها حتّى ينحسر غضب الطبيعة.

التمسوا مسالك داخل الغيضة واندسّوا متستّرين بحجاباتها، وكان الماء يخفق ويمور والزوارق تهتزّ فيكبح الحاجز القصبيّ انقلابها، ومكثوا يحافظون على استقرار الزوارق منتظرين هدوء السماء.

فكانوا يتشبّثون بالبرديّ المرتجّ في مهبّ الرياح العاصفة المدوّية عبر المسافات، مترنّحين على خضمّ أمواه تتلاحق على سطحها الأمواج.

لبثوا ما يقرب الساعة حتّى خفّت حدّة الزوبعة، بيد أنّ السماء لم

مكتبة
الفكر الجديد

تنجلِ تماماً والهواء لم يكفّ عن الهبوب كليّاً، مع ذلك عزموا على المواصلة، وكان الظلام حالكاً والممرات المتنافذة قاتمة وحركة الأحراج والبرديّ تعوق معرفة الجهات على نحوٍ مريح، والمياه العالية تدفع الزوارق من جانبٍ إلى آخر. وبعد استئناف المسير بوقتٍ قليل ضلّ إلياس الطريق في خضمّ الحلكة والمناخ القلق، ولم ينتبه لخطئه إلاّ بعد حين، مما حملهم على العودة راجعين من حيث أتوا معتزمين التأنّي حتّى استقرار الطقس فعليّاً. بعد ساعة أخرى تابعوا إبحارهم، وبينما هم يجذّفون في غمرة الظلام خُيّل إليهم أن جلبة محرّكات آلية قد بلغت أسماعهم فتوجّسوا خيفة من كمينٍ للشرطة. طلب إليهم إلياس التريّث حتّى يستطلع جليّة الأمر في النواحي من حولهم.

بعد غيابٍ دام بعض الوقت عاد أدراجه وقال لهم إنّ الهور يعجّ برجال الشرطة وأنّ مراكبهم تجوب البطائح وتكمن في الأجمات ومنعطفات الطرق المائيّة، لذا عقدوا النيّة على تغيير مسارهم وسلوك طريق آخر يقودهم عبر هور الحمّار إلى تخوم نائية ثمّ يعود بهم إلى هور الغموكة.

قصدوا هور الحمّار، وبعد إبحارٍ ليليّ طويل بدأت خيول الظلام تتراجع حيال بشائر النور الشرقيّ.

شقشق الفجر وتنفّست السماء الداكنة الزرقة، وفاض الأفق بضوءٍ أحمر ذهبيّ بانت معه حافة الكون البنفسجيّة كأنّها تتوهّج ناراً أشعلت صفحات المياه وذؤابات غابات القصب بقبسٍ منها، ما نَشَبَ أن أشاع الحرارة في الحياة المائيّة المبتلّة بندى الليل فاستيقظت مبتهجة.

مكتبة الفكر الجديد

بعد هنيهات طلعت الشمس مشرقة فضحك الصبح..

قرّر إلياس ورفاقه الاختباء في مخبأ آمنٍ حتّى المساء تستّراً وتحاشياً من المفاجآت ومراقبة الموقف عن كثب، فلعلّ الملاحة في النهار تخفي في مفازاتها خطراً غير متوقّع، ولمّا لم يجدوا جزيرةً خالية يركنون إليها وفدوا على أجمةٍ محتشدة بالقصب، ولجوها ومضوا يندسّون فيها شاقّين طريقهم بين قصبها المتضام ما استطاعت الزوارق النفاذ بين الفرجات، إلى أن اختاروا فسحةً آمنةً مسوّرةً بسورٍ من القصب طبيعيّ يحجبهم فيتعذّر معه اكتشافهم فاستقرّوا فيها. بالاضافة إلى ذلك فضّل إلياس التماساً للحذر أن يقوم أحد الزوارق بأعمال الحراسة والاستطلاع كلّ ساعتين.

استلقى يوسف في زورقه. داعب النوم جفنيه وما هي إلاّ أن راح في إغفاءةٍ شأنه شأن بقيّة رفاقه الذين أغفوا قابعين في أماكنهم من شدّة السهر والتعب.

خفقت أسراب البجع والنوارس واللقالق في السماء، واكتظّت المقاصب بالعصافير والزرازير، عامت على المياه في خفّة ورقّة طيور الإوزّ والبطّ، وملأ الأحراج البعوض يئزّ ويهوّم.

وفي المياه انزلقت بين عناقيد الورد المائيّ وأغصان زهرة النيل أسماك (الحِمْري والصبور والشانك والقطّان والبنّي).

وشردت النموس عبر الجزر من هجمات بنات آوى، بينما القطط الوحشيّة تراقب الوضع متحفّزة تتحيّن الفرص للانقضاض والافتراس.

وعلى الضفاف الطينيّة المنقوشة بالأشنات وجذاذات القصب

مكتبة الفكر الجديد

والديدان وأوراق النباتات المائيّة المُقْتَلَعة والضفادع الظريفة والجمبريّات الحذرة والسلاحف الكسلى، راحت جمهرة من طيور مالك الحزين تخطو متوانية تمعن النظر في صقال الماء علّها تلتقط بمناقيرها سمكةً غافلة أو ضفدعةً ساهية.

على سعف النخيل تقف طيور الرفراف والهداهد مستغرقة في اكتشاف المياه دونها، تقلّب النظر في مظانها، حتّى إذا حدست بما يسري تحتها انقضّت وغاصت وما تركت الماء إلاّ وسمكة تختضّ بين مناقيرها.

تختلج المستنقعات بخلجات صراعٍ دائم محتدمٍ بين حيوات الغاب، يعروها خفق سريع وعنيف يشيعُ نبضَ الديمومة والتحوّل والخلود.

تألّقت الشمس في آفاق الكون وتدفّقت الأشعة في السماء، فبهت أزرقها وقد شابَهُ البياض وكاد يضيع في لألاء الضوء.

كان الرفقاء أثناء استيقاظهم قليلاً ما يتبادلون الحديث، يرهفون السمع ويمدّون البصر، يفضّلون التفاهم بالإشارات ويترفّقون في حركتهم، عدا زورق الحراسة الذي لا يمكث يستطلع النواحي ويستقصي الأمداء.

وعلى مقربةٍ منهم بحذاء أستار القصب كانت تنتهي إليهم أصوات الناس المنحدرين بزوارقهم، من صيّادي سمك وتجّار وعابرين ومسافرين ونساء يقدن زوارق ملأى بالجولان المقصوص.

غير أنّهم بالكاد كانوا مرئيين من خلال حجب القصب فلا يفطن لهم أحد، وحتّى إذا اتّفق أن لمحهم عابر ما شاءت المصادفة أن يدنو

مكتبة الفكر الجديد

منهم فسيرميهم بنظرةٍ فضوليّة ثمّ يشيح ببصره عنهم، لأنّ زيّ الشرطة سيردعه من أن يقبل عليهم رجاء الاطلاع والاستفهام، فأهل الأهوار حذرون بطبعهم، متوجّسون ودقيقو الملاحظة والانتباه، يحترمون رجال الدولة، يخشونهم ويتجنّبون الاقتراب منهم درءاً للمصيبة وبعداً من البلوى. مضى النهار ما بين استلقاء وغفلة وانتباه واستطلاعٍ ومدّ سمعٍ وإجالة نظر وتململ إلى أن أخذ الضوء ينحسر عن المياه، يرتفع، يرقى هامات غابات البرديّ والقصب فيبلغ ذوائبها. كانت الشمس تفتر والأشعّة تبهت والظلال تطول، تكبر وتمتدّ. الغسق يمدّ رواقه فيشتدّ لون السماء الأزرق، يمسي ضارباً إلى الدكنة. الأفق يشبّ بنار الغروب فتتوهّج آماد المياه وأطراف الأحراج بأشعّة الشمس المتخافتة الهابطة إلى مخدعها، وتبتسم نجمة ثمّ نجمة ثمّ نجوم. يحلّ الظلام وتتلامع أضوء الفوانيس المعلّقة على قياديم الزوارق السارية بين المقاصب أو تلك المنسلّة من فتحات الأكواخ المنتشرة بين أدغال المستنقعات.

يملأ نقيق الضفادع وصرير الزيزان سكون المساء، وتتوالى ضجّة الأحراج من زئير وعويل وفحيح وصراخ وصفير ونداء، فيترامى من عمق الغاب ضباح ضباع وعواء ثعالب وذئاب ويسري في الفضاء زعيق أوزّ طائر له نغمة بوق نحاسيّ.

فتضيع في ذيّاك المهرجان الصاخب خشخشة نباتات الدغل عند انسلال الزواحف والسلاحف والفئران والقنافذ.

تحتدم حياة الأدغال الليليّة ما بين تناسلٍ ولعبٍ ومطاردةٍ وافتراسٍ ونومٍ وولادة وموتٍ وضحكٍ وبكاء غافلة عمّا عداها من صراع

مكتبة الفكر الجديد

ضارٍ بين بني البشر الذين لا ينفكّون بين لحظة وأخرى عن الالتفات إليها والعبث بممالكها المائيّة النباتيّة وتدميرها، إشباعاً لرغباتهم وأطماعهم وإرضاءً للشرّ الذي يعتمل في نفوسهم.

واصل الرفقاء رحلتهم في هور الحمّار في الظلام مبتعدين من أماكن الصيّادين وتجمّعات القرى التزاماً للحذر، حتّى ألمّوا بالقناة العريضة التي تصل هور الحمّار بهور الغموكة، عند مرقد فوادة[1]، على مقربة من بلدة الإصلاح. وكان زورق يوسف يتبع الزورقين مثقلاً بما غنموه من عتاد ومؤن وسلاح.

على ضفتي المسرى المائيّ الشبيه بنهرٍ كبير يرتفع الغاب ويجثم ظلام ثقيل مهدّد وصمت غريب لا يشي بالطمأنينة. في الفضاء رائحة خطر وفي الضفاف بوادر مفاجأة.

صكّ أسماعهم فجأة هتاف انبجس من جوف الضفة المظلمة:

– قفوا! من أنتم؟

– شرطة.

تعالى جواب إلياس من الزورق المتقدّم بقيادته.

– تقدّم باتجاهنا!

جاءهم الهتاف مرةً أخرى.

ثمّ انبثق ضوءٌ ساطعٌ صادرٌ من سيّارةٍ كامنة عند الجرف بدّد الظلام من حول الزورقين الأماميين وكشفهما تماماً، بينما بقي يوسف في العتمة خارج دائرة الأنوار وقد أدرك أنّهم وقعوا في كمين لا مجال للمناورة فيه، فيما أنشأ مركب كبير يقترب منهم مسلّطاً نوره الكاشف

١ فوادة: وليّ محليّ يقدّسه أهل الهور الشيعة، وقد صار قبره مزاراً.

مكتبة الفكر الجديد

عليهم، فأطلق الرفاق جميعاً النار على المركب والسيّارة. انبرى حينذاك رجال الشرطة يصلونهم ناراً حاميةً من كلّ حدبٍ وصوب، فحصد الرصاص للفور ثلاثة رفاق، ورأى يوسف في ما يرى النائم أن إلياس والرفيق الوحيد المتبقّي معه قد رفعا أيديهما مستسلمين، لكنّ أفراد الشرطة آثروا عدم التوقّف فأردوا إلياس في الحال على حين ألقى الآخر بنفسه في الماء وجعل يسبح صوب الضفة حيث كان الشرطيون بانتظاره. وقف يوسف في زورقه منحنياً وغرز قضيب البرديّ في القاع ودفع الزورق إلى وراء منسحباً به بعيداً من الخطر ابتغاء التسلّل إلى أرض آمنه، بينما صياح الشرطة يبلغ مسمعه:

- هناك قارب ثالث، أدركوه!

تحرّك المركب الآليّ باتجاهه وأشعّة نوره تشقّ العتمة في ضوءٍ مبهرٍ بدا مهرجانيّاً في الليل المطبق على المستنقعات. جذّف يوسف بأقصى طاقته نحو الضفة الدانية منه، أرسى زورقه، حمل بندقيّته بيده وألقى بنفسه إلى الطين، ثمّ ركض مندفعاً غائصاً في الظلام على غير هدى حتّى أمسى بعيداً نسبياً، وحين وقف يستردّ أنفاسه ويرهف سمعه لم يطرق أذنيه صوت غير نقيق الضفادع وصرير صرّار الليل.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الرابع والعشرون

تحت الغمر، في الأعماق الدامسة

غادر علاّوي الدار في مبغى شارع بشّار بن برد بخطاه المتئدة الظالعة. لم يكن مضطرباً ولا خائفاً بل على العكس أصبح أدنى إلى الاستقرار روحيّاً، وأضحى مغموراً بالسعادة لأنّه حقّق ما يصبو إليه من عدالة كانت قد شغلت باله عن كلّ شيءٍ آخر، وهي قصارى ما يعوز البشر لكي ينجوا من بعضهم بعضاً. هل اتّخذ موقف القاضي؟ لقد كان مجبراً على ذلك وإلاّ فدم فاتن سيذهب هدراً. وكان قد أعمل فكره مليّاً في هذا الأمر، ولا بدّ مما ليس منه بدّ، ولم يكن يفيء إلى فكرة الثأر لموت فاتن فقط، وإن كانت فكرة قبليّة ولكنّها ضروريّة لوضع الحقّ في نصابه في الغابة الطبقيّة التي يفترس فيها الغنيّ الفقير، وإنّما أيضاً إلى فكرة الاقتصاص من العنصر الشرير الاستغلاليّ لدى بعض البشر من حثالة البروليتاريا كما ينزع إلى تصنيفهم هو ورفيقه الشيوعيّ المتطرّف يوسف.

إنّ الظلم اليوميّ الذي يحيق بالناس ويوقعه الناس بالناس ليدفعه

مكتبة الفكر الجديد

إلى اليأس من صلاح المجتمع، وإنّ ما قام به ليس غير وضع اللبنة الأولى للثورة على الأوضاع السائدة وفي مقدّمها استغلال المرأة واضطهادها.

كان علاّوي قد قصد الناحية الأخرى القصيّة من شارع بشّار بن برد، فصار يطوف في الأزقّة سالكاً سبلاً لا يعرفها إلاّ من خبر مداخل المنطقة ومخارجها، وذهب يسير على رسله متنعّماً بالهدوء تحت الشناشيل[1] وفي صحبة الظلال الرخيّة غير شاعر إلاّ بغبطةٍ تشمل أعطافه، ذلك أن فاتن سترقد الآن مرتاحة ولن يداخل الأسى روحها، ولن يلازم طيفها القلق، وهو وإن كان يأبى أن يرى الحال على علّتها الميتافيزيقيّة إلاّ أنّ تصوّر تلك الحال على وجهها الأدبيّ والعاطفيّ لن يضيره في شيء، بذلك ماعادت فاتن بشراً وإنما هي ملاك يحيا معه، يصحبه ويأنس إليه.

ولم يحصل أن كان من قبل مالكاً لنفسه كما هو عليه الآن، فاليأس الذي أصابه عقب إعدام حبيبته فاتن جعل قلبه ميتاً.

بلغ ناصية الشارع العام المؤدّي إلى حيّ العشّار. أشار إلى سيّارة أجرة، ألقته بعد حين في مدخل كورنيش شطّ العرب على مقربة من تمثال الشاعر بدر شاكر السيّاب.

الوقت يدنو من الهاجرة. على المويجات لألاء، وأفياء أشجار متمازجة تفترش طوار الكورنيش. مرور السيّارات متقطّع، وحركة السابلة قليلة، بينهم عدد من طلاّب جامعة البصرة[2].

---

١ الشناشيل: الشرفات الخشبيّة وهي المشربيّات في الدارجة المصريّة.

٢ تقع جامعة البصرة في ناحية التنّومة، في الضفة الشرقيّة من شطّ العرب.

مكتبة الفكر الجديد

بلغ علاّوي الموقف الخاصّ بالعبّارة التي تنقل الناس مجّاناً عبر الشطّ جيئةً وذهاباً، والتي يستقلّها الطلاّب دائماً. وهي فسيحة مظلّلة يقوم في مقدّمها برج للقيادة والتحكّم، ويسوّرها حاجز يجذب الركّاب فيتّكئون عليه، يتجاذبون أطراف الحديث أو يرمون بأبصارهم إلى الشطّ يتأمّلون الماء المتلألئ والمراكب الراسية فيه، من شراعيّة خشبيّة وافدة من الهند إلى نفطيّة عملاقة ترود المحيطات.

استقلّ علاّوي متن العبّارة وكان فيها نفر من الطلاّب والطالبات، فانتحى ركناً مستوحداً بنفسه مشيحاً بوجهه عن الركاب الذين لم يلقوا إليه بالاً، حتّى إذا بلغت العبّارة منتصف الشطّ تجاوز الحاجز في عسرٍ وألقى بنفسه في الماء.

غطّ مرّة واحدة مثل صخرة، ولم تجذب تلك القفزة انتباه أحد عدا إحدى الطالبات التي استغربت حين لمحتها وأخذها الذهول، فقالت لصديقها وهي تشير إلى مكان ما لم تحسن تعيينه بالضبط:

– كأنّني رأيت أحدهم يرمي بنفسه إلى الماء.

– أين؟

تساءل صاحبها.

فأشارت بيدها إلى جهةٍ تقريبيّة لم تملك تحديدها على وجهٍ صحيح، فالعبّارة تتراءى لراكبها حين تمخر الشطّ كأنّها تدور فيه، وقالت: هناك.

على أنّ كلمة هناك بانت بلا حدود، تشمل الشطّ بمجمله. وكانت العبّارة وقتذاك قد تخطّت المكان مندفعة في طريقها موغلة في سبيلها. أمّا الطالبان فلبثا يتفحّصان الشطّ في دهشٍ وترقّب لعلّ

مكتبة
الفكر الجديد

ذلك الإنسان يظهر على سطحه عائماً يسبح، إذما أخذتهما الظنون إلى أنّه على درايةٍ ما بالسباحة، وما قفزته إلى الماء تلك إلاّ مجرّد نزوةٍ لا أكثر. بينما العبّارة تبتعد غير آبهة، تبحر في مسراها نحو وجهتها ولا شاغل يشغلها. في تلك الظهيرة الهادئة التي تشبه غيرها في ما مرّ ويمرّ من أيّام كان الهواء واجماً حارّاً يبعث على السأم ومويجات الشطّ تتعانق في طيّات تتلوها طيّات إلى الأبد، مترعة بأشعّة الشمس المتألّقة على ثناياها.

وكان هناك تحت الغمر في الأعماق الدامسة والصمت المسحور، وفي شعاب الخلجان وحلكة المجهول السادر في هوّة الأبد، يغوص جسم علاّوي، يسري مع كائنات الشطّ ومخلوقاته، يتراقص متقلّباً مختنقاً متموّجاً، تدفعه تيّارات المياه، تسحبه إلى ذلك العالم البعيد الأمين الساكن، تجذبه إلى طين القاع، تحتضنه ماضية به جثّةً شملتها الرحمة حتّى ذابت فيها وامتزجت بها. غدت روح علاّوي نغمةً من إيقاع الشطّ، جزءاً من روحه، من طينه ومائه. صار علاّوي بعضًا من خلاص.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الخامس والعشرون

التيه

جفلت الحيوانات هاربةً من وكناتها وجحورها إبّان المعركة، فتلك اللقالق والغرانيق تفرش أجنحتها البيض الكبيرة وتحلّق عالياً نائيةً بنفسها عن الجلبة المفزعة والمفاجئة، وهاهي طيور البجع والبطّ والإوزّ والغاق تطوف في قلقٍ فوق أمداء المستنقعات هائمة على وجهها كأنّها أضاعت الطريق.

انكفأت القطط الوحشيّة والنموس والذئاب في الأجمات ناظرةً في ريبةٍ إلى ما يحيط بها، وتسلّلت بنات آوى إلى داخل المقاصب خائفات متحفّزات قاصدات مآوي آمنة. ودبّت الخنازير داخل الأحراج ترتعد وتنصت إلى كلّ نأمةٍ في الجوار.

صمّم يوسف على المسير قدماً على الرغم من شعوره بالإعياء والجوع، متوغّلاً في الظلام سادراً في التيه، إذ لا بدّ من بلوغ ملاذاتٍ بعيدةٍ من موطن الخطر على قدر إمكانه.

ولطالما أعاقت تجمّعات الشوك والعاقول خطواته. الأرض تغرق

مكتبة الفكر الجديد

في الظلام، وعرة وغامضة، في طيّاتها أشجار نخيل ودغل. كم يبدو موحشاً هذا العالم في غمرة الهرب والضياع، غير أنّ تلك البقاع مهما تبدّت فارغة لا تعدم وجود بشرٍ في نحوٍ من أنحائها، لوفرة الصيد والمرعى والعلف والاستئناس بسكنى اليابسة بين المسطّحات المائيّة الشاسعة.

هاهو يشرف على الماء من جديد. أنعم النظر في ما حواليه مصيخاً السمع لكلّ حسٍّ وحركة، فلمح عن بعدٍ شبح كوخٍ أو لعلّهما كوخان.. لا، بل هما كوخ وحظيرة.

وطّن النفس على التسلّل لخطف الزورق الراسي على مبعدةٍ يسيرةٍ من الكوخ، تملّكته تلك الرغبة وسعى إلى تحقيقها بأيّ ثمن رجاء العودة إلى مركز التنظيم: النقطة التي انطلقوا منها. وكان أخشى ما يخشاه أن تفطن الكلاب إليه فتهاجمه وتفضحه بنباحها بل سينقضّ عليه صاحبها أيضاً.

تقدّم بهدوء نحو الزورق حتّى إذا بات على مقربةٍ منه اعترضه كلب ضخم ضارٍ برز من جوف الظلام يزأر. جمدَ يوسف في مكانه هنيهة حائراً يرمق الكلب ويصوّب بندقيّته إلى رأسه، وماكاد يخطو خطوةً جديدةً حتّى نبح الكلب نباحاً مسعوراً وحشيّاً وتحفّز للانقضاض عليه. تجاهله يوسف وتحرّك صوب الزورق، فهاج الكلب ولجّ في قطع الطريق عليه مقترباً منه اقتراباً شديداً مواصلاً نباحه الفظيع ومكشّراً عن أنيابه.

بلغ مسمع يوسف آنذاك صوت رجلٍ يعلو من داخل الكوخ:

- من ذاك؟

مكتبة الفكر الجديد

حسم يوسف أمره، فإما الفوز بالزورق وإمّا السقوط بين أنياب الكلب أو الأسر. أطلق النار على الكلب فعوى وسقط هامداً. عبّأ بيت النار برصاصة جديدة حاشداً طاقته لمعالجة أيّة مفاجأة تواجهه بقسوةٍ وسرعة، فإذا الصيّاد ينطلق خارجًا من كوخه راكضاً وصائحاً:

- قف! من أنت؟ ارمِ سلاحك!

إلاّ أنّ يوسف لم يأبهَ له وهرع نحو الزورق. دوّى إطلاق نار وحفّته رصاصة، كانت تحذيريّة على الأرجح.

سدّد نحو الصيّاد وردّ عليه برصاصةٍ واحدة.

صرخ الرجل وهوى في الظلام، واندفعت من الكوخ امرأة تصرخ وسُمِعَ بكاء أطفال.

وثب يوسف إلى الزورق، علّق البندقيّة على كتفه وتناول القصبة الملقاة في الجوف، غرزها في الجرف الطينيّ وانسحب مبتعداً شاقّاً طريقه في الماء رويداً وعلى غير هدى، وصراخ استغاثة وعويل تفجّع يتأدّى إليه، حتّى إذا انقطع الصوت عنه شعر بأنّه حرّ لكنّه يائس وحزين، تعس وضميره مثقل بندم لا فكاك منه.

ذهب يجذّف في غياهب المياه المعتمة اللامتناهية مخترقاً ممرّات القصب والجاً غابات البرديّ إلى أن انتهى إلى ناحيةٍ لا أثر لبشرٍ فيها، لا أكواخ ولا زوارق، لاحضائر ولا جواميس ولا نباح كلابِ حراسة، إلاّ نداءات حيوات الغاب وأنفاس المياه. أزمع على التريّث. ترك المجذاف وقعد.

وضع رأسه بين يديه غارقاً في سهوم عميق، لا يخطر له إلاّ ما فعله وما جرى له وما آل إليه وضعه، لا يدريّ أأصاب أم أخطا، أم كان عليه

مكتبة الفكر الجديد

أن يسلك سلوكاً آخر غير العنف؟ كأنّ الهلع قد استولى عليه فأفقده صوابه، ثمّ شرع يقول في سرّه: "ما بالي أطلقت النار على صيّاد وسرقت زورقه وقطعت رزق أطفاله وامرأته؟ أأنا ثوريّ، أنا لست كذلك، أنا مجرم وقاطع طريق لا أكثر".

ثمّ أجهش في البكاء، ولمّا تملّكه التعب والهمّ استسلم لغاشية النوم، ولم يستيقظ إلاّ على تغريد بلابل القصب وزعيق الإوزّ والنوارس ونداءات الصيّادين العابرين يسلّم بعضهم على بعض.

العالم يتمطّى، الفجر يتنفّس، والضوء يرتفع من الشرق.

تقدّم يوسف في مدارج المياه النهاريّة غير آبه لشيء، فلقد ملّ الحذر وضجر من التنقّل في عماء المستنقعات، ولعلّ الأسى حمله على اللامبالاة وعدم الاكتراث. التقى صيّاداً عابراً على زورق فسأله أين الطريق إلى مضارب بني سعد فدلّه وأفهمه أنّ الملاحة إلى بني سعد تستغرق نحو ساعتين في الأقل. شكره يوسف واستأنف رحلته، وكان يضلّ الاتجاه بين الفينة والفينة، فتراه يعود إلى الوراء تارةً وينحرف إلى الشرق تارةً أخرى، يندفع إلى الغرب مرّةً ويدور في دائرةٍ واحدةٍ طوراً. متخبّطاً في أمداء المياه بين المقاصب وتجمّعات القرى ومصائد السمك مايقارب أربع ساعات، إلى أن ارتفع النهار وتسنّمت الشمس ظهر السماء.

حين بلغ مقرّ التنظيم المركزيّ طالعه دمار ناتج عن حريقٍ هائل عصف بالمكان، لا أكواخ ولا زوارق ولا بشر فكلّ شيء رماد، وكلّ ما يعرفه قد أتت عليه النيران ولم يبق منه إلاّ نواتئ متفحّمة، كما أنّ النيران قد طاولت أجزاء من غابة القصب المحيطة بمجمّع المنظّمة السريّة.

مكتبة الفكر الجديد

وكانت بقايا ملابس وأفرشة وصناديق خشب وأوراق ومجاذيف محترقة منتشرة طافية على وجه الغمر، فلا يستروح المرء في ذلك الخراب إلاّ رائحة الفناء والموت تنبعث من تلك المرمدة الكبيرة التي تشير إلى أنّ الثورة قد انتهت إلى هزيمةٍ كاملة وهي لمّا تزل وليداً في مهدها.

كان الضحى قد ارتفع حين انقلب يوسف بزورقه عائداً من حيث أتى منتهزاً أيّة فرصة متاحة لسؤال أيّ عابر سبيل عمّا جرى، عازماً على معرفة حقيقة ما حدث في الآونة الأخيرة.

أبصر يوسف امرأة تقود زورقاً محمّلاً بحزم القصب الطري والجولان، دنا منها وسألها بعد السلام عليها:

- أنا قادم من إجازتي للتوّ، وكان هذا الحيّ عامراً وهو محترق الآن، ماذا حصل في بني سعد؟

- ألست شرطياً؟

- بلى.

- إذًا فلا بدّ أن تكون على بيّنة مما جرى.

- قلت لكِ كنت مجازاً؟

- جاءت الشرطة البارحة وقضت على جماعة من العصاة يتزعّمهم رجل اسمه هندال.

- أقتلوا جميعاً؟

- بعضهم أسر والآخر قُتِل.

- وهندال؟

- الله يرحمه، وأنت من أيّ مخفر؟

مكتبة الفكر الجديد

- ناحية الإصلاح.

- أذاهب إلى هناك؟

- نعم.

- ولكنّها بعيدة جداً من هنا، لماذا لاتتجه إلى الدوّاية فهي أقرب إليك ثمّ تأخذ سيّارة إلى الإصلاح؟

- لا، سأقوم بزيارة بعض المعارف قرب فوادة.

ويوسف لا يجروْ على طرق نواحي الدوّاية خشية تواجد رجال الشرطة فيها.

ولمّا كان الإجهاد قد غلب عليه وأورثه الجوع ألماً شديداً سأل المرأة شيئاً من الطعام، فسارعت إلى فتح صرّة كانت بين رجليها وقطعت بعضاً من خبز الطابق[1] والجبن، ثمّ أعادت لفّ الصرّة وأعطته إيّاها.

وكان يوسف قد حاذى زورقها حافةً لحافة.

- شويّة لكَ وشويّة لي، بالعافية.

قالت له.

- شكراً، الله يعافيكِ.

- أستودعكَ الله.

- مع السلامة.

ثمّ تابعت رحلتها تجذّف كأنّها أوزة تسبح على سطح الماء.

انتحى يوسف جانباً من المقصبة وأخذ يطعم ما عنده من زاد.

السماء مجلوّة تنحني عليه وأسراب من الطيور تعبرها مثل الغيوم:

---

١ الطابق: خبز من الرزّ مألوف في الأهوار، ولا يعرفه أهل المدن.

مكتبة الفكر الجديد

أوزّ ولقالق وغرانيق وبجع.

فضّل في طريق عودته اجتناب الربض الذي ارتكب فيه جريمته لئلاّ يتعرّف أحد الزورق المسروق، لذا سلك في خطّ سيره مساراً آخر دائراً خارج المجالات المائيّة التي وفد منها، وطفق يبحر بزورقه ردحاً من الزمن حتّى خيّل إليه أنّه قد ضل الطريق، وكان قد أضاعه بالفعل، كان يذهب ويجيء في دوائر متماثلة من مساحات مياه وأجمات وممرّات قصب.

ساعات النهار تنقضي وبنفسج الغسق يكسو السماء. الغروب ينشر أجنحته والشمس تتراجع وراء الأفق منسحبة تجرّ وراءها نوراً ليلكيّاً فاتناً وحزيناً.

أرخى المساء سدوله على الأدغال فاستجاب له نداء الغاب، ويوسف وحيداً يسري، يضرب في متاهة المياه لا يدري أين يمّم وجهه كأنّه يقتفي أثر وهم من الأوهام.

أوغل في أقاصي المُستنقعات علّه يقع على ضفافٍ توصله إلى إحدى قرى الصيّادين والفلاّحين.

ضمّ الليل بين جناحيه غابات القصب وضاعت الخلائق والموجودات والمشاهد في طيّات العتمة. تألّقت النجوم تنبض وتوشوش في ما بينها، وأهدف على الكون قمر ليمونيّ وشّح الغمر والغاب بلمسة من نورٍ ثلجيّ، وَهَبَت الأجمات سحراً موحياً ومظهراً منعزلاً مليئاً بالأسرار والغموض والألغاز.

كان التعب قد نال من يوسف فآثر الاستلقاء في الزورق حتّى الصباح. خلع حذاءه ووضعه تحت رأسه أغمض عينيه منصتاً إلى

مكتبة الفكر الجديد

أعماقه. لم يسمع شيئاً فأقلع عن التفكير. أخذ النعاس بمعاقد جفنيه وغمرته مياه النوم.

كان الهواء واجماً حين انتهى إلى أرض تبرق متوهَجة في ذلك الظلام الدامس، مغلّفةً بهالةٍ من ضياء، كُلّ شيء فيها ذهبٌ يشعّ مثل القناديل، التراب والصخور والقصب والنخيل والحيوانات والحشائش والأزهار، فسمع صوتاً عميقاً ينبثق من أعماقه يقول: "إيشان حفيظ"[١].

مامكث أن انفصل من ذلك الوهج الذهبيّ طيف عرّج باتجاهه وهبط عليه. تمدّد لصقه وشمله بأثيره. تملاّه يوسف فإذا هو سميرة يشرق وجهها ضياءً.

كان صوته يتردّد مكبّراً حين صدرت منه هاتان الكلمتان: "سميرة حبيبتي".

عانقها، احتضنها، وباسها من فمها. اغتلم واغتلمت. كانت مبلّلة، داعبت ذكره، مسّدته، انتعظ، وأوغلا في الشهوة. دفن رأسه بين ساقيها وجعل يلحسها، اهتاجت أخذت عرقه المتوتّر بين ساقيه وملأت به فمها، فتحت له جسدها، دخلها فتأوّهت قائلة: "آه حبيبي ما أصلب عِرْقك، ما أقواه!".

اندفع يغور في لحمها مشتعلاً بالشبق. يملّس ردفيها ويرضع ثديها كالطفل. عصرته بين فخذيها منتعظة وشدّته إلى أغوار أنوثتها محتفظة بصلبه في جوفها.

---

١ إيشان حفيظ: جزيرة صغيرة في الهور، يقول الأهواريّون إنّ أرضها تشعّ ليلاً لوجود كنزٍ من الذهب في باطنها.

مكتبة الفكر الجديد

راحا يتعاشقان في لذّةٍ ومتعةٍ وشغف وسميرة تتأوّد تتلوّى تحته وتئنّ هامسة: "آه حبيبي خذني إليك! اهصرني واسحقني!". مصّ شفتيها ولسانها، رهز فوقها مهتاجاً، أخذ جسديهما إيقاع جماع قويّ ألهب عضويهما المتداخلين المتماسكين في ضمٍّ لا فكاك منه إلى أن بلغ يوسف الذروة فأراق فيها غامراً جوفها بماء تدفّق من صلبه.

استفاق فإذا هو قد بلّل نفسه، وإذا الشمس قد طلعت والصبح قد انبلج والزورق يسبح في الماء والضوء، والحياة مستيقظة. أوراق النباتات المندّاة بندى الصباح تلمع، تتفتّح، النوارس تقطع الفضاء في نشاط، اللقالق تخطو بهدوئها المعتاد على الضفاف، البطّ يعوم ويغتسل، العقاب محافظ على موقعه في الأعالي يتفحّص المناقع، الخنازير والثعالب والأرانب والنموس تخوض غمار القصب، العالم يقوم، الدنيا تتحرّك، والانسان يغادر مأواه ساعياً وراء رزقه.

انتهت به المستنقعات المتنائية الأطراف إلى جروف مجهولة. ربط زورقه إلى جذع نخلة وذهب يمشي في ذلك السهل المترامي بين القنوات والنخل، وكان يلمح فلاّحين وصيّادين ورعاة، انبروا عندما استفهمهم إلى تقويم طريقه ودلّوه على الوجهة الصحيحة.

بلغ قريةً كبيرة فزكمت أنفه رائحة الروث والدخان وذفر السمك. ظهر بالقرب منه على حين بغتة رجل يمتطي حصاناً، رماه بنظرة استفهام وفضول وألقى عليه السلام.

ردّ يوسف التحيّة وسأله عن الطريق إلى ناحية الإصلاح. أخذت الرجل دهشة وقال:

مكتبة الفكر الجديد

- ناحية الإصلاح بعيدة من هنا، أنت الآن في ديار آل بو صالح[1]، أهلاً وسهلاً.

- أنعم وأكرم، حسنٌ لا بأس ضاعت عليّ معالم الدرب، مضت فترة طويلة على مروري بهذا المطرح.

ولم يفته أن يشير إلى سبب تواجده هو الشرطيّ في هذه الجهة بالذات، فقال مستأنفاً حديثه:

- أنا في إجازة، وفي طريقي إلى البيت في البصرة.

دلّه الرجل على الوجهة التي يتعيّن عليه أن يسلكها عبر المزارع إلى الشارع العام ثمّ استدرك قائلاً:

- ولكنّني أستطيع مساعدتك. هل يضيرك شيء إذا انتظرت بعض الوقت هنا؟

- في وسعي الانتظار، لا عليك.

قال يوسف ذلك لكنّه انصرف ما إن بارحه الخيّال.

الهواء حارّ راكد. أشعّة الشمس قويّة تغشي أقطار الدنيا. الأعشاب العالية تعانق الدرب، فوق ذوائبها يتراقص ذبابٌ يئزّ، ويحطّ عليها في خفّة الفراش والنحل، وما زالت رائحة الروث والدخان عالقة بالهواء.

بعد مضي فترة على دبيبه تحت الشمس على الدرب الترابيّ الزراعيّ حاذته عربة خيل تحمل خرافاً وتوقّفت في جواره، وكان يقودها فتى يرتدي ثياباً قرويّة فقيرة. حيّاه وخاطبه متسائلاً:

---

[1] آل بو صالح: إحدى أكبر العشائر المقيمة في الأهوار العراقيّة. كان يتزعّمها الشيخ بدر الرميض، القائد الذي قاوم جيش الاحتلال البريطانيّ أثناء غزو العراق في الحرب العالميّة الأولى.

مكتبة الفكر الجديد

- يا أخي لِمَ لم تنتظرني؟

- آه، ظننت أنّ صاحب الحصان غير جادّ في كلامه، أهو قريبك؟

- إنّه جاري، اصعد!

ارتقى طرف العربة الخشبيّ الخلفيّ وملأت أنفه رائحة البرسيم وبعر الخراف.

انحدرت العربة بين المزارع والفتى لا يكفّ عن تبادل التحيّة مع السابلة وراكبي الدرّاجات الهوائيّة والعربات والحمير والخيول وهم يغدون ويروحون بين القرية والعالم الخارجيّ.

وصلا إلى بلدة الإصلاح وهي لا تعدو أن تكون قرية واسعة نسبيّاً، فيها مدرسة ومخفر ودكاكين وبضعة سيّارات؛ بيوتها خفيضة مبنيّة بالطوب وأزقّتها ترابيّة.

أشار الفتى إلى طرف الشارع الذي تلتزمه السيّارات المتّجهة إلى مدينة الناصريّة وذهب إلى طيّته.

تمشّى يوسف إليه وأوما بيده إلى شاحنة عالية فتوقّفت له. ألقى التحيّة على السائق وخاطبه مستقصياً:

- الناصريّة؟

- اصعد!

تسلّق يوسف الباب الجانبيّ للشاحنة، حتّى إذا استقرّ في قمرتها في جوار السائق دهمت أنفه رائحة ريفيّة لطيفة يعرفها:

- برسيم.

فأكّد السائق وهو يلتفت إليه باسماً من تحت شاربيه الكثّين:

- آ، برسيم.

مكتبة الفكر الجديد

وكان حوض الشاحنة مليئاً بحزم البرسيم الأخضر الطازج الموشّى بزهور صغيرة ليلكيّة وقرمزيّة تتحلّب لمرآه أشداق الماشية.

نزل في الناصريّة وفي سوقها اهتدى بعد السؤال إلى حوانيت الساعاتيّة.

عرض ساعته على تجّار الساعات وتوصّل إلى بيعها بثمنٍ بخسٍ كفاه في كلّ حال زاداً للطريق وأجرة سفر إلى البصرة.

مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس والعشرون

المسالك الجبليّة

أقبل الشتاء ثقيلاً هذه المرّة على قرية بيتوش[1]. جاء حاملاً معه برداً قاسياً يجمّد الأطراف، وثلجاً ظلّ يهطل طوال أيّام، باعثاً همّاً وضيقاً للكبار وبهجةً ولهواً للصغار، فكسا السفوح والفسحات والصخور، وتراكم على قمم الجبال وسدّ الطرق والممرّات والشعاب. كلّل هام شجر الصنوبر والجوز والبلّوط والسنديان والحور، وغطّى ضفاف المسيل القريب، إلاّ أنّ ماءه المنحدر بقوّة لم يدركه الانجماد.

دخلت الحيوانات في سباتها ولبثت الطيور في وكناتها، لكنّ نشاط المهرّبين والتجّار الجوّالين من أقاصي الجبال حتّى أدناها لم يخف، وحركة الناس بين القرى في المسالك الخلفيّة الوحلة الملتفّة والسبل الفرعيّة الزلقة لم تتوقّف، وكان الجيش قد قطع الشوارع الإسفلتيّة فارضاً الحصار على المنطقة جرّاء تفاقم حالة التمرّد والعصيان.

١ بيتوش: قرية كرديّة تقع على الحدود العراقيّة الإيرانيّة الشماليّة الشرقيّة.

مكتبة الفكر الجديد

السماء مكفهرّة ملبّدة بالسحب الثلجيّة، بيضاء رماديّة، ولا يرى الانسان أشعة الشمس إلاّ لفترة قصيرة وقت الظهيرة، وهي تشقّ طريقها عبر الغيوم المحتشدة، خجولة باردة وشاحبة لا تلبث أن تتوارى وراء سدل السماء الجليديّة المتهدّلة فوق الجبال.

البيوت الحجريّة المشيّدة على سفح الجبل تنوء بأحمالها الثلجيّة، تطلّ على بعضها بعضاً، الأبواب تشرف على السقوف والسقوف تحاذي الدروب التي تميل عنها وتمضي في صعودٍ أو هبوط، والمداخن ترسل دخاناً ينساب منتشراً في الفضاء، يشي بحرارة الحياة وسيرورتها.

أمّا القرويّون فاغلبهم رعاة وفلاّحون، راح بعضهم الآن يجرف الثلج من فوق السطوح أو من أمام البيوت، وأنشأ البعض الآخر يرصّ بالمحادل الصخريّة السقوف الطينيّة المقوّاة بأغصان الشجر بعد إزالة طبقة الثلج عنها، وقسم منهم ذهب يحمل على عاتقه الحطب إلى منزله أو يقود بغلته إلى حضيرتها.

وفي الأزقّة تتسكّع الكلاب والقطط سعياً وراء القوت والدفء أو دفعاً للملل.

على النهر الجاري بين الصخور، في محاذاة القرية توجد قنطرة من جذوع الأشجار تؤدّي إلى الوادي الغابيّ الذي يقع فيه ذلك المبنى المشيّد بالصخر الجبليّ. لا يقربه أحدٌ تقريباً لأنّه لا يخصّ أحداً غير الفصائل القتاليّة التي تؤمّه حين تروح وتغدو خلال تجوالها في الجبال للقيام بالعمليّات العسكريّة؛ ولأنّه محجوبٌ على نحوٍ متقنٍ بين أشجار الصنوبر وتحت جناح نتوء جبليّ، فإنّ الطائرات

مكتبة الفكر الجديد

العراقيّة كانت تحلّق فوقه من دون أن تتنبّه له: إنّه فصيل البارزانيين[1].

وهو كناية عن عنبرٍ للنوم رحب كقاعة وواطئ السقف تخترقه مدخنة المدفأة الحديديّة. تقع وراءه حظيرة بغال مهجورة حاليّاً، ودورة مياه بدائيّة مستورة بأغصان وأكياس خيش. وفي جواره لجهة اليمين يوجد تنّور صخريّ ومستودع للحطب والفؤوس وسقيفة تتراكم في جنباتها حلل وقدور وصحون وملاعق ويتوسّطها موقدٌ بأثاف حجريّة. إنّها المطبخ والمخزن الذي تُخْزَن فيه عدول العدس والسُكّر والرزّ والطحين وصفائح السمن وصناديق الشاي وعلب الحليب المجفّف ومعلّبات اللحم والفول والحمّص.

هذه المؤونة تُبْتاع بمجملها من قرية بيتوش أو من المهرّبين الجوّالين في منطقة الحدود العراقيّة الإيرانيّة.

يخاصر هذا المبنى مرتفعٌ غنيّ بأشجار البلّوط التي تُقْطَع وتُقطَّع بالفؤوس ثمّ تُجْلَب محمولةً على الأكتاف نزولاً إلى مستودع الحطب حذّ التنّور، أمّا في الأيّام الثلجيّة فإنّ عمليّة التحطيب تغدو مهمّة شاقّة.

كانت رائحة العدس المطبوخ مع البصل المفروم والبهارات في الحلّة على نار الموقد في المطبخ تترع أنف (آشتي) حين غادر موضعه، بينما ظلمة السماء المدلهمّة تتبدّد منفرجة عن ضوءٍ رماديّ ينبئ بحلول الفجر، والبرد يشتدّ أزرق في الهواء المشبّع بالصقيع.

---

١ البارزانيّون: نسبة إلى الملاّ مصطفى البارزانيّ، الزعيم الكرديّ الذي قاد حرب عصابات ضارية ضدّ الدولة العراقيّة في الجبال الكرديّة في شمال العراق منذ أربعينيّات القرن العشرين حتّى وفاته، بعده استمرّت الحرب بقيادة ابنه مسعود حتّى الاحتلال الأميركيّ للعراق.

مكتبة الفكر الجديد

كان يتملّكه شعور بالفرح لانتهاء نوبة حراسته في العراء في هذا الطقس البارد، ولكنّه كان أحياناً يصطلي ولوقتٍ قصير بالنار المشتعلة تحت حلّة العدس عندما يغذّيها بالحطب.

فتح باب القاعة الخشبيّ ودلف إلى الداخل. سرت حرارة المدفأة المعدنيّة في كيانه فانتشى بالدفء وارتاح إلى الألفة التي تكتنف المكان.

وضع بندقيّته (الفاز)[1] إلى جانبه وجلس على قرمةٍ أمام المدفأة يصطلي بنارها، ومن حوله أحذية السامسون[2] الخاصّة بالرفاق النائمين متراكمة في المجال أمام الباب. سحب من جيبه علبة دخان آزادي[3] أشعل سيكارةً وجذب منها نفساً عميقاً. تولاّه شرود وهو يمجّ الدخان وينفض رماد سيكارته على سطح المدفأة التي احمّر معدنها من قوّة اشتعال الحطب في جوفها.

كان الرفاق الإثنا عشر نائمين مستلقين على جانبي القاعة يفترشون البطّانيّات ويلتحفون بمثلها، وأسلحتهم مسندة إلى الحائط في جوارهم أو معلّقة بأوتاد فوقهم مع حقائب الظهر القماشيّة، منها الخفيف كبنادق السيمينوف والكلاشنكوف والجي ثري والبرنو،

---

١ الفاز: سلاح روسيّ على غرار البندقيّة الاوتوماتيكيّة الكلاشنكوف، يُثبَّت في فوّهته عند اللزوم قاذف صاروخيّ.

٢ السامسون: علامة تجاريّة لأحذية مطّاطيّة سود متينة الصنع وبلا كعب، تُسْتَوْرَد من إيران وتركيا، يحتذيها مقاتلو الجبال شتاءً مع جوارب صوفيّة محلّيّة تدعى زنكال، أمّا في الصيف فيستبدلون بها أحذية رياضيّة.
الأحذية الجلديّة مستثناة لأنها لا تصلح للتجوّل في الجبال.

٣ آزادي: سجائر إيرانيّة فاخرة.

مكتبة الفكر الجديد

والمتوسّط من مثل رشّاشات آر بي كي، وتكتريوف، وبي كي سي، وقاذف آر بي جي[1].

في الحقائب غالباً ما يضع المقاتل حاجاته الضروريّة خلال السير في الجبال كالخبز والسكّر والشاي وأحياناً الرصاص.

داخل القاعة يشيع الدفء وتسطع رائحة احتراق الحطب. ولإدامة اشتعال نار المدفاة يتعيّن على الحارس المناوب مداراتها من حين إلى حين.

كان بعض النائمين يحكّون من لدغات القمل والبراغيث والآخر يتقلّب ويتأوّه، ومن خلال الكوّة المغطّاة بنايلون شفّاف كان ضوء الفجر يتسلّل. قام آشتي وعبر في غبشة النور الثلجيّ ليطفئ ذبالة الفانوس الموضوع على صندوق في الزاوية المواجهة للباب، ثمّ تقدّم من الطاهي (هلو) وأيقظه، فنهض هذا من فوره ومضى إلى المطبخ.

استرعى انتباهه أنّ (أوميد) آمر الفصيل قد استيقظ حين أزاح الغطاء عنه ونظر إليه، ثمّ هتف وهو يقوم ويتقلّد سلاحه:

- الإفطار يا رفاق.

وأوميد هذا في العشرين من عمره، أخضر العينين، أشقر، قصير القامة، ممتلئ وذو بأس شديد. يتحلّى بالانضباط والطيبة فضلاً عن كونه يتمتّع بخاصيّة الإصغاء إلى رفاقه، فيسعى إلى تنفيذ رغباتهم وتفهّم شكاواهم دونما كثير نقاش واعتراض. فهو إلى الصمت أميل

---

١ آر بي كي، تكتريوف، بي كي سي: رشّاشات روسيّة متوسّطة يحملها المقاتلون غالبا على عواتقهم لثقلها. أمّا الآر بي جي فقاذف صاروخيّ مضاد للدروع، روسيّ الصنع أيضاً.

مكتبة الفكر الجديد

إن لم يجد ضرورة للكلام، لذا كان محبوباً من الجميع ومُطاعاً أيضاً.

أخذ الرفاق يغادرون القاعة والنور يمحو الظلام ويغمر الكون. في الهواء يتأرّج ضوع الطعام، ونباح كلاب وصياح ديكة يُسْمَعان آتيين من جهة القرية.

من حولهم العالم أبيض. بياضٌ على الجبال. بياضٌ على الصخور. الأرض بيضاء والأشجار بيضاء.

في هذا الوقت المثلج من الشتاء كان المقاتلون قليلاً ما يشطفون وجوههم في النهر القريب منهم لشدّة برودة الماء، لذلك ينقلون خطاهم على نحوٍ غريزيّ صوب النار في المطبخ قاصدين الطاهي الخفير الذي يقوم بتوزيع حساء العدس عليهم في صحون معدنيّة مع رغيف خبز، وأحياناً يعدّ على موقدٍ ثان قدراً ملأى بالحليب تكون لهم وجبة إضافيّة تتهلّل لها وجوههم، أمّا الشاي فلابدّ مما ليس منه بدّ.

يأخذ كلّ مقاتل حصّته المقدّرة له من الإفطار ويقصد مكاناً يقف فيه أو يقرفص ويطعم فطوره في هدوء، حتّى إذا فرغ الجميع من وجبتهم الصباحيّة حملوا أسلحتهم وزكائبهم وراحوا يصعدون الهضبة الكائنة وراء المبنى مخلّفين الخفير الطبّاخ في الموقع لحراسته والاهتمام به.

كانوا يرتقون المرتفع تباعاً وبين كلّ واحدٍ منهم مسافة عشرين خطوة تقريباً يتقدّمهم أوميد، وهم: بختيار، آشتي، آزاد، ريبوار، بيان، آسو، خبات، كاروان، دلشاد، آرام، وسامان.

كان أوميد إذا ما التبست عليه الجهات يقتفي في الثلج آثار من

مكتبة الفكر الجديد

سبقهم إلى الطريق من صيّادين ورعاة وفلاّحين ومقاتلين ومهرّبين وحيوانات، وغالباً ما تكون الدروب غير واضحة، ضيّقة وعرة زلقة ومغطّاة بالثلوج تحدق بها الصخور والأشجار والجروف الهارية، ولكنّها تصبح آمنة معلومة إذا كانت أقدام السابلة وحوافر البغال قد طرقتها وفصائل المقاتلين قد مرّت بها، على أنّهم في أحايين أخرى يرودون فرجات مجهولة في الجبل، فيشقّون الثلج بأنفسهم وأمامهم قائدهم يسبر السبل والمنافذ والممرّات.

هاهم يبدون للرائي مثل سربٍ من النمل يدبّ على شرشفٍ أبيض.

القوّات العراقيّة لا تتواجد في المناطق الجبليّة الوعرة إلاّ في مواقع منيعة مشيّدة على قمم الهضاب والمرتفعات تدعى ربايا[1]، لذا فرجال حرب العصابات الأكراد يمارسون إلى حدٍّ ما حريّتهم في التجوال في وضح النهار، وإذا كان من خطرٍ فعليّ ما فهو لا بدّ آت من السماء، وحتّى ذاك لا يشكّل تهديداً دائماً، لأنّ الطائرات لا تنقضّ على المسلّحين المتنقّلين في فصائل جوّالة إلاّ وفق معلومات مستقاة من الجواسيس المندسّين في القرى والذين يمثّلون طابوراً خامساً لصالح الدولة العرقيّة التي تسمّيهم فرسان صلاح الدين أما المتمرّدون فينبزونهم بلقب الجحوش.

وإذا ما قامت الطائرات بالمباغتة التي تأخذ شكل هجمات بالهليكوبتر، فإنّ المقاتلين يسارعون إلى الانتشار والاختفاء بين الصخور وتحت الأشجار، في الكهوف وفي شقوق الوهاد والوديان،

---

١ ويكون عديد الربيئة الواحدة من الجنود ما يقارب العشرة، يقودهم ملازم ثانٍ أو عسكريّ برتبةٍ أدنى.

مكتبة الفكر الجديد

وكلّ ما من شأنه أن يكون ستاراً يلوذون به حتّى زوال الخطر.

شساعة المناطق الجبليّة ووعورتها، كثافة الغابات فيها وتضامن الأهلين الأكراد والدولة الإيرانيّة مع حركة التمرّد، كلّ ذلك يؤلّف متراساً واقياً للمقاتلين يوفّر لهم مجالاً حيويّاً يواصلون فيه نشاطهم العسكريّ بحريّة، حتّى إنّ الجيش العراقيّ في أحايين كثيرة يجد نفسه محاصراً في قلاعه المحصّنة في المرتفعات، فالوديان من حولها تمور بالمحاربين الذين يهاجمونه من كلّ حدبٍ وصوب.

بالطبع يقل نشاط المفارز الجوّالة[1] في الشتاء من جرّاء المناخ الرديء من برد قارس وجليد وعواصف ثلجيّة وزوابع مطريّة وبَرَد وضباب ورياح صقيعيّة عاتية وسيول جارفة، غير أنّ الطقس لا يخلو من انفراجات، فإذا هو يتحسّن فجأة. الشمس تشرق بعد مطرٍ ثلجيّ، الضباب يتبدّد، نسيم رخيّ يهبّ، وتصفو السماء عقب انقشاع غيومها، كما هي الحال في هذا الصباح الهادئ المضيء.

قائد الفصيل يتذكّر الطريق إذا جازه مرّةً واحدة، فهو يحفظ العلامات والإشارات والجهات والآثار والنواتئ والشواخص كنقاط دالّة ترتكز عليها ذاكرته، من جبال وغابات وأحراج وصخور وألوان وروائح وشقوق ووديان ومنحدرات وقرى وطرق إسفلتيّة ودروب جبليّة وأنهار ومزارع وأسيجة ومقار حزبيّة ومقابر وأضرحة أولياء وربايا وجروف ومهاوٍ ومضارب قبائل رحّل، كما أنّه يقرّر أوقات الراحة النهاريّة أو الليليّة خلال سير المفرزة، فالمشي بالنسبة إلى

---

١ المفارز القتاليّة: هكذا يسمّي رجال حرب العصابات فصائلهم القتاليّة المتجوّلة، وقد ترد كذلك أحياناً في تضاعيف السرد.

مكتبة الفكر الجديد

المقاتل يصير بعد حينٍ من الزمن ضرباً من قطع مسافات لا تنتهي أبداً فتصير كلّ أمانيه أن يصل إلى مطرحٍ يلقي فيه عصا الترحال فيرتاح.

ولقد بات من المعتاد أن الاستراحات الليليّة لا تكون توقّفاً في العراء كما في تلك النهاريّة بل هي إقامة في القرى، لذلك لابدّ من بلوغ إحداها مابين الغروب وأوّل الليل بغية المبيت وتناول العشاء الذي يقدّمه إليهم القرويّون مجّاناً، أو يقوم القائد إذا كان متفهّماً لأحوالهم بابتياع معزاة منهم، يمسي لحمها عشاءً دسماً للمقاتلين، فلا يتحمّل القرويّون بذلك إلاّ مؤونة إعداد الشاي وتحضير الخبز لضيوفهم الذين إن لم يكونوا ثقلاء فهم مكلفون؛ فهبوط المفارز عليهم لا يتوقّف عند حدٍّ معيّن، وهم ناسٌ فقراء.

يجتاز المقاتلون في رحلتهم وديانًا وجبالاً وشعاباً وكهوفاً وغابات وقرى، يرودون أصقاعاً منقطعة عن العالم، ويقطعون أنهاراً ومسايل ومساقط مياه، ورفيقهم الأمين القويّ المتين حذاء السامسون، الذي يقاوم الصخور والوحل والثلج والماء ونواتئ النباتات بنجاح، إلاّ البكتيريا التي تنمو بين أصابع أرجلهم فتكسبها رائحة كريهة، فهم لا يقوون على التخلّص منها، مثلها مثل القمل الذي يرتع في ملابسهم وأجسامهم، والبراغيث التي تهاجمهم ما إن يخلدوا إلى النوم.

لا نساء في هذه الفصائل فهي ذكوريّة بحتة لدواعٍ اجتماعيّة عشائريّة ودينيّة، ولا مرتب يتقاضاه أحد من أحد عدا ثمن السجائر التي يبتاعونها من دكاكين القرى أو من المهرّبين الذين يقطعون الحدود بين العراق وإيران.

وقد يرافقهم أحياناً بغل، ولا حيوان غيره قادراً على اجتياز

مكتبة الفكر الجديد

الشعاب الجبليّة، إذا كانوا

ينقلون مدفع هاون أو أغراضاً من معسكرٍ تركوه إلى آخر يرومون إنشاءه، أو غنموا غنائم من الجيش أو من أعدائهم التقليديين (اليكيتي)[1] أو إذا وقع بينهم مريض أو جريح.

يغلب على رجال حرب العصابات طابع الالتزام بعادات القرويين وتقاليدهم، ولم يُسْمَع عنهم أنّهم سرقوا أو صادروا أو اغتصبوا ما لا يخصّهم، إذ أنّ كسب ودّ الأهالي أمر ضروريّ لديمومة العمل الكفاحيّ المسلّح ضدّ جيش الدولة المدجّج بالدروع والطائرات ووسائل المواصلات والاتصالات الحديثة ذات الفعّاليّة الحاسمة والمؤذية.

كانت المسافات خلال رحلة الفصيل القتاليّ تمتدّ مابين ارتقاء وانحدار، اجتياز والتفاف، انعطاف وانحراف، توغّل وعبور، صعود وهبوط ومشي، على قمم الجبال وشعابها وفي المضائق والوديان، على حافات المهاوي وفي المسالك الوعرة والسبل المجهولة، بين الصخور والتلال والهضاب المغطّاة بالثلوج وعبر الأنهار الجافّة والعامرة بالمياه، خلال غابات الصنوبر والحور والبلّوط الملأى بالدببة والغزلان والخنازير الوحشيّة وفي أجمات السهوب المسكونة بالرعاة. سير متواصل، لا توقّف ولا انتظار إلاّ في أوقاتٍ معلومةٍ

---

١ اليكتي: حزب الاتّحاد الوطنيّ الكردستانيّ أو جماعة جلال الطالبانيّ كما تدعوهم العامّة. وقد انشقّ الطالبانيّ في الأربعينيّات على الملاّ مصطفى البارزانيّ وأسّس حزبه ذاك الذي دخل في صراع مرير مع البارزانيين وتحالف مع الدولة العراقيّة مراراً ضدّهم، حتّى إنّ البارزانيين سمّوا الطالبانيين جحوشا، وهي التسمية الشهيرة التي يطلقونها على العملاء.

مكتبة الفكر الجديد

متباعدة، حتّى إنّ المقاتل لا يعود ينتبه إلاّ إلى رفيقه الذي يتقدّمه فيلحظه بطرف عينيه بين آونة وأخرى حرصاً على عدم إضاعته. الأشجار العارية من أوراقها تطالعهم والأعشاب اليابسة تشيّعهم، لا أوراق نضرة ولا ثمار، لا نحل ولا فراش، لا نسغ أخضر ولا عبير زهور، باستثناء أكمات الصنوبر التي توحي بالحياة في هذا الموات الثلجيّ.

تسلّل التعب إلى جسد آشتي وبات المشي عذاباً يصرف ذهنه عن كلّ شيء آخر، وكان يأمل في استراحةٍ قصيرةٍ غير أنّ التوقّف مرهونٌ بقرارٍ من أوميد:آمر الفصيل. وآشتي الشاب الذي لا يتجاوز العشرين من عمره لا يعير العمل الثوريّ اهتماماً،لا يبدي حماسةً لأهدافه ولا شغفاً ببرامجه كأنّه يهيم بلا هدف. إنّ هربه من التجنيد الإجباريّ في الجيش العراقيّ حمله على مغادرة بيت أهله في مدينة السليمانيّة واللجوء إلى الجبال مع المتمرّدين كيلا يقع في قبضة الشرطة العسكريّة، ولم يجد اعتراضاً من أبويه بل أبديا تفهّماً لوضعه متوجّسين خيفةً من إلقاء القبض عليه، فمهّدا له طريق الفرار. إنّ عقوبة المتخلّف عن أداء الخدمة العسكريّة الإلزامية إذا أعتقل قاسية ومؤذية. ولعلّ حال آشتي لا تختلف كثيراً عن حال القسم الأكبر من الشبّان الملتحقين بقواعد المتمرّدين في الجبال إلاّ في التفاصيل؛ واحد متّهم بجناية وهارب من العدالة، وآخر يسعى وراء المغامرة، وثالث لا يطيق حياة البيت المقيّدة، ورابع مطلوب بثأر، وخامس متبطّل لا يجد ما يأكل إلاّ في مراكز رجال حرب العصابات فصار القتال له حرفةً ومهنة، أمّا الهمّ السياسيّ فهو آخر ما يفكّرون فيه هذا

مكتبة الفكر الجديد

إذا خطر على بالهم. انتهوا إلى أنقاض قرية محترقة بفعل القصف الجوّيّ. توقّف أوميد قرب ينبوعها فأشاع الغبطة في الطابور الذي توقّف وراءه وانفرط عقده. انتبذ كلّ مقاتل مكاناً له بين الخرائب يستريح فيه ويأكل ما تيسّر له من الخبز والجبن القرويّ المحفوظ في زكيبته، وإذا شاء ذهب ونهل من ماء الينبوع الصافي النقي والبارد برودة منعشة.

لم يكد يستقرّ بهم المقام طويلاً حتّى أمر أوميد بمواصلة المسير. فالطقس آخذٌ في التبدّل. السماء تكفهرّ والسحب تحتشد وريح جليديّة تهبّ. لا بدّ إذاً من استئناف السير حتّى بلوغ القرية القادمة قبل حلول المساء وسقوط العتمة وهطول الثلج الذي سيسدّ السبل والمسالك ويجعل المشي خوضاً وتعثّراً وتيهاً في الثلج والوعر والظلام.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل السابع والعشرون

فردوس الجسد

في الظهيرة تتجلّى الشمس دافئة، ضوؤها يشعّ شاقّاً طريقه إلى الفناء المكشوف فيبدّد البرد.

الهواء رقيق وفاتر، السماء مجلوّة صافية. تلك ساعة حلوة ينقل فيها إسماعيل من الغرفة كرسيّاً من المطّاط والألمنيوم وخواناً خشبيّاً يحطّ عليه علبة دخان بغداد ومنفضة وقدّاحة، ويجلس في شقّة من الشمس في الفناء بيجامته القطنيّة ومشّايته البلاستيك الرماديّة، ذلك حين يأتي من دوامه في المدرسة الثانوية.

بعد صمت كئيبٍ يسرح خلاله مع خواطره ماجّاً دخان سيجارته يعمد إلى تناقل الحديث مع نادية بخاصّة حين تكون على مقربةٍ منه، كأنّه يكبح تلك الخواطر لهنيهةٍ قبل أن يعاود اجترارها من جديد.

– أين يختفي هذا الولد؟

– ماذا تريد منه؟

تردّ امرأته عليه مستفهمة في لهجةٍ لا مبالية عندما يقطع عليها

مكتبة الفكر الجديد

استغراقها في مَشْغَلَة كانت منهمكة فيها.

- لا أسمع له حسّاً، ألم يأتِ من المدرسة؟

- بلى كان هنا ثمّ راح مع أحلام؟

- أحلام بنت الملاّ المقبور؟

- اذكروا حسنات أمواتكم إسماعيل، هذا إذا كان الرجل ميتاً، وإلاّ فهو لا يزال في عداد المفقودين.

تقولها من غير حماسة ولعلّها تهدف إلى بعض الهزء أيضاً.

- لا فرق، المهم ارتحنا من خطبه الخرافيّة التطهيريّة. ولكن ما شأن رمزي وأحلام؟

- قصدا البساتين يشمّان الهواء.

- هكذا صارا صديقين بسرعة؟ رمزي لا يحبّ إلاّ صحبة البنات.

- أحلام مكسورة الخاطر وحيدة، والحزين يميل إلى رفقة الأطفال.

- ألنتِ من أشياع فرويد؟

ضحكت وردّت بما تملك من مزاجٍ ساخرٍ ينزع بها إلى المناجزة في الحديث:

- لا أعتقد ذلك وإلاّ لأدركت سرّ الصحبة العتيدة التي تجمعك ورزّاق الأحدب.

- الأحدب ليس بصاحبي.

- ماذا كان يفعل هنا منذ قليل؟

أخذ نفساً من سيكارته، وضعها في المنفضة وقال:

- كأنّك لا تعرفين؟ الرجل يتاجر، يداريني بزجاجة ويسكي

مكتبة الفكر الجديد

سعرها مناسب.

- أنا لا أرتاح لسحنته، إنّه وغد.

- عليك أن تنتبهي لأقوالك أمام الآخرين فقد يسرّبون الكلام إليه، فيوردك مورد التهلكة ذات يوم، فلقد أضحى رزّاق الأحدب من رجال الحكومة.

- وماعسى ذلك المسخ يصير؟

- صار مخبراً، لا أستغرب ذلك، فدور الحكومة ملأى بالبهائم.

- أجادٌّ أنت؟

- هو نفسه نوّه لي بذلك متباهياً. جوني البحّار جنّده.

- والبحّار مخبرٌ أيضاً؟

- كأنّكِ غافلة والماء يسري من تحتكِ. جنّده رجال الأمن خلال اعتقاله بتهمة قتل الملاّ أو تغييبه حسبما يقول الأحدب، لِمَ لا؟ فإذا كان رزّاق قوّاداً وسمساراً فالبحّار مهرّب وكلاهما يخوض المباءة ذاتها، لذا فإنّ احتراف الوشاية لن يكون بالنسبة إليهما أمراً غريباً ولا شاذّاً.

يعود إسماعيل عندما يدركه الملل إلى الداخل. يحمل عدّته معه ليستقرّ مجدّداً لدى طاولة الزينة القديمة الخاصّة بنادية مولّياً ظهره الفناء. إلى يمينه المذياع وإلى يساره الكومودينو العابق برائحة الأدوية[1]، وفي الزاوية المشجب الذي تتهدّل عليه الملابس، أمّا

[1] في الكومودينو: علبة نيفيا زرقاء، حقّ مرهم الفيكس للرشح، أقراص أسبرين، الحقنة الشرجيّة للإمساك، لفّة شاش، كيس القطن الطبّيّ، قنينة يود للجروح والحروق، قطرة للعين في قارورة خضراء بقطارتها، القربة المطّاط للماء الساخن، حاوية البودر المعدنيّة الفضيّة اللون، عبوة برمنغنات البوتاسيوم الخاصّة بتعقيم الخضر، حبوب منع الحمل، شراب للسعال وآخر للمغص.. وسوى ذلك.

مكتبة الفكر الجديد

الإنارة الوحيدة فهي المصباح المعلّق فوقه بظُلّته البيضاء.

على الطاولة أمامه نظّارته الطبيّة في جرابها وكتاب مفتوح لا يعدو أن يكون متّصلاً من دون شكّ بأخبار الحرب العالميّة الثانية: مذكّرات زوكوف أو تشرشل، يوميّات احتلال النرويج والدانمارك، أسرار معارك العلمين وغير ذلك. ففي الآونة الأخيرة جعل الإرهاق يساوره كلّما فتح كتاباً من الكتب الماركسيّة أو الوجوديّة لذلك بدأ يميل إلى قراءة كتب الحرب المسليّة الجذّابة التي لا تحمله على التفكير ولا تتعب ذهنه.

وهو في أحيان كثيرة يظلّ سادراً في وساوسه السياسيّة وهواجسه الايديولوجيّة، فلا يخفي استخفافه بالاتحاد السوفياتي ولا بالسياسات الشيوعيّة السائدة في العالم، على أنّه كان يتعاطف من طرفٍ خفيّ مع ناشطي الحزب الشيوعيّ السرّي في المنطقة، ولشدّما يتمنّى لو يستطيع أن يسدي إليهم عوناً لأنّه يرى أنّ هؤلاء البسطاء العمال والفلاّحين والطلاّب صادقون في مسعاهم الثوريّ لتغيير العالم أكثر من حاميهم بريجينيف الذي لا يهتمّ إلاّ بإرساء سياسة توازن دوليّ قائمة على تحدّي الولايات المتّحدة الأميركيّة.

وإسماعيل ينأى بنفسه عن خندق الدولة العراقيّة بل يتمنّى زوالها، وبما أنّ الشارع موزّع بين قوّتين تناوئان تلك الدولة، هما الحزب الشيوعيّ العراقيّ والحزب الدينيّ الشيعيّ حزب الدعوة، فإنّ جوارحه انشدّت إلى الشيوعيين لأنّه يحسب نفسه علمانيّاً ويساريّاً.

لكنّ خلافه الفكريّ مع حزب الدعوة لا يدفعه إلى النقمة عليه، بل على العكس من ذلك كان يلفت انتباه أي فرد من أفراده إلى أدنى خطر قد يتهدّده من قبل جواسيس الحكومة مثلما ينبّه الشيوعيين سواء

مكتبة الفكر الجديد

بسواء. إنّ اتخاذ المواقف الحاسمة حيال حزب الدعوة يأتي في رأيه بعد انتصار الثورة وزوال النظام الحاكم.

لعلّها نزعة رومانسيّة وفوضويّة طيّبة تلك التي تتملّك إسماعيل فتسوّغ له أن يرى في رجال العمل السرّي، سواء أكانوا شيوعيين أم شيعة قوى ذات طابع فدائيّ ينبغي التضامن معها بغضّ النظر عمّا تحمل من أفكار، ما دامت ثائرة على الحكم وخارجة على قوانينه.

لقد كان إسماعيل ضدّ الدولة في كلّ الأحوال، ولا سلطة يكرهها أكثر من سلطة الحكّام.

هذا الخليط من المشاعر دعاه إلى أن يعتبر أعضاء حزب الدعوة أفراداً مضطهدين يحسن به تقديم الدعم لهم أيضاً عملاً بناموس احترام حريّة الفرد في تبنّي المبادئ التي يختارها ويؤمن بها.

كان إسماعيل والحقّ يرود غابة السياسة بوسائل تفكير بدائيّة من شأنها أن تقسم العالم إلى قسمين اثنين: حيوانات قليلة ولكنْ قويّة بمخالب وأنياب حيال أخرى كثيرة ولكنْ ضعيفة لا تملك أن تدافع عن نفسها إلاّ بالتستّر والتمرّد؛ وبذلك يصبح في نهاية المطاف حزب الدعوة والحزب الشيوعيّ العراقيّ في نظره حليفين في مواجهة الدولة العراقيّة التي تستمدّ ديمومتها من قوّة الجيش والأمن والمخابرات لا من حبّ الشعب لها، ونتيجة لذلك فلقد عزم على أمرٍ ما لا يخلو من خيلاء ومبالغة.

***

أمسكت أحلام الفتاة التي ألمّت بها المحنة وهي لم تكد تبلغ السنة

مكتبة الفكر الجديد

التاسعة عشرة من عمرها بيد رمزي وسارا في الطريق الصاعدة من محلّة نظران إلى حيّ الحساويّة[1]. الأرض منقوعة بمياه المطابخ والحمّامات التي تلفظها البيوت، لا رصيف والشارع مزروع بالبرك المنتشرة في ثناياه.

جازا دكّان مسعود القزم فطالعهما إيبارا العجوز وهو يقتعد عتبة باب بيته ينظر إلى الغادي والرائح، وتوالت الأبواب والواجهات: منزل مظلوم الذي تتشمّس على سطحه زوجة ابنه الروسيّة كاتيا التي تستلقي على كرسيّ بحر عارية إلاّ من المايوه فيقف الشباب على السطوح يتفرّجون عليها، دار خميس الأسود زوج نورا البيضاء العوراء، كوخ الفلاّح ساهي الذي سُمّي البستان الذي يرعى نخيله باسمه، ومسكن كاظم نزّال لاعب كرة القدم الشهير الذي اعتزل اللعب بعدما نال العطب رجله اليمنى، فاكتفى بعمله زبّالاً يطوف في الأحياء على عربةٍ يجرّها حصانٌ هزيل ليفرغ فيها صفائح الزبالة التي يركنها الناس إلى جانب أبواب بيوتهم كلّ صباح، وأخيراً مرمدة كوخ الشيوعيّ القتيل حسين العامل الذي أحرقته الشرطة.

وكان رمزي يحكي لأحلام كلّ ما يعرفه عن البيوت التي يمرّون بها تائقاً إلى إيقاع الرضا في نفسها، وهي وإن كانت على دراية بأحوال الناس في هذه المنطقة لم تكن برمة بحكاياته، بل كانت تجاريه وتجامله على أنّ شحوباً اعتراها، غصّت وتولاّها حزنٌ عميق، فأسرعت في خطوها متحاشية النظر إلى موقع الحريق، بينما

---

١ الحساويّة: قوم فقراء قدموا من الإحساء في الجزيرة العربيّة إلى البصرة في القرن التاسع عشر وامتهنوا تربية المواشي.

مكتبة الفكر الجديد

رمزي يسهب في وصف الحادث مبالغاً مندفعاً في تزيينه، مضفياً عليه من عنده ومما سمعه من قصص خيالاً جديداً يشي بالعجائب والغرائب، منها أنّ ألسنة اللهب المتقافزة نالت القطّ الذي يقطن الكوخ فشوته وأبقته في هيئة الراكض طلباً للنجاة، وأنّ رجلاً عثر بين خرائب الحريق على بيضة نعّامة قيل إنّها هديّة جاءت حسيناً من صديقه في إفريقيا، فأخذ الناس الدهش لضخامتها فهي بحجم إبريق شاي. وقالت الشرطة إنها وجدت قبل إحراق البيت آثار قرآن كريم في رماد الموقد، كان الشيوعيّ الكافر يغذّي النار بأوراقه حاش الله حين يعدّ عشاءه، لكنّ أحداً لم يأخذ ذلك القول مأخذ الجدّ، فالمرء لا يشعل موقداً بأوراق القرآن حاش الله وإنّما من ساقط سعف النخيل اليابس الذي يملأ الأرض قرب الكوخ، كما أنّهم عثروا على صور رجالٍ بملابس بيض مكبّلين بالحديد هم قادة الحزب الشيوعيّ في طريقهم إلى المشنقة وكان من بينهم زعيمهم فهد، علاوة على كتب باللغة الروسيّة لم يتسنّ لأحد قراءتها بالطبع، ولمّا عرضوها على كاتيا الروسيّة التي تعرض فخذيها بلا حياء على السطوح وجمت ثم صرخت بعربيّة مكسّرة: أنا واحد روسكي ولايخصّني واحد إراكي، واستغرق رمزي في الضحك ثمّ سأل أحلام:

- وهل يعرف حسين اللغة الروسيّة؟

نظرت إليه الفتاة بحنوّ وقالت:

- أنّى له أن يعرفها؟ هذا كلام الشرطة وإشاعات بعض الناس، من يصدّق هذه الأكاذيب؟

مكتبة الفكر الجديد

وصلا إلى المفرق فانعطفا إلى اليسار حيث حيّ الحساويّة، وكانت الزرازير تطير في حركة سريعة فوق أشجار النخيل الموشّحة بنور العصر.

الطريق إلى هذا الربض ترابيّ تظلّله البساتين التي تشقّها قنوات وترع، بعضها جافّ تكسو قعره الأشواك وكسر السعف.

خلّفا البيوت الطينيّة الفائحة برائحة الروث والعلف وراءهما وسارا إلى أطراف البستان، وكانت أحلام مستسلمة لرمزي يقودها انّى شاء، فهو على دراية بمداخل البساتين ومخارجها.

سلكا حاشية النهر وتابعا سبيلهما خلال غابة النخل.

شمس العصر حلوة ترسل أشعّة متراخية. النسيم ناعم. العصافير تكتنف السعف. النخيل يطرح ظلالاً كبيرة. مياه النهر عالية وأريجه منعش. على الجروف ضفادع وسلاحف وسرطانات تطالع البشر ولا تنكفئ، تقبع ساكنة تحدّق إلى العالم بعيون حالمة، وفوق الحشائش والزرع يهوّم فراش وزنابير ويعاسيب.

كانت أحلام ساهمة مستغرقة في تيّار أفكارها، تحسّ وجعاً يخالج روحها وسحابة مظلمة تغشي قلبها، فهي أصغر من أن تغالب الوحدة والفقدان، لذا فانّها تشعر بالظلم والخسارة. وكثيراً ما دار في خلدها أن تخرج من ذاتها الكامدة، أن تحرّر جسدها وعقلها، وأن تلبّي حاجاتها النفسيّة والجسديّة، تشبعها وترويها فيغلبها القصور، يدركها العجز فتلبث نائية حزينة، صامتة ومتأمّلة.

تتعلّق برمزي لأنّ ذهنه كسائر الأطفال أبسط وأوضح. أفكاره نقيّة لم يتملّكها العرف السائد بعد ولا العادات المتوارثة. روحه حرّة

مكتبة الفكر الجديد

وعقله طليق وردّات فعله ساذجة. وأحلام ترتاح إلى تلك البساطة والعفويّة وتطمئنّ. وإذا تساءل رمزي فسؤاله بريء وطريف يدعوها إلى السرور والضحك. إنّ البهجة التي يولّدها الأطفال في غريزتها الأنثويّة لهي بعض من روح التضامن بين المخلوقات الضعيفة في عالم قاسٍ وحشيّ وخطر.

وإذا كانت أحلام تتكدّر من أبيها بسبب فظاظته وتخلّفه وضيق أفقه، فهي لم تعتد غياب الأب الذي تعوّدت رؤيته كلّ صباح، تستمدّ من وجوده قوّةً ومن سطوته درعاً يقيها حوادث الزمان ونوائب الأيّام.

أيضاً، مع كلّ ذلك، ففي جانبٍ ناءٍ من دواخلها لا تلبث تشعر بخفّةٍ ما غريبة وسريّة تختلج خفيةً في جوانحها، هاهي قد أصبحت ملك نفسها، لم تعد مراقبة ولا محروسة ولا مملوكة ولا مقيّدة ولا مجبرة ولا محجوبة، إنّها في توقٍ إلى عالم جديدٍ ترى فيه نفسها تلك الأنثى الجميلة، المتألّقة، المشتهاة، المحبوبة، الغاوية، والمتكبّرة بجمالها وذوقها وثقافتها وفتنتها الطاغية والفريدة. أحلام تهفو إلى أن تَحبّ وتُحبّ بعد الهمّ الذي نزل بها إثر مقتل حبيبها الذي خفق قلبها له، حسين العامل الذي قضت معه سوانح هي أعذب لحظات من الوله والولع، اكتشفت خلالها متعة الجسد الخفيّة، وذاقت فيها لذّة المشاعر الحسيّة. إنّ الفراغ الذي يسري في صدرها ليدعوها إلى الوحدة والشرود، غير أنّها ما برحت في الوقت ذاته مصمّمة على إحداث تغييرٍ في طريقة حياتها ونمط عيشها، فيما أمّها كما يبدو لا تألو جهداً في تشجيعها على المضي قدماً في طريقها الخاصّ بها، لكنّ العالم الذي تعيشانه أشبه بالحصن، مغلق مكين لا يسهل عبور

مكتبة الفكر الجديد

خنادقه ولا تسوّر أسواره ولا اجتياز متاريسه في يسر. إنّه فخ في ظلام دامس، والخلاص منه يقتضي جرأة كمن يوشك على القيام بمغامرة سعياً إلى ولادةٍ جديدة، ولكن كيف السبيل إلى هذا الاجتياز وذاك الخلاص؟

تفرش هي منديلاً أتت به على حافة الجدول وتجلس تتنسّم الهواء الطريّ وتنقّل بصرها في النهر الجاري برخاوة، بينما يذهب رمزي يزاول هواياته البستانيّة. فتارة يطارد الطيور بـ"نقّافته"، وطوراً يجمع حشائش لها لبّ حلوٌ يُمْضَغ، وآناً يسعى إلى اصطياد الفراش. يتسكّع في الغيط ثمّ يقفل عائداً إلى أحلام ويستقرّ في جوارها. يشقّقان الحديث في ما فعله وما أحجم عن فعله، في ما توفّق في اصطياده وما لم يحالفه الحظّ فيه.

ملّست أحلام بيدها رأس رمزي وأمرّتها على خدّه. تحسّست بشرته الناعمة وداعبت بأناملها شفتيه.

- أنا أحبك يا رمزي.

قالت وعيناها تفيضان رغبةً فيه.

- وأنا أحبّك يا أحلام.

عانقته مشتهية ومصّت شفتيه. ابتسم رمزي وعيناه تبرقان بفرح حبّها له.

أقبلت كرّة أخرى على شفتيه ومصّتهما ملتذّة حتّى تبلّلت. وماهي إلا أن جذبت يده فدسّتها بين ساقيها اللتين انحسر عنهما ثوبها وهي تقول له ساخنة مشبوبة:

- افرك هنا رمزي!

مكتبة الفكر الجديد

قام بما رغبت إليه والمرح يساوره وهي تضمّه وتبوسه وتحثّه بصوت وتّره الشبق:

- أقوى!

فاشتدّ يدلك موضعها الحسّاس ويقرصه كما لو أنّه يلعب معها، وعيناه تبصرانها مدهوشتين من فعل السحر الذي تحدثه أصابعه في جسدها.

- رويدك، لا تقرص!

غمغمت ووجهها يتوهّج حمرة.

نزعت سروالها وأخذت بيدٍ هيّجها الشبق يده ودسّتها في أنوثتها. فجالت أصابعه في لحمها الطريّ وهي تتأوّه بخفوت منتعظة منفرجة الساقين متّقدة، ولمّا بلغت الذروة أنّت أنيناً عميقاً منتشية وفاضت شهوتها. استرخت. التقطت أنفاسها. مالت عليه، قبّلت رقبته وأسرت في أذنه:

- أنا أحبّك كثيراً يا رمزي.

- وأنا أحبّك كثيراً يا أحلام.

ردّ وقد غمرت روحه فرحة الوفاء والإخلاص. سوّت ثيابها وهي تقول:

- لا تقل لأحد عمّا فعلنا!

- لا، لن أقول.

أرفق كلامه بهزّةٍ من رأسه.

- ولا لأمّك.

- ولا لأمّي.

مكتبة الفكر الجديد

- وسيبقى ذلك سرّاً بيننا لا تفشيه أبداً.

- بيني وبينك فقط.

- أسعيدٌ أنت؟

- إي.

- أتحبّ أن نكرّر اللعبة ذاتها مرّة أخرى؟

- كما تشائين. هل تعرفين كيف تُصْنَع شبكة صيد الفراش؟ لقد رأيت واحدة في مجلّة بساط الريح.

- سأقوم اليوم بصنعها لك حبيبي.

قالت أحلام فرحة مشفقة وهي ترمقه مبتسمة ابتسامة ملؤها العطف والحبّ.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثامن والعشرون

التفّاح المرّ

انقضى ذلك النهار وجثم الليل على الجبل والغابة، لكنّ بياض الثلج المتراكم على الصخور والسفوح والوديان قد أبهت ظلامه، فإذا هو يشحب فتتراءى عبره الطبيعة مشوّشة.

السلسلة المتصلة من الرجال تتقدّم شاقّة طريقها خلال ممرّ في الوادي ينحدر إلى تلك البيوت المحتجبة في جوفه، تدلّ عليها ومضات الأسرجة والقناديل المتسلّلة من خصاصها.

تلك هي قرية سيوتاله[1] الملتمّة على كتفِ مسيلٍ يستمدّ ماءه من سرّة الجبل.

وزّع أوميد رفقاءه على البيوت، كلّ واحد في بيت، وجرت العادة أن يحلّ آمر المفرزة ضيفاً على المختار أو كبير القوم في تلك القرية، وإذا تعذّر ذلك فأيّ منزلٍ آخر لا يضير كمأوى لقضاء

١ سيوتاله: التفّاح المرّ.

مكتبة الفكر الجديد

الليل حتّى تحين ساعة الرحيل.

والبيوت مثل باقي المنازل القرويّة في الجبال الكرديّة مشيّدة بحجر الجبل لها كوى وأبواب خشبٍ متينة، وسقفها من الطين المرصوص على شبكةٍ من جذوعٍ وأغصان غليظة، وقد تطلع إلى الأبواب أو تهبط منها في درجاتٍ لا تعدو أن تكون صخوراً مرتّبة وفق الاختلاف الطارئ على مستوى الأرض.

إلى جانب الأبواب أو فوق السطوح تجد فضلاً عن المحدلة الحجريّة تنّوراً وأكواماً من الحطب، بينما رائحة احتراق الخشب العطرة تملأ أنوف الطارقين في المساءات الشتويّة فتملّكهم تلك الرغبة الشديدة في التربّع تلقاء المدفأة متحرّرين من حمل السلاح وربقة حذاء السامسون.

طرق آشتي باب البيت الذي فُرِزَ إليه ففتح له فتى في نحو الرابعة عشرة من عمره، فبادره آشتي قائلاً:

- بيشمركة (فدائيّون).

رحّب الفتى لا إراديّاً. ذلك أنّ إيواء المقاتلين المتجوّلين في الجبال ليلاً بات سمة معروفة ومألوفة لدى القرويين في الأرياف الخارجة على سلطة الدولة العراقيّة.

دخل آشتي فغشيه الدفء وبعث في جسده راحة. احتواه الصمت وضمّته ظلال البيت الأنيسة وروائحه الذكيّة.

قاده الفتى إلى غرفة الضيوف المفروشة بالسجّاد والمجهّزة بكدسٍ من الأفرشة والبطّانيّات واللحف والمخدّات والشراشف.

نوّر القنديل وجعل يعالج المدفأة حتّى توقّدت نارها، بينما خلع

مكتبة الفكر الجديد

آشتي حذاءه وجلس إزاءها وبندقيّته حدّه، وما هي إلا دقائق حتّى عمّت حرارتها أرجاء الغرفة.

بعد انصراف الفتى الصامت دخلت عليه امرأة أربعينيّة بيضاء، ممتلئة، سوداء العينين، فاحمة الشعر، جميلة التقاسيم، ترتدي الزيّ الكرديّ النسويّ التقليديّ المؤلّف من ثوبٍ حريريّ سابغ ملوّن وسلّمت عليه. وضعت أمامه صينيّة فيها تين مجفّف وجبن وعسل وريحان ولبن وخبز وكأس ماء وقدح شاي وسكّريّة ومنديل مطرّز.

سما آشتي ببصره إليها في إعجاب ووله وأضاءت وجهه ابتسامة نديّة وهو يقول:

- شكراً خاتون.

بادلته بابتسامةٍ رقصت على شفتيها الكرزيّتين ورنت إليه وفي سواد عينيها لمعة افتتان. تصافحت الأعين وسرت في الهواء بينهما خفقة رغبة:

- إذا احتجت إلى شيء ناديني! أنا نرجس وابني (آوات) هو الذي فتح لك.

قالت في صوتٍ رقيق تخالجه لمسة إغواء، فردّ آشتي متهلّل الوجه ولا يدري كيف باحت شفتاه بما في سرّه من مشاعر إعجاب:

- شكراً لكِ، أنت كريمة يا نرجس وحلوة.

سرى الفرح في جسدها وطفح البشر على وجهها وابتسامة مرح تنوّر تقاسيمها وتشعّ من عينيها السوداوين الوسيمتين المترعتين بالاهتمام والعاطفة المتبادلة.

- أهلاً وسهلاً.

مكتبة الفكر الجديد

- أنا آشتي.

- أهلاً آشتي.

وكانت العادة أن يستقبل صاحب الدار الضيف ويهتمّ به، فتساءل آشتي مستدركاً:

- يبدو أنّ أبا آوات ليس في البيت؟

- أبو آوات أعطاك عمره من سنتين.

- الله يرحمه.

- الله يسلمك.

عقب فراغ آشتي من الطعام وبعد مرور فترةٍ ليست بالقليلة، أقبلت نرجس كرّةً أخرى وأنشأت تفرش الفراش على السجّاد وتنشر فوقه الشرشف واللحاف والمخدّة، وعندما انحنت إزاءه مادّة يديها لترفع الصينيّة بادر إلى مساعدتها مادّاً يده هو الآخر فتلامست أناملهما وتلاقت نظراتهما، فخفق قلباهما خفقة أشاعت في أساريرهما لطفاً ومحبّة. غضّت نرجس من طرفها كأنّها تداري انجذابها فتصدّ وهي المشتهية، بينما لم يغض آشتي وبقيت عيناه معلّقتين بتكويرات جسدها الذي يتثنّى في طيّات ملابسها، ولمحة اشتهاء تخامر نظراته.

بعد مغادرتها الغرفة نزع آشتي (الجمدانيّ) وحلّ (البشتيم)[1] كدأب الضيف ألاّ ينحّيهما إلاّ ساعة النوم احتراماً للمضيف.

خفّ إلى القنديل المعلّق على الحائط وأطفأه ثمّ اندسّ تحت الأغطية. لم يكن هناك حسّ فاستسلم للهدوء والظلام وسرعان ما غرق في سبات عميق.

---

١ البشتيم: الحزام القماشيّ.

تقدّمت خطى الليل، وفي شطرٍ منه، في غمار النوم عانقته. تضوّعت منها رائحة حلوة. أطبقت شفتيها على شفتيه. احتضن آشتي الجسد الملتصق به غريزياً وراح يبادل نرجس القبلات.

تعرّيا من ملابسهما الداخليّة. دسّت رأسها بين ساقيه فتناولته بشفتيها، وجعل هو يداعبها بين فخذيها بلسانه.

ساقته المتعة إلى الانغماس في المداعبة، فتارة يرضع ثدييها، وأخرى يملّس ردفيها وبطنها ويفرك شقّها. ونرجس تفتح له جسدها وتحتويه مشتهية وراغبة.

اعتلاها، دخلها وراح يرهز فوقها وهي تتأوّه ملتذّة.

صلبه مغروز في أعماق أنوثتها، يتوغّل في عريها وأنينها يتصاعد من شدّة انتشائها. هي محرومة وهو محروم وجسداهما متلهّفان إلى الجماع، إلى إشباع الرغبة، فجرفتهما الشهوات إلى النهل من اللذّة: يلعقان ويحكّان ويفركان ويقبّلان ويملّسان أعضاء بعضهما بعضاً.

يطؤها آشتي في هياج لا يكلّ، يرود جوفها صلباً، وتشدّه هي إليها لاهثة، تطوّقه بساقيها، تجذبه إليها، تحتوي كلّ ما في ذكورته من قوّة في غورِ أنوثتها، محتفظة بصلبه داخلها، لا تريد منه فكاكاً، وجسدها المضرّج بالشهوة وبرغبات متعطّشة أبداً إلى الارتواء والامتلاء يتلوّى تحته منجذباً إلى رجولته ملتهباً ومتأجّجاً.

وحتّى إذا اندمجا تماماً، البطن على البطن والفم على الفم ولم يكن ثمّة من فكاك، وحتّى إذا اشتعل جسداهما في زخم الشهوة المتّقدة وبلغا الذروة، أراقت نرجس في أنين عميق، حرّر آشتي جسده من أحشائها وأنزل على عانتها.

مكتبة الفكر الجديد

ارتخت أعصابهما. تمدّدا على الفراش فرحين، مبلّلين ومرتويين، وكان أن قال لها قبل أن تفارق مخدعه مبتهجة شبعى:

- نرجس انت أحلى تفّاحة ذقتها في حياتي[1].

أدركت المرأة مداعبته. أمسكت رأسه بيديها الاثنتين وقبّلت شفتيه ثم توارت مثل طيفٍ في حلمٍ من الأحلام.

---

١ تلاعب استعاريّ على كلمتي التفّاح المرّ من باب وصف الشيء بنقيضه.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل التاسع والعشرون

في الهواء أريج بخور

في ذلك الشتاء العاديّ من فصول السنة لا تفتأ الأيّام تحاكي بعضها بعضاً، تمضي مطّردة على نحوٍ رتيب: التمتّع بحرارة المدفأة في الليالي الباردة، الفجر يشقشق بلسعة بردٍ لا يمكث أن يفتر ويتبدّد، الأصباح الماطرة بين آونةٍ وأخرى، الأولاد في المدرسة، الظهيرة مسترخية بشمسها المؤنسة، نادية كدأبها تروح وتغدو بين المطبخ والغرف مستغرقة في شؤونها البيتيّة كنحلة، وغرفة إسماعيل التي يأتلق عند بابها في الظهيرة شعاع شمسيّ تبقى مسكونة بالهدوء، تتخلّلها روائح التبغ والأدوية والنفثالين والملابس العتيقة.

وهاهو بعد انتهائه من غدائه يرتدي بزّته الرماديّة وقميصه الأبيض، يربط رباط عنقه ويعتمر بيريّته، وفي عينيه عزيمة تندّ عن طويّة تتميّز بالعناد والرغبة في التغيير وحتّى التدمير. وكانت الساعة ما بعد الظهر ساعة قيلولته الروتينيّة، لذا لم يستغرب استفسار نادية حين لمحته ينصرف من حجرته ويجوز الفناء إلى الباب الخارجيّ.

مكتبة الفكر الجديد

- إلى أين إسماعيل؟

تعالى سؤالها من جوف المطبخ وهي تمدّ الطرف إليه من الباب المفتوح على الفناء.

- مشوار قصير وأعود.

- خيراً؟

- طارئ ليس بذي بال.

ثمّ ذهب لطيّته فيما بقيت هي تغلّفها ظلال المطبخ الذي يتناهى منه هدير موقد البريموس النفطيّ وطقطقة الأواني ونشيش القلي وروائحه وطشيش ماء الحنفيّة.

مشى إسماعيل على طول الطريق من محلّة نظران إلى البساتين خارجها. كان يسير بمحاذاة الجدران متجنّباً المياه الجارية والبرك والوحل، على خلاف المارّة الذين يخوضون فيها بلا مبالاة. فهو يعنى عناية خاصّة بتلميع حذائه وكي ملابسه حرصاً منه على الظهور دائماً بمظهر المعلّم الأنيق الرسميّ والوقور، مما يضفي على شخصه لمسة من الهيبة والجديّة والتفوّق.

على الرغم من الخواطر التي تجول في دواخله والأفكار التي تعتمل في أعماقه بما ينوي القيام به وما سيقدم عليه، لم يغفل أثر أشعّة الشمس الهادئة عليه، ولا الظلال الطريّة، ولا النسمات الحريريّة الخفاف التي تهفو أحياناً فتمسّ وجهه وتنعشه، وكان ينبهه من سهومه أحد المارّة من الطلاّب أو واحد من ذويهم، إذما يحييه مخاطباً إيّاه بكلمة أستاذ تعبيراً عن احترامه له وتقديراً لدوره في مجال التعليم.

واصل إسماعيل طريقه حتّى مفرق حارة الحساويّة، لم يستدر

مكتبة الفكر الجديد

يميناً ولا شمالاً بل تابع خطوه سالكاً الدرب الذي يقوده إلى منطقة صبخة العرب.

يتميّز هذا الدرب باحتشاد صفوف النخيل على جانبيه، فلا يرى الماشي إلاّ مدّاً من غابة نخلٍ مترامية الأطراف تضامّت جذوعاً وسعفاً حتّى انعقد منها سقف أخضر.

وصبخة العرب عبارة عن بيوتٍ من الطين متهالكة، وأكواخ من القصب ترفل بالغبار، وأزقّة متربة موحلة، ودكّان أو اثنين متواضعين شبه منارين في قتام كهفيّ، وبناء منخفض من الطين والخشب، لا بدّ أن يكون الحسينيّة كما هو بادٍ من أكفّ الحنّاء التي تلطّخ بابه ونوازل الشمع على حافات نوافذه.

في هذا الحيّ الشيعيّ الذي يقطنه أناس فقراء وتطير في سمائه الغربان والزرازير، وتجري في دروبه كلاب جرباء سائبة تنبح بلا سبب، وقطط ضامرة تجري هلعة، ينشط اعضاء حزب الدعوة متّخذين من الحسينيّة مكاناً للقاءاتهم، كما أسرّ إلى إسماعيل أحد اصدقائه من الطلاّب في أثناء حديثهما عن العمل الحزبيّ السرّي الذي تنتهجه القوى السياسيّة المعارضة في أحياء البصرة القديمة، وفي مقدّمها حزب الدعوة والحزب الشيوعيّ.

دلف إسماعيل إلى الحسينيّة التي تشبه إلى حدٍّ ما حسينيّة نظران، داخلها فسيح مضاء بالنوافذ الثلاث المفتوحة على الجادّة المنوّرة بالشمس. أرضيّتها مفروشة بالحصران القصب، وفي صدارتها منبر من الخشب مدهون باللون الأسود، من السقف تتدلى مروحة كهربائيّة ساكنة، وعلى الحيطان عُلّقت يافطات سود بحروف بيض

مكتبة الفكر الجديد

تلهج بذكر الحسين: "الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة"، "والله لن ننسى الحسين أبداً يازهراء[1]"، "ياحسين ياشهيد كربلاء[2]".

الهدأة عميقة وفي الهواء أريج بخور يسطع من عودٍ متجمّر شُكّ في الحائط.

صلّى إسماعيل ركعتين لذرّ الرماد في العيون ثمّ تناول مصحفاً من رف في الحائط وأخذ يقرأ فيه، ولمّا خلا له الجوّ في أعقاب انصراف المصلّين أخرج من جيبه مغلّفاً ودسّه في المصحف، ثمّ فعل ذات الشيء مع بقيّة المصاحف وغادر الحسينيّة. وكان قد وضع في المغلّفات نسخاً من الرسالة التالية التي كتبها في البيت والتي تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ المدعو جوني البحّار ومساعده رزّاق الأحدب يعملان مخبرين في مديريّة الأمن العامّة في البصرة. الله أكبر. (مراقب)

---

١ الزهراء: هي فاطمة الزهراء أمّ الحسين.

٢ كربلاء: البلدة التي قُتِل فيها الحسين مع أهله على يد الأمويين، عام ٦١ للهجرة.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثلاثون

هلمّوا أيّها العابرون السائرون في الليل البهيم!

لم يتسنّ لآشتي أن ينام إلاّ قليلاً بعد المواقعة حتّى بلغه قرعٌ على باب البيت الخارجيّ كان ينتظره، آن الأوان إذاً.

فتح أحدٌ من أهل الدار الباب ودار كلام خفيض في المدخل.

ارتدى آشتي ثيابه، تناول سلاحه وقبل أن يبارح الغرفة وفدت نرجس عليه، تعانقا، تباوسا ووشوشته:

- لا تنسني آشتي!

- لا، لن أنساك نرجس.

قال ثم توجّه إلى الخارج فوجد أوميد في انتظاره.

وكانت بقيّة المفرزة القتاليّة قد التمّت شيئاً فشيئاً، حتّى إذا تكامل عددها بدأت بمغادرة قرية سيوتاله صاعدة الجبل كرّةً أخرى ولكن من جهة ثانية.

صارَ الليل في هَدْئِهِ الأخير. السماء صافية منجّمة، الهواء عليل ولكن بارد، والمنافذ تتخفّى في الظلام فلا تتّضح إلاّ حين الاقتراب

مكتبة الفكر الجديد

منها، بينما المقاتلون يرودون المسالك التي سلكها المشاة في الدروب الجبليّة على الرغم من الثلوج.

كان قرار قيادة التمرّد الكرديّ يلزم فصيل أوميد بإنجاز غزوته الليلية هذي ضدّ الجيش العراقيّ بسبب محاصرته قرى (أولاخ لو، وسيوتاله، وبيتوش) وقطع الطرق عليها لكونها أرباضاً خارجة على سلطة الدولة.

فصار لابدّ من إضعاف قبضته وفكّ حصاره إذا أمكن، وإلاّ فإنّ أذى كبيراً سيلحق تلك القرى في هذا الطقس الجليديّ القاسي. ولكنّ هذا القرار قد يؤدّي إلى ردّ فعلٍ عنيف إذا ما استبدّت بقيادة الجيش لعنة العناد وبادرت إلى الردّ بإفناء الناس وإهلاك الزرع والضرع، ذلك محتمل أيضاً غير أنّ صبر قادة التمرّد قد نفد حيال الخنق المستمرّ المتعمّد لريف جبال قرداغ[1].

بياض الثلج يعين عابر المضائق الجبليّة ليلاً على سلوك الممرّات الوعرة والجروف الحادّة المشرفة على وديان عميقة، كما أنّ السير وراء بعض لسبر غور الجبل وأحراجه يحدّ من مخاطر الانزلاق والسقوط في مهاوي الوديان أو في وهدات وأخاديد مخفيّة تحت الثلج.

ولكن هذه الشعاب الجبليّة أمست سالكة خالية من كمائن الشتاء وفخاخ الطبيعة بعدما انبرى الناس يعبرونها بسبب قطع الطرق الإسفلتيّة العامّة، ولولا البساط الثلجيّ الأبيض الذي يرقّق العتمة

---

١ جبال قرداغ: هي الجبال الكرديّة العراقيّة الواقعة في الجهات الشماليّة الشرقيّة من الحدود العراقيّة الايرانيّة.

مكتبة الفكر الجديد

فيجعل الرؤية أسهل ولولا السبل الممهّدة تلك ما كان في استطاعة أحد أن يطرق جوف الجبل في الليل شتاءً إلاّ نادراً.

والفصيل الساري بالليل لا يحترز من الضوء فقط، وإنّما يلتزم جانب الحذر عند المشي، فلا حديث، ولا نداء، ولا شكوى، ولا تمهّل، بل دبيب وئيد بخطوٍ ثابتٍ، وتسلّل كتوم متواتر؛ ولكم ارتطمت الوجوه والرؤوس بأغصانَ الأشجار المتدليّة التي تغفل العين عنها في الظلام الدامس، على أنّ أحداً لا يحفل بذلك بل يتدارك الفجاءة وحده ويتابع السير مغضياً مقتفياً أثر من يتقدّمه، وإذا صدر صوت مريب من مصدرٍ خارجيّ طبيعيّ أو بشريّ يقتضي التحوّط فالكلّ يتريّث، أو يبادر إلى الانتشار إن كان ثمّة شكّ في خطرٍ داهم، إلى أن يتعيّن على القائد اتخاذ قرار ما بالمواصلة أو عدمها. بعد غابة مكلّلة بالثلج انساب أمام الفصيل سفح منحدر انحداراً سهلاً ومتدرّجاً نحو وادٍ مترامي الأطراف يسبح في بياض ثلج أبهت غياهب العتمة، بدا كأنّ الأرض تخلّت عن تجهّمها وعبوسها، وفتحت ذراعيها للقادمين مرحّبة أنْ هلمّوا أيّها العابرون السائرون في الليل البهيم.

توقّف أوميد ومدّ نظره باهتمام إلى الربيئة فوق ربوةٍ قدّامه على مسافةٍ بعيدة، وفي الجهات عن يمين وشمال على طول السفح تنتشر أشجارُ حور وصنوبر وبلّوط وسنديان.

وأوميد يرجّح استناداً إلى تجربته أن لا أحد يقظاً في مثل هذا الطقس الصقيعيّ غير جنديّ حارس واحد مقرور شبه نعس، يلتفّ ببطّانيّة في محرس الربيئة ويدخّن منتظراً انتهاء نوبته في فروغ صبر، هذا إذا لم يكن نائماً أو جالساً في الداخل يصطلي بنار المدفأة

مكتبة الفكر الجديد

المعدنيّة. فأولئك الجنود قليلاً ما يلتزمون جانب الحذر، أمّا قائد الربيئة فنادراً ما يكون موجوداً معهم، إذ يقضي أغلب أوقاته في مقرّ الفوج[1] كما تشير المعلومات المتوفّرة لديه.

الأرض الخلاء المحيطة بالربيئة تكون دائماً ملغومة إلاّ من مداخل ومخارج محدّدة يعرفها الجنود ويرصدها الأهلون على مرّ الزمن بالمراقبة فضلاً عن الاختلاط تحت غطاء المتاجرة مع الجنود لاكتشاف الموقع والوصول إلى نقاط ضعفه وقوّته. وكان أوميد على اطّلاع مسبق بجغرافية موضع الربيئة، وواقف على مواقع حقل الألغام والمحرس وعنبر النوم ومخزن السلاح وغرفة الميرة (المؤونة) وغير ذلك.

والربيئة من دون حظيرة البغال الملحقة بها صغيرة إلى حدٍّ ما، لا تتجاوز مساحتها رقعة بيتٍ عاديّ يتألّف من ثلاث غرف.

هبّ المقاتلون ينتشرون وفق خطّة متّفقٍ عليها سلفاً مع أوميد: أصحاب الأسلحة الخفيفة (الكلاشنكوف والسيمينوف والبرنو والجي ثري والفاز) في المقدّمة، وحملة الرشّاشات المتوسّطة أو أسلحة الإسناد (التكتريوف والآر بي كي والبي كي سي) في الخلف، ولازم المقاتل كاروان بقاذفه الصاروخيّ (الآر بي جي) أوميد.

الهدوء يسود الوادي، يجثم على الربيئة، والمقاتلون يتسلّلون كالثعالب متستّرين بالظلام والأشجار والأعشاب العالية، حتّى إذا انتهوا إلى أسفل الربوة التي تنهض عليها الربيئة جعلوا يراقبونها

---

[1] الفوج: يتكوّن من خمس كتائب، أمّا الجيش العراقيّ فيتألّف من الوحدات التالية: الفصيل، السريّة، الكتيبة، الفوج، اللواء، والفرقة.

مكتبة الفكر الجديد

ويرهفون السمع إليها.

ظُلَم الليل مثقلةٌ ببردٍ قارسٍ، الأرض مكسوّة بالثلج، والسماء تتغامز فيها النجوم المصقوعة القصيّة، وكان زفير المقاتلين يتعالى بخاراً في الهواء، وعيونهم تبرق بانتظار الاندفاع الأخير.

أومأ أوميد إلى كاروان بإطلاق قذيفة باتجاه المحرس. دوّى انفجار القذيفة في الوادي الساكن فتردّد صداه في الأمداء وانطلقت إثره لعلعة الرشّاشات.

جاء الردّ صاعقاً وغير متوقّع من رشّاشٍ ثقيلٍ في الربيئة حصد في الحال مقاتلين اثنين هما بختيار وخبات من حملة الأسلحة الخفيفة في رأس القوّة المهاجمة، بينما أسرع بقيّة الجنود إلى احتلال مواضعهم لدى أسوار الربيئة وعمدوا إلى إطلاق النار على المهاجمين، واشتعلت الأجواء بحمّى الاشتباك وأخذ المقاتلون يتقدّمون بجأشٍ رابط.

تردّد ضجيج الرمايات في جنبات الوادي، وتلامع الوميض في جوف الليل.

بين طاقم الربيئة كان الجندي جواد غير متحمّس للمعركة ولا راغب في القتال، يوجّه نيران رشّاشه إلى الفضاء بلا هدف، وأفكاره المعارضة بادية على عينيه الخضراوين المترعتين باللامبالاة في ما يجري حواليه، وخاطره ينزع به إلى الاستسلام للمهاجمين في أقرب سانحة تلوح له فينجو بنفسه ويرضيها في الوقت ذاته إخلاصاً لمبادئه.

رمى آشتي قنبلة يدويّة صوب الجنود فانفجرت في أحد المتاريس

مكتبة الفكر الجديد

وقتلت واحداً منهم. تسلّق المهاجمون سور الربيئة، اقتحموها وهم يطلقون الرصاص فاضطرّ باقي المدافعين إلى الاستسلام وكان من بينهم جواد الذي كاد أن يصرخ بالبنادق الموجّهة إليه: أنا شيوعيّ[1] لكنّ الرصاص لم يمهله حين فتح آشتي وأوميد وآرام النار على المستسلمين جميعاً فسقطوا مضرّجين بدمائهم.

وكان آسو قد نفذ إلى الداخل فألفى جنديّ المراسلة يتّصل بمقرّ قيادة الفوج، سدّد نحوه فأرداه.

صادر المهاجمون بغلين ومدفع هاون ٨٢ ملم وجهاز اتصال وأسلحة متنوّعة وعتاداً ومؤناً، أوسقوها البغلين وحملوا بعضها.

صبّوا ما في الصفائح من نفطٍ على الربيئة وأشعلوا النار فيها، وغادروها مسرعين قاصدين مقرّهم السرّي في جبل ناوزنك.

بعد فترة قصيرة حلّقت ثلاث طائرات هليكوبتر على الربوة:

- الربيئة تحترق سيّدي.

قال قائد السرب.

- اقتفوا آثارهم!

ردّ الصوت في مقرّ القيادة.

- الرؤية متعذّرة بسبب الظلام والأحراج.

أوضح القائد الطيّار وهو يمشّط المنطقة بحثاً عن المهاجمين. ولم يكن في ميسوره تمييز الشواخص على نحوٍ سليم، ومالبث أن سأل:

---

١ كان الحزب الشيوعيّ العراقيّ آنذاك في تحالفٍ سياسيّ مع البارزانيين في المناطق الجبليّة الشماليّة من البلاد، لكنّه لم يشارك في الحرب الدائرة بينهم وبين الجيش العراقيّ.

- هل نقوم بعمليّة إنقاذ لجنودنا سيّدي؟
- قوّة الإسعاف السيّارة في طريقها إلى الراقم[1].
- أوامركم؟
- أيقظوا سيوتاله من النوم!
- حاضر سيّدي.

أغارت الطائرات على قرية سيوتاله وأطلقت صواريخها على البيوت والأزقّة، فتعالت الانفجارات تصمّ الاذان، وارتفعت ألسنة اللهب تلعق الظلام، وثارت عاصفة من الغبار والدخان والحجارة المتفجّرة والسقوف المقذوفة، ومزّقت الشظايا الأجساد والأبواب والشبابيك، ولفّت الدمارَ أوشحةُ الدم والثلج والطين.

التهمت النيران البشر والحيوانات والبيوت، وفي الفضاء فاحت رائحة الفسفور والبارود، ولم يعد الناس الهلعون، الجرحى والفارّون، يرون أمامهم سوى جهنّم قد فتحت عليهم أبوابها فأصبحوا وكأنّهم في عذاب يوم الدين.

---

١ الراقم أو الربيئة: هي الوحدة العسكريّة المتواجدة في المرتفعات والجبال، كما هو متعارف عليه في الجيش العراقيّ.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الواحد والثلاثون

هبطت نادية إلى الفناء بادية الاضطراب

لا شيء خارجاً عن المألوف في محلّة نظران. الإيقاع عينه يجري على نسقٍ واحدٍ لسنوات وسنوات: أيّام عاشوراء، الصوم والأعياد، مناسبات الزواج والولادة والوفاة، القيام فجراً إلى العمل، الذهاب إلى المدرسة، التسوّق، الأوبة إلى البيت، القيلولة، النزهة عصراً، مباريات كرة القدم، كلّ أولئك يمرّ مروراً هيّناً غالباً، سلساً ومرناً، يتقدّم في جريان غير مرئيّ نحو أعماق الحياة بحكم العادة والتعوّد وتقبّل الأمر الواقع، ورضوخاً لسيرورة القضاء والقدر.

ولم تبدأ الهزّات المثيرة للقلق تحصل إلاّ بعد احتدام الشجار القائم بين الحزب الشيوعيّ وحزب الدعوة من جهة، وبين الحكومة من جهة أخرى. وحتّى نوبات هذا العراك لا تنفكّ تهدأ لفترات تطول ثمّ تتفاقم فجأة لتعود فتخمد، ناهيك عن أحداث أخرى متفرّقة، كانقلاب عربات الخيل في الشطّ لدى منعطف حسينيّة مقام الخضر أو إحضار جثّة جنديّ قُتِلَ في معارك الحرب الأهليّة الدائرة بين

مكتبة الفكر الجديد

الحكومة والأكراد، فتُعَدُّ لجنازته طقوس التكفين والدفن والعزاء.

يومياً في ساعة كهذه من العصر، ترقى نادية الدرجات الآجريّة إلى السطح حاملةً الطِّست.

ضوء السماء لا يزال يتوانى. الشمس تميل، تنكفئ نحو الغرب، أشعّتها تبهت. الظلال تهيمن، ويشرع الهواء يبرد.

في السطح الأسرّة عارية من الأفرشة توحي بالوحشة، فالناس ينامون في الغرف وقت الشتاء، وحبال الغسيل ممتدّة بين الأسيجة تتدلّى منها الثياب. من شارع نظران تحت تُسْمَعُ ضجّة السيّارات ورنين أجراس الدرّاجات الهوائيّة.

في ذهنها ترى نادية ابنتيها جالستين قبالة التلفزيون الأسود والأبيض المفتوح على القناة الكويتيّة تتابعان المسلسل المصريّ خيال المآتة.

جعلت تحرّر الثياب من الملاقط، تسوّيها وتضعها في الطست تاركة الملاقط وحدها معلّقة على الحبال.

أغلق إسماعيل على نفسه بابي الغرفة وسدّ الشبّاك.

اتّجه نحو المكتبة فانعكست هيئته في المرآتين اللتين تزيّنان درفة الخزانة وطاولة الزينة. بان نحيلاً في بيجامته القطن البيضاء المقلّمة بالأصفر والمتهدّلة على عظامه.

أرسل بصره إلى كتاب مذكّرات تشرشل ومجلّد مجلّة العصور. أزاح بعضهما عن بعض ودسّ يده في المجال الكائن بينهما وبين جدار المكتبة الخلفيّ، حتّى إذا ألمّت أصابعه بما يتوقّعه ويبتغيه سحبها وهي مطويّة على مجلّة ملوّنة صقيلة الورق.

مكتبة الفكر الجديد

استوى على الكرسيّ أمام طاولة الزينة وراح يتصفّح المجلّة، يمعن النظر في صورها ملتهب المشاعر منجذباً إلى الأجساد البيض المتعانقة في أوضاعٍ مهيّجة: نساء عاريات مفتوحات الأفخاذ يلجهنّ ذكور بأعضاء ضَخمة، نساء يضعن آلات في أفواههنّ أو فتحاتهنّ. أناث واقفات منحنيات قاعدات مستلقيات منبطحات يستقبلن ذكوراً من أمام ومن خلف، من فوق ومن تحت. ورجال عراة بارزو العضلات يعتلون أفخاذاً وأردافاً وبطوناً، ويعصرون نهوداً. نساء فوق رجال، ورجال فوق نساء، متشابكو الأعضاء، متلاحمو الأجساد، صاعدون ونازلون، صاعدات ونازلات، يدخل بعضهم في بعضٍ منهمكاً في الدعك والفرك والتمليس والتقبيل واللحس. والكلّ يمتطي الكلّ في بهجةٍ ونشوةٍ ولذّة. الأطراف مفتوحة ومرفوعة، مطويّة ومشدودة ومنتصبة، والأعضاء كبيرة طويلة ثخينة ملساء أو مشعرة. الشهوة تراق على الشفاه والبطون وفوق الفتحات، والوجوه الحلوة منتشية من قوّة اللذّة وفرط الباه واندفاع الشهوة وبلوغ الذروة.

وإسماعيل ينقّل ناظريه بين الصور منتعظاً، ذاهلاً، مأخوذاً بمشاهد العري، متمتّعاً بلذّة ما تصنع من أثرٍ في خياله وجسده.

الضوء الأصفر الضئيل ينوّره وهو ساكن منكفئ على ما أمامه. ذقنه نام وشعره فاقع البياض على سحنته السمراء الداكنة، والأجساد البيض المندلقة على طاولة الزينة معروضة له ومفتوحة لرغباته.

كان رمزي وصديقه حسن إيبارا يقفان مستندين إلى الحاجز الحديديّ الذي ينظّم الطابور قدّام المخبز المغلق الأبواب الآن يتبادلان الأحاديث.

مكتبة الفكر الجديد

جماعة من شباب الحارة يتجمهرون حول دكّان مسعود القزم كعادتهم عصراً، من بينهم رزّاق الأحدب وجوني البحّار، وكانت قد راجت الإشاعات عنهما بصفتهما من رجالات السلطة الأقوياء، وصارا هما في ذات الوقت يتباهيان بمكانتهما المزعومة مستخفّين بكلّ من تسوّل له نفسه الخروج على سيادة القانون.

أمسى الناس يتملّقونهما ويخشونهما، وباتا مصدراً من مصادر القوّة في المنطقة، وما فتئا مع مرّ الزمن أن تحلّلا من الحذر والسريّة في نشاطهما، وأخذا يتصرّفان بلا تحفّظ، مادام العمل مع الدولة يضفي عليهما هالةً من الأبّهة والسطوة والرهبة.

كان هذا العصر سادراً في هدوئه فعلاً حين جازت سيّارة عاديّة مبنى حسينيّة مقام الخضر وانعطفت إلى شارع نظران متهادية نحو دكّان مسعود القزم، حتّى إذا بلغته تأنّت وبرزت من نافذتها الأماميّة فجأة فوهة بندقيّة رشّاشة، انطلقت منها زخّة من الرصاص باتجاه جوني البحّار ورزّاق الأحدب، ثمّ توارت عن الأنظار مسرعةً في غمرةٍ من هدير المحرّك وأطيط العجلات.

كان لدويّ إطلاق النار فعل انفجار البركان في الحيّ، فلقد أطلق ساقيه للريح كلّ من كان متواجداً في المكان حينذاك، وبقي جوني مرميّاً على الأرض ينزف ويئنّ، ورزّاق على مقربةٍ منه جثّة هامدة ملطّخة بالدم، أما رمزي وحسن فقد هربا ناحية بستان ساهي.

جفل أستاذ إسماعيل، ارتجّت يده وأفلتت المجلّة. جرت نادية إلى أسفل بادية الاضطراب تناديه.

هبّت البنتان من أمام التلفزيون ووقفتا بباب الحجرة تشخصان

مكتبة الفكر الجديد

بصرهما صوب الباب الخارجيّ.

تدارك إسماعيل حاله، سوّى ملابسه وسارع إلى دسّ المجلّة في مخبئها بين الكتب قبل أن تندفع نادية إلى الغرفة داخلة عليه.

اشتمل بمبذله الذي حال لونه من كثرة الاستعمال على عجلٍ فوق بيجامته وهو يقول لها:

- الزمي البيت أنت والأولاد، أنا ذاهب لأتبيّن جليّة الأمر!

قطع الفناء إلى الباب الخارجيّ وغادر الدار. كانت الحارة مشوبة بالتوتّر والحذر والناس يتخاطبون بأعلى أصواتهم، ينادي بعضهم بعضاً، يروحون ويجيئون في فورةٍ من الإثارة والانفعال، وألسنتهم تجري بما حدث ومايظنّون قد حدث.

قدّام الدكّان طالعه نفرٌ من الرجال المتجمهرين حول رزاق الأحدب المنطرح على الطريق غارقاً في دمه ومستقبلاً الأرض بوجهه كمن فارق الحياة، فيما كان جوني إلى جانبه مضرّجاً بالدم يئنّ، وقد أصاب الرصاص كتفه وذراعيه.

منع الناس زهور من الوصول إلى مسرح الحدث إلاّ أنّ عويلها كان يقرع مسمع إسماعيل.

ولمّا لم تكن ساعتئذٍ أيّة سيّارة متوفّرة سعى الرجال إلى وضع جوني ورزّاق على عربة خيل ساقها خميس الأسود إلى الشارع العام، حيث نقلتهما إحدى سيّارات الأجرة إلى مستشفى البصرة الجمهوريّ.

آب إسماعيل إلى بيته. قصّ ما عرفه في كلمتين لطمأنة النفوس، على أنّ نادية ما انفكت تستقصي قلقة:

مكتبة الفكر الجديد

- أين رمزي؟

- في مكانٍ ما، لا تشغلي فكرك!

- أين تعتقد؟

- ومن يدريني أين يولّي.. في البساتين أو بين الأنهار، هذا الولد فالت لا يهدأ ولا يستقرّ.

- أنا خارجة للبحث عنه.

- أين تجدينه، طوّلي بالك، سيعود وحده!

في تلك الأثناء تعالى رنين الجرس. خفّت نادية إلى الباب وفتحته، فإذا رمزي يرتمي في حضنها مبهور النفس.

احتضنته وقادته إلى حيث أختاه في غرفة التلفزيون وأوصته بالركون إلى التعقّل وعدم مغادرة البيت حتّى اليوم التالي.

قفلت عائدة إلى إسماعيل فوجدته منشغلاً بتسوية الكتب في المكتبة.

- ومن أطلق النار عليهما؟

استفهمت وهي تستقرّ على السرير.

- ومن أدراني؟ فهذان الرجلان تجبّرا وتغطرسا. أليست هذه هي النهاية الطبيعيّة لهما؟

إنّ التجسّس على الأحزاب ليس بنزهة.

- رزّاق يستحقّ لأنّه واطئ، أمّا جوني فلا، عنده زوجة وطفلة.

- لا رادّ لقضاء الله.

بدأت الظلال تنشر دثار المساء على الحوش وصوت التلفزيون يتردّد في السكون.

مكتبة الفكر الجديد

- أسمعت؟

قالت نادية.

- ماذا؟

- سميرة الكلدانيّة فرّت مع يوسف إلى لبنان.

- حلو، أفضل من العيش في ثقب الخراء هذا الذي نعيش فيه.

قال ذلك واحتلّ الكرسيّ عند طاولة الزينة ولفّ رجلاً على رجل حيال زوجته.

- ألا تجد ألفاظاً أفضل لمدّ الحديث؟

- وماذا في ذلك؟ علينا أن نصف الأشياء كما هي وعلى حقيقتها كيلا نخدع أنفسنا ونقع في الأوهام.

- عدنا إلى الفلسفة.

شاب اعتراضها سخرية واضحة وقامت لبعض شؤونها.

- ليست بفلسفة. الوعي خاصيّة جيّدة عند الفرد إذا ما استغلّه رأى الأشياء على نحو أوضح، وأعطى أحكاماً أصح.

بدا كأنّه يتحدّث إلى نفسه ثمّ عاد إلى سهوه يتأمّل تقاسيمه المتعبة في المرآة.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثاني والثلاثون

عين الحلوة

شعاع من ضوء الشمس سقط على وجه سميرة فاستيقظت وانتبهت إلى الأصوات الصادرة من بيت الجيران.

لقد سها عن بالها أن تسدّ النافذة المشرفة على فراشها وتسدل الستارة عليها. لكنْ لا، لقد قرع أحدهم الباب وانصرف، ذلك ما نبّهها، لقد أفاقت. نقلت خطواتها إلى المطبخ في مشقّة بادية بسبب حملها وشرعت تعدّ ركوة قهوة. عبق القهوة ملأ أنفها وأنعشها.

وقر في ذهنها أن تلقي نظرة على بسطة الدرج الخارجيّ أمام باب البيت، وكان حدسها في محلّه. لقد ترك لها أحد الفدائيين الفلسطينيين تموينها الأسبوعيّ: صندوق برتقال، قطعة لحم ملفوفة في جريدة، عبوة بنّ ماركة نجّار، صفيحة زيت زيتون، حاوية زيت ذرة، علبة حلاوة طحينيّة، سكّر وشاي وبيض، معلّبات لحم وبُسلى وحمّص وفول، نصف عدل رزّ ومثله عدس.

مكتبة الفكر الجديد

نقلت المؤونة على دفعات إلى الفناء لحملها في ما بعد إلى المطبخ.

يقع هذا البيت المؤلّف من غرفةٍ وحوش وملحقات في الطابق الثاني من بناية ذات طابقين تطلّ على زقاق من أزقّة بستان اليهوديّ[1].

في الطابق الأرضيّ يقيم أحد ضبّاط المقاومة الفلسطينيّة مع عائلته.

عندما فرغت سميرة من إعداد قهوتها، حملت الركوة إلى بسطة الدرج التي تتوّج السلّم الهابط إلى الزقاق مباشرة.

كانت سقوف البيوت تشتعل بوهج الصباح والمخيّم يمور بالحركة.

وضعت سميرة الركوة المغطّاة بصحن وفنجان على حاجز الدرج، واستقرّت في كرسيّ كانت قد تركته في ظلّ الحائط لهذه الغاية، وغدت تحسو قهوتها بأناة بينما هدير السيّارات وزماميرها ونداءات الفدائيين تُسْمَعُ آتية من المخيّم. على أنّ الأصوات لم تفسد عليها جلستها، ولم تصرف انتباهها عمّا هي عليه من خلوةٍ مع نفسها. لقد اعتادت ذلك وألفته مذ مُنِحا هذا البيت إثر تطوّعهما هي كممرّضة ويوسف كفدائيّ في صفوف الجبهة الفلسطينيّة، بعد وصولهما إلى مخيّم عين الحلوة قادمين من مخيّم الجليل في مدينة بعلبك البقاعيّة، حيث أقاما وقتاً لم يَدُم.

لا تفتأ الوقائع تدور في خلدها، تلفّها في دوّامة دائمة من القلق،

---

[1] بستان اليهوديّ: أحد أحياء مخيّم عين الحلوة الفلسطينيّ الواقع في مدينة صيدا بجنوب لبنان.

مكتبة الفكر الجديد

ولا يلبث الخوف يتملّكها في خضمٍّ من الهواجس، في حال تمّحي فيها الآمال.

يشقّ عليها وهي على وشك أن تضع وليدها أن تغالب الأيّام وحدها، ذلك منذ أن طرق بابها فدائيّ شابّ وأخبرها بالأمر، فذهبت مسرعة إلى مستشفى سعد صايل في جبل الحليب[1].

كان يوسف يرقد في غرفة الطوارئ فاقد الوعي. نفسه واهن، عيناه مغلقتان، خيط من زبد عالق بزاوية فمه، وتراب يلوّث بنطاله.

السكون يسود الغرفة إلاّ ما يبلغها من جلبة صادرة من الخارج، وطبيب تعرفه، كانت قد عملت معه ذات مرّةٍ يقوم على إسعاف يوسف محاولاً إيقاظه من غيبوبته.

أخبرها ردّاً على تساؤلها عمّا ألمّ به:

- جرعة مخدّر كبيرة على الأرجح.
- يوسف لا يتعاطى...
- هذا ما عرفته من الشباب الذين نقلوه إلى هنا.

بعد القهوة قامت إلى الداخل لتغيّر ثيابها، ثمّ عادت تنزل السلّم رويداً معتمدة على حاجزه، حتّى إذا استقرّت على الأرض درجت في الزقاق إلى الشارع الفوقانيّ في مخيّم عين الحلوة، عابرة مجاري المياه السطحية الراكدة التي تتخلله.

هذه المنطقة برمّتها تقع في الحقيقة خارج المخيّم، لكنّها أضحت مع مرّ الزمن امتداداً له بسبب موجات النزوح من مخيّمات فلسطينيّة أخرى تعرّضت إلى الدمار والإبادة خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة.

---

١ جبل الحليب: حيّ في مخيّم عين الحلوة.

مكتبة الفكر الجديد

الفضاء مضوّء بنور الشمس. الغبار يسبح في الهواء بفعل حركة المركبات المدنيّة والعسكريّة، والسابلة يغدون ويروحون بين المخيّم وحيّ التعمير الذي يليه أو أبعد صوب أرجاء مدينة صيدا.

على مقربةٍ دانية طالعها حاجز الشرطة الفلسطينيّة في مدخل المخيّم، وأعلام فلسطين وصور القائد ياسر عرفات تزيّنه.

مضت تمشي شطر جبل الحليب ولمّا تكد تنتهي إلى مفرق الأنروا[1] – السوق حتّى وقفت بمحاذاتها على حين غرّة سيّارة جيب يقودها شابّ يتبسم لها ويقول:

– اطلعي رفيقة سميرة!

عرفته. إنّه مسؤول المليشيا في الجبهة. صعدت إلى الجيب واستوت قاعدة في جواره وهي تقول:

– أنا في طريقي إلى مستشفى سعد صايل.

– كيف صار يوسف؟

– لا جديد.

تحرّكت السيّارة ملتزمة جانب الحذر، دابّة على الرغم منها دبيباً بطيئاً في شارع السوق الضيّق المزدحم بالمتاجر والدكاكين، وبمجرّد أن تحرّرت من الزحام اندفعت كأنّ جنيّاً ركبها ولم تتوقّف إلاّ قدّام المستشفى.

ترجلت سميرة شاكرةً للشابّ حسن صنيعه ودخلت المستشفى.

يشعر المرء بالفارق بين الضجيج والزحام والشمس والهواء المغبر في السوق وبين الهدوء المقيم في الأبهاء المنارة بمصابيح

١ الأنروا: وكالة غوث اللاجئين التابعة لهيئة الأمم المتّحدة، ولها مكتب في المخيم.

مكتبة الفكر الجديد

الفلورسنت، لكنّ ذلك لم يلفت انتباه سميرة لكونها تعوّدته من جهة ولأنّها مثقلة بالحزن، مضطربة الروح، تهجس خيفة من المجهول.

واجهها الفراغ حين وفدت على الغرفة، ولفّها الوجوم. لقد كان فراش يوسف خالياً.

هاهي عشرة أيّام قد مرّت على سقوطه في الغيبوبة.

جزعت، رسمت شارة الصليب على صدرها، وفزعت إلى الرواق بعينين دامعتين، وجهها شاحب وهيئتها مرتبكة، فإذا هي قبالة ممرضة منشغلة باصطحاب مريضٍ عجوز إلى غرفته. تبادلا التحيّة واستفسرتها سميرة عمّا جرى لزوجها، فتمهّلتها تلك معتذرة حتّى تفرغ من أمر العجوز أولاً.

مسحت سميرة دموعها واقتعدت مصطبة في الرواق وعلى وجهها نظرة ذاهلة.

بعد لأي عادت الممرّضة أدراجها واستقرّت إلى جانبها وهي تقول لها بوجه حزين أسيف:

- البقيّة في حياتك.

تماسكت سميرة على الرغم من شعورها بالانهيار، لكنّ دموعها عادت تسيل على قسماتها الشجيّة.

- وحياتك الباقية.

ردّت.

- البارحة صار إلى رضوان الله. والطبيب طلب من الممرّض الخفير إبلاغ ذوي الراحل بالأمر، لكنّ الممرّض كما يبدو نسي أو لم يتأتَّ له الوقت اللازم لأداء مهمّته على أكمل وجه. والمرحوم الآن

مكتبة الفكر الجديد

في قسم حفظ الراحلين.

- لا عليك سأتدبّر الأمر.

كان صوتها متهدّجاً وبدت مريضة.

- هل أنت على ما يرام؟ ألا تريدين أن يفحصك الطبيب؟

- أنا بخير سأذهب للقيام بواجبي الأخير إزاء زوجي.

- سأرافقك إذاً.

- ذلك لطفٌ منك.

قامت المرأتان ومضتا إلى حيث برّاد حفظ الجثث.

* * *

درب السيم الترابي الذي تعمّه سكينة شاملة يبين الآن طويلاً برغم قصره تحت أقدام سميرة الملزمة بمجاراة المشيّعين المتقدّمين في تؤدة وعلى ملامحهم ترتسم التعابير المأتميّة، فضلًا عن الشمس اللافحة، إذ لاظلال هنا ولا شاخص يحاذي هذه البقعة الواقعة في ضاحية المخيم الجنوبيّة غير تمثال العذراء (سيّدة المنطرة) الذي يطلّ عليها من ربوة بلدة مغدوشة.

في مقبرة المخيّم توقّف الرتل وحاملو النعش، وانتحت سميرة جانباً دانياً من الناس على حافة الدرب.

حتّى إذا غيّبوا التابوت في الأرض تملّكها شعور بأنّها غيّبت مرحلة قصيرة من حياتها، وأنّها ضائعة تعجز عن تبيّن الوجهة التي ستيمّم وجهها شطرها كأنّها فقدت حسّها بالاتجاه.

مكتبة الفكر الجديد

رسمت شارة الصليب وقفلت عائدة إلى دارها بسيّارة الجبهة الفلسطينيّة.

بعد أن وضعت ابنها بارحت مخيّم عين الحلوة إلى مخيّم شاتيلا في بيروت للعمل في مستشفى غزّة بعونٍ من المسؤولين في الجبهة.

رغبت إلى والديها أن يقيما معها في بيروت لأنّها لا تقوى على العودة إلى البصرة خشية تعرّضها للنبذ في أوساط المسيحيين لاقترانها بمسلم، فأبديا تجاوباً مع رغبتها شريطة أن تعمّد حفيدهما كمسيحيّ، وكان لهما ما أرادا.

قصدا بيروت بعد أن باعا البيت وأقاموا جميعاً في منزلٍ مشمسٍ في الحيّ الغربيّ المجاور لمخيّم شاتيلا.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الثالث والثلاثون

انفجرت كرة من النار، لمعت في الظلام

الليل يعمّ العالم. النجوم تتألّق في أعماق السماء المظلمة. الصمت مشروخ بنباح كلابٍ ناءٍ متقطّع يصل خافتاً. وفي الهواء نفحة حارّة ولمسة رطوبة. سلوى غارقة في نوم تقطعه أحياناً يقظات طفلهما الراقد في مهده إلى جانب فراشهما، وجهها صافي القسمات، متفتّح ومطمئن، وتنفّسها الهادئ يتهادى إلى مسمع بدر المستلقي في جوارها يقظاً.

كانت تنام بسهولة على خلافه هو، إذ غالباً ما يمضّه الأرق وفكره مشغول. يجافيه النوم، أجفانه مفتوحة وعيناه تحدّقان إلى أعلى، شتاءً نحو السقف وصيفاً إلى السماء، يتقلّب، يغالب خواطره وهواجسه.

انسلّ من الفراش المستور بكلّة من الموسلين الخفيف واتجه إلى الدرج بحذر كيلا يحدث جلبة تقلق النائمين. لم يشعل الضوء إنّما واصل النزول في العتمة مهتدياً بحاسّة التعوّد ومتلمّساً الحائط إلى يمينه، ولمّا وصل إلى أسفل خفّ إلى الغرفة التي جُعِلَت مخزناً. أضاء

مكتبة الفكر الجديد

المصباح فانكشفت الأشياء في النور مكدّسة على الأرض ومعلّقة على الحائط.

وضع عليه ملابس عمل قديمة، لبس قفّازيه، تلفّع بكوفيّته وحمل العدّة التي كان قد جهزّها من قبل: حاوية بانزين، مدية، وعصا عقد في طرفها فوطة وخرج.

كان الشارع المحاذي لنهر العشّار فارغاً في هذا الوقت من الليل كما توقّع. الأزقّة نادراً ما تطرقها الأقدام. منازل الحيّ المنخفضة ترين عليها السكينة، لا أحد.

مصابيح الأعمدة تنير الطريق، تلقي ضوءاً كئيباً على فراغ موحش.

تقدّم مسرعاً مسافة خمسين خطوة حتّى وصل إلى الفسحة الواقعة أمام بيت الملاّ ودكّانه.

الزقاق الصاعد إلى عمق الحيّ مقفر. البيوت منكفئة على أهلها النيام، يلفّها الصمت الذي يسود الضفة الأخرى من النهر أيضاً، حيث ملعب كرة القدم ومنازل الشناشيل العتيقة.

صار في جوار الحسينيّة، في جهتها المطلّة على الزقاق، عند نافذة تدعمها قضبان رفيعة صدئة مكسوّة بشبكة من السلك المهترئ لصدّ الحشرات.

للحسينيّة ثلاث نوافذ: اثنتان على جانبي الباب تنفتحان على الطريق مباشرة وهذه الثالثة، وكلّها زرقاء مرشومة بأكفّ محنّاة، وعلى حوافها الدنيا تتيبّس نوازل الشمع الذائب.

انتبذ بدر مكاناً في ظلال الحائط خارج دائرة الضوء، وكان العمود الكهربائيّ ينتصب على حافة الطريق على قيد خطوات منه.

مكتبة الفكر الجديد

قام بشقّ شبكة النافذة التي من شدّة اهترائها راحت تتقطّع بسهولة ويسر كلّما أغمد السكّين فيها، فتتهدّل منفرجة عن ثغرةٍ واسعة، تبين من وراءها الظلمة المدلهمّة في جوف الحسينيّة.

رفع الحاوية بعد أن نزع غطاءها إلى خرق النافذة وقام بصبّ البانزين في الداخل إلاّ قليلاً بلّ به الفوطة في رأس العصا، ثمّ طوّح بالحاوية إلى سطح الحسينيّة.

خلع القفّازين وقذفهما إلى السطح أيضاً. أخرج علبة ثقابٍ من جيبه وأشعل رأس العصا، فهبّ ملتهباً كمشعل وهّاج ماعتم أن رماه من فتحة النافذة إلى الداخل، فاذا كرة من النار تنفجر، تلمع في الظلام وتتعاظم لهباً مستعرّاً شرع يشبّ مندفعاً من النافذة.

عاد بدر راكضاً الخمسين خطوة إلى القصر واختفى وراء بابه، والنار المندلعة في الحسينيّة تسري بسرعة كبيرة وتنتشر، يغذّيها ذلك الخشب العتيق والقصب.

فالتهمت النيران بشراسة فائقة النوافذ والباب والمنبر والحصران والحيطان ومواد التحنيط والتكفين واليافطات والسبح والمكانس وسلال القمامة والمصابيح والأسلاك وصندوق التبرّعات والسمّاعات والمراوح والصور وعدّة الشاي والتُرَب[1]، حتّى تحوّلت الحسينيّة إلى كتلةٍ مضطرمةٍ عارمةٍ من النار كأنّها فرن محميّ تصاعدت منه ألسنة لهبٍ لفحت صفحة السماء.

توالت الصيحات وتتابعت النداءات وتواصلت صرخات

---

١ التُرَب: قطع من الصلصال، أصلها من مدينة كربلاء، يُسْجَد عليها في الصلاة وفق الطقوس السائدة في الطائفة الشيعيّة.

مكتبة الفكر الجديد

الاستغاثة، نفرٌ يركضون، وجماعة يقفون يعروهم الذهول لا يدرون ما يفعلون، وناس يجلبون الماء من النهر يريدون إطفاء الحريق، غير أنّهم كانوا يناوشونه مناوشةً لا تنال منه ولا توقفه، فوقدة النار تمادت وامتدّت إلى بيتٍ قريب، وباتت تزحف مهدّدةً البيوت الأخرى القديمة المقامة من الخشب والقصب والطين. فانتشر القلق بين الناس، شاع الخوف، واضطربت النفوس وهي تذهب وتجيء تحمل جرادل الماء من الشطّ لإطفاء ما لا سبيل إلى إطفائه.

غسل بدر يديه، غيّر ثيابه، ثمّ رقي الدرجات إلى السطح فطالعه وهج الحريق يضيء السماء في مشهدٍ مهيب. أزاح طرف الكلّة واندسّ في الفراش إلى جانب سلوى التي وجدها مستيقظة فبادرها متسائلاً:

- ما الذي أيقظك؟

- زمامير السيّارات، الصراخ، النداءات، والضجّة فوق السطح، أين كنت؟

- ذهبت أرى ما الأمر.

- ماذا يجري، كأنّه عرس.

- آ، عرس. الحسينيّة تحترق، انظري بنفسك!

فرجت الكلّة وألقت نظرة، فإذا السماء منوّرة بالنيران. فالحريق المحتدم ما نشِبَ أن دهم البيوت القريبة منه.

عانقها بدر واستغرقا في الضمّ والتبويس.

أزاح منامتها الشفّافة وجذب سروالها. كان منتعظاً. اندسّ بين فخذيها العاريتين وهو يقول:

مكتبة الفكر الجديد

- العالم القديم يتهاوى.

انصاعت سلوى لرغبته فاتحة جسدها له. دخلها وجعل يرهز فوقها وطرف عينه معلّقٌ بأضواء الحريق المرئيّة من خلال فرجة الكلّة، مما زاد تهيّجه وشبقه واشتداد شهوته ورغبته في المواقعة والرهز، حتّى أخذ يطأ امرأته بقوّة كأنّه يحرثها على إيقاع النار التي راحت تلتهم المبنى المقدّس، ولمّا رأى في صورة عقله أنّ الحسينيّة قد أمست كومةً من رماد بلغ الذروة وانبثق ظهره، فأراق منتشياً.

مكتبة الفكر الجديد

الفصل الرابع والثلاثون

على الصليب

القتال يستعر ويخفّ ثمّ يعاود الانفجار. الأجواء محمومة بالعنف والقتل، ورُسُل الموت يحومون في الشوارع. دويّ انفجارات ولعلة رشّاشات ثقيلة تُسمَع من الكولا والفاكهاني والمدينة الريّاضيّة[1].

في الشوارع تمرق سيّارات عسكريّة تنهب الأرض في جنون، وأعلى البنايات يتربّص القنّاصون بحركة المدينة. النازحون يذهبون إلى جهات شتّى بوجوه مكفهرّة وخطوات ضائعة، والمسلّحون يفدون من أكثر من مكان، وفي عيونهم تلمع نظرات العناد والشراسة، حتّى إذا التقى الطرفان غضّ النازحون أبصارهم ومضوا في سبيلهم يجرّون أطفالهم مسرعين على حذرٍ وخوف.

الكهرباء مقطوعة، لا ماء ولا خبز. كانت أم سميرة تلقي نظرة قلقة من خلال الشبّاك إلى الشارع حينما رأت مسلّحين كتائبيين نابتي

١ الكولا والفاكهاني والمدينة الريّاضيّة مناطق في بيروت.

الذقون شعث الشعور برفقة جنودٍ إسرائيليين يقتحمون طرقات الحيّ الغربيّ في وضع اجتياح وسيطرة، فانكفأت إلى الداخل. زوجها يرقد في غرفة النوم وحدّ سريره علب أدويته وكأس ماء، وفوقه على الحائط أيقونة بيزنطيّة تمثّل السيّدة العذراء والطفل يسوع.

يتألّف هذا البيت من غرفتين متجاورتين بنافذتين تنفتحان على الجادّة الموصلة إلى مخيّم الداعوق[1] وثالثة بمثابة غرفة استقبال متّصلة بالمجاز والباب الخارجيّ، ولها شبّاك يطلّ على الحيّ الغربيّ.

إطلاق النار في الحيّ يتزايد وسط جوٍّ مفعم بصرخات الرعب، والهدير، وجلبة السيّارات، والنداءات الآمرة، وصيحات الاستغاثة والتوسّل.

أدرك أم سميرة الخوف ولبثت محتارة متردّدة بين البقاء والرحيل، ولكنّها لا تملك أن تحمل حفيدها وتغادر الدار تاركةً وراءها زوجها، فهو شبه مُقْعَد فضلاً عن مرضه الشديد، بَلْهَ أنّ خروجهم الآن غير محمود العواقب.

لكم تمنّت لو أنّ سميرة إلى جانبها في هذه الساعة، لا شيء أدعى إلى الحزن من وجودها بعيدة منها وهي على هذه الحال.

كانت تسرّ لنفسها أنّها في الأقل اختزنت كميّة لا بأس بها من المياه، عبّأت البانيو والحلل والجرادل كما وفّرت مؤونة لها شأنها في زمن الحرب مثل علب اللحم والفول والحمّص والزيت وكميّات من الطحين والرزّ والسكّر والشاي.

ما فتئت تذهب وتجيء من جرّاء قلقها، تنتقل بين الغرف وتحاول

١ الداعوق: مخيّم فلسطينيّ صغير يقع بالقرب من مخيّم شاتيلا في بيروت.

مكتبة الفكر الجديد

إنجاز ما تستطيع إنجازه: رعاية زوجها، ومداراة الطفل، ومراقبة ما يجري في الخارج، من دون أن يهدّئ كلّ ذلك من روعها، بينما فكرة الرحيل لا تني تسيطر على كيانها.

والمهم أنّ الطفل لا يزال هادئاً، قانعاً بالرضّاعة.

اندلعت رمايات متقطّعة قريبة من البيت. دبّت بحذر صوب النافذة خشية الإصابة بطلقٍ طائش، فرأت يااللهول مشهداً جمّد الدم في عروقها، فارتعدت ورسمت شارة الصليب: هاهم مسلّحو الكتائب يصفّون شباباً فلسطينيين إزاء الحائط، في الجانب الآخر من الشارع حيث مخيّم شاتيلا ويطلقون النار عليهم. كانوا يعدمونهم بدمٍ باردٍ في العراء المشمس المغبر على مرأى من جنودٍ إسرائيليين.

خفّت إلى زوجها متوجّسة، عيناها زائغتان ووجهها شاحب.

- إنّهم يقتلون الفلسطينيين.

قالت له.

وجم الزوج تحت وطأة الرعب. حدّق فيها مذعوراً وانفرجت شفتاه عن كلمة واحدة:

- سميرة!

وبينما هما في حيرتهما تعصف بهما الهواجس وتتنابهما الظنون، صكّ سمعهما قرع متواصل على الباب.

خفّت المرأة إليه وفتحته، فإذا شابّان كتائبيّان يدهمان الدار داخلين عنوةً، في عيونهما تلمع غريزة القتل، وعلى تقاسيمهما سيما الطالبين بالثأر.

كانا يرتديان ملابس عسكريّة لها جيوب واسعة وعلى أخمص

مكتبة الفكر الجديد

رشّاشيهما لصقا صوراً لبشير جميّل[1] وشجرة الأرز.

استوقفتهما قلادة الصليب على صدر أمّ سميرة وهي تخاطبهما مسترحمة مستعطفة وقد استحوذ عليها الفزع:

- نحن مسيحيّون.

- وماذا تفعلون هنا بحقّ الربّ؟

واجهها أحدهما متسائلاً وقد خفّ توتّرهما وانفرجت أساريرهما، وراحا يجيلان النظر حواليهما.

- نحن نعمل في التجارة.

- أشيوعيّون أنتم أم قوميّون[2]؟

- لسنا شيوعيين ولا قوميين، نحن مسيحيّون فقط.

جاسا خلال الدار فوقع بصرهما على أيقونة العذراء المقدّسة.

- من أين أنتم؟

سألها الشاب ذاته وقد استثارته اللهجة الغريبة.

- من العراق، نحن سريان[3].

- ولماذا تقيمون هنا بين الغرباء[4]؟

- لم نجد بيتاً رخيصاً إلاّ في هذه المنطقة.

---

١ بشير جميّل: زعيم كتائبيّ قُتِلَ خلال الحرب الأهليّة اللبنانيّة، أمّا شجرة الأرز فهي شعار حزب الكتائب.

٢ قوميّون: يريد الحزب القوميّ السوريّ الاجتماعيّ.

٣ سريان: أغلب المهاجرين من العراق إلى لبنان وسوريا من كلدان وآشوريين يعرّفون أنفسهم على أنّهم سريان، لأنّ الطائفة السريانيّة هي الأشهر في بلاد الشام.

٤ يقصد الفلسطينيين، وفق العقليّة العنصريّة السائدة في حزب الكتائب ضدّ الشعب الفلسطينيّ.

مكتبة الفكر الجديد

- أنتم من جماعة عرفات إذاً.

- لا، لسنا كذلك.

خطا الشابّ شطر الباب يريد المغادرة ورفيقه في إثره، ولكنّه حدج أمّ سميرة بعينين مرتابتين قبل أن يبارح الدار كأنّه تذكّر أمراً.

- والولد ابن من؟

- ابن بنتي.

- وأين هي؟

خفق قلب أمّ سميرة.

- نزلت إلى بيروت ولم تأتِ حتّى الساعة. طالبة في الجامعة الأميركيّة، وزوجها عراقيّ متوفّى.

- مسلم؟

- لا، مسيحيّ سريانيّ.

بعد انصرافهما قالت لزوجها:

- هل تستطيع البقاء وحدك قليلاً؟ سأخطف رجلي إلى المستشفى.

- والولد؟

- سآخذه معي. أنا عائدة برفقة سميرة بعد قليل.

- لا عليكِ.

- كلّ شيء موجود حدّك، الأكل والماء والدواء.

- لا بأس، اذهبي!

- دقائق وأعود لن أتأخّر.

- لا تشغلي بالك، وانتبهي للولد!

- بالتأكيد، ياعذراء، ياعذراء!

مكتبة الفكر الجديد

رسم كلاهما شارة الصليب وغادرت أم سميرة بيتها تحمل حفيدها وهي فريسة للهموم والأفكار، ولكنّها برغم ذلك ما برحت تتعلّق بأهداب الأمل.

جدّت بسيرها إلى مستشفى غزّة. كانت الشمس تغالب دثار غبار ودخان ينتشر فوق بيروت، ودمدمة متواصلة تهزّ الفضاء وتشمل المدينة: هدير طائرات، انفجار قنابل، ضجّة سيّارات، صراخ، دويّ رمايات رشّاشة، جلبة مركبات عسكريّة، وهناك تلقاء البيوت الفقيرة الواطئة المسقوفة بالصفيح رقدت في العراء جثث شباب وبنات وأطفال، أطلق الكتائبيّون النار عليهم من قرب، فيما بانت على بعضهم آثار السكاكين والفؤوس وقد قتلوا بوحشيّة.

الدماء تلطّخ الأبواب والأرصفة والجدران المثقوبة بالرصاص. هاهي الحياة تهجر الأرض، هاهي الأرض تصبح بأسرها مقبرة.

كانت أمّ سميرة تمشي مسرعة تكاد تغضي عن مشهد الضحايا لشدّة حسّاسيّتها والدموع تنهمر من عينيها وهي تقول لنفسها "يا يسوع، يا يسوع". واجهها حاجز إسرائيليّ كتائبيّ، لكنّه سمح لها بالخروج من الحيّ الغربيّ.

سلكت الدرب ناحية تقاطع صبرا-شاتيلا فوقع بصرها على نساء فلسطينيّات يركضن خارجات من مخيّم شاتيلا، يعولن ويصرخن مستغيثات، بعضهنّ حاسرات وأخريات حافيات، شعورهنّ منثورة، وعلى ملابسهنّ بقع من التراب والدم والطين.

تابعت الأمّ سبيلها متعجّلة الخطى إلى المستشفى فانتهى بها الطريق إلى حاجزٍ آخر مؤلّف من صفائح وحجارة إسمنتيّة وجنود

مكتبة الفكر الجديد

إسرائيليين ومسلّحين كتائبيين.

أوقفها حارس كتائبيّ ملتحٍ.

- قفي! إلى أين تمضين؟

- إلى المستشفى.

- أوراقك؟

- أنا مسيحيّة؟

- من تريدين في المستشفى؟

- ابنتي.

- المرور ممنوع، والمستشفى مغلق، قلتِ أنتِ مسيحيّة؟

مدّت يدها إلى قلادتها وجذبتها من تحت الطفل المستلقي على صدرها، ورفعت الصليب الخشب المزدان بنحتٍ للسيّد المسيح المصلوب أمام باصري رجل المليشيا.

- أنا سريانيّة من العراق.

- حسنٌ. عودي إلى العراق!

- ليس من دون ابنتي.

- الطريق مقطوع ولا أحد يعبر إلى المستشفى. هيّا اغربي عن وجهي!

ثم طفق يشتمها ويزعق غاضباً:

- مسيحيّة تقول، مسيحيّة! وما قعودك مع الفلسطينيين ياعاهرة يا بنت العاهرة؟

عادت أدراجها تحثّ الخطى وقد استولى عليها التعب وهدّها القلق، وكان الشارع الفاصل بين شاتيلا وصبرا متصدّعاً، محفّراً،

مكتبة الفكر الجديد

مليئاً بالبرك والحجارة والردم، والبيوت على طرفيه منخورة بالرصاص والشظايا، محطّمة الواجهات.

تعثّرت وأوشكت أن تقع على أنها تماسكت وتمسّكت بالطفل.

حين وصلت إلى مدخل الحيّ الغربيّ منعها الحاجز الإسرائيليّ الكتائبيّ من المرور برغم توسّلها، وكانت تقول إنّها تسكن في الحيّ وزوجها في البيت على مرمى حجر مريض وتريد الذهاب إليه ولكن من دون جدوى، فلقد هدّدها حارس الحاجز بإطلاق النار عليها إن لم تنصرف للفور، فمن يغادر المنطقة لا يُسْمَح له بالعودة إليها.

التفتت إلى الخلاء الفاصل بين مخيّم شاتيلا والحيّ الغربيّ فشاهدت جماعةً من الكتائبيين والإسرائيليين يسوقون نساءً وأطفالاً فلسطينيين ثمّ يوقفونهما تجاه واجهات الدكاكين المغلقة في السوق ويطلقون النار عليهم.

استبدّ بها الهلع فولّت هاربة إلى الجادّة المحاذية لمخيّم الداعوق علّها تفلح في العبور إلى منزلها. كان المخيّم يحترق، يغشيه الدخان، ورمايات كثيفة تدوّي داخله، والرصاص يئزّ في الهواء. تراجعت على عجلٍ وابتعدت، وكانت كلّما التقت كتائبياً بكت وناشدته الرحمة قائلة إنّها مسيحيّة، فيستفهمون جميعاً كأنّ لهم لساناً واحداً لا يتغيّر: وماذا تفعلين هنا بحقّ الجحيم؟ ثمّ يتركونها تمضي.

شرع الطفل يبكي واستحوذ عليها التعب هي أيضاً، فقرّ عزمها على أخذ قسطٍ من الراحة قبل القيام بمحاولة ثانية لبلوغ المستشفى من ناحية أخرى، فإذا هي ترى كتائبيين يقودون سيّارات تزمّر بصخب وتجرّ وراءها جثث بناتٍ مربوطةً بالحبال. فرّت وقد أطبق

مكتبة الفكر الجديد

عليها الفزع إلى خارج منطقة صبرا وشاتيلا نائية بنفسها وحفيدها عن بؤرة الرعب: مركز الاجتياح الإسرائيليّ الكتائبيّ، حتّى انتهت إلى الدرب الموصل إلى منطقة حرج بيروت.

جلست على الرصيف في فيء محلاّت مرتّجة مع مجموعة من النسوة الفلسطينيّات المروّعات الباكيات وألقمت الولد رضّاعته.

على مبعدةٍ تبدّت هياكل البنايات التي دمّرها القصف الإسرائيليّ، ودخّان الحرائق يتصاعد في السماء، تتخلّله رشّات رصاص تهدر من حينٍ لآخر.

في الشارع أمامهنّ تتواصل حركة السير في غدوٍ ورواح: سيّارات تحمل ناساً هاربين، سيّارات جيب إسرائيليّة، شاحنات تغصّ بمسلّحين كتائبيين، مركبات موسقة بمدافع رشّاشة ثقيلة تغطّي أبوابها صورٌ لبشير جميّل والأرزة الكتائبيّة.

هاهنّ أولاء يقعدن على قارعة الطريق لا يرغبن في الرحيل بعيداً إلى مناطق أخرى في بيروت الغربيّة[1] ولايملكن العودة إلى بيوتهنّ، فلبثن في مكانهنّ قريباً من أحبّائهنّ، علّهنّ يعرفن في الأقلّ بعضاً من مصيرهم بعدما اقتادهم الكتائبيّون والإسرائيليّون إلى المجهول.

* * *

صكّت الأسماع جلبة رصاص تردّد صداها في ردهات المستشفى

١ بيروت الغربيّة: قُسّمت بيروت أثناء الحرب الأهليّة اللبنانيّة إلى غربيّة وشرقيّة على أساس الولاءات الحزبيّة والتيّارات السياسيّة والانتماءات الطائفيّة.

مكتبة الفكر الجديد

وأروقته، وسُمِع صراخ وسباب وأصوات استغاثة وتوسّل، وترامى وقع أقدامٍ عنيف في الأبهاء. كان الجنود الإسرائيليّون يتراكضون في الممرّات برفقة كتائبيّين هائجين، بنادقهم الرشّاشة في أيديهم وفي أقدامهم أحذية عسكريّة ضخمة. قاموا بجمع الأطبّاء والممرّضات والموظّفين، ضربوهم وأوقفوهم في مجموعات بين الأبواب المشرعة، وأنشأوا يعزلون الأوروبيين جانباً ليتولّى الإسرائيليّون أمرهم، فيما ساقوا البقيّة من فلسطينيين ولبنانيين إلى شاحنات واقفة أمام المستشفى.

رفضت سميرة الانقياد لهم. صفعها أحدهم وألحقها بالحشد المساق خارجاً. انتبه آخر إلى قلادة الصليب على صدرها فقال لرفيقه:

– رويدك!

– مالك؟

فأوما إلى الصليب.

– هل أنت مسيحيّة؟

– نعم.

صفعها ثانية وركلها وهو يهتف مزدرياً:

– مسيحيّة يابنت الكلب، وما شأنك والفلسطينيين يا فاجرة؟

ودفعها كما لو أنّه يريد إبعادها وطردها.

كان الرواق قدّامها مفتوحاً فجرت إلى السلالم مرعوبةً. رأت في طريقها وهي تنزل الدرجات راكضةً جثث المرضى والممرّضين متناثرة في الأروقة والغرف المشرعة الأبواب. لم يوقفوها، تركوها تغادر المستشفى، ذهبت تعدو فزعة شاردة اللب، لا تحسّ بما حواليها ووجهتها المنزل في الحيّ الغربيّ.

مكتبة الفكر الجديد

أوقفها الحاجز الأوّل فقالت إنّها كانت قبل قليل عند الكتائب وسمحوا لها بالرحيل لأنّها ممرّضة مسيحيّة. لم يقتنع الحارس الكتائبيّ فتوسّلته أن يطلق سراحها، ولمّا تعلّقت عيناه بالصليب الذهب نزعته من عنقها وأعطته إيّاه، فأفلتها مشيّعاً الفلسطينيين والشيوعيين والقوميين باللعنات من بين دخان سيجارته.

دويّ الطائرات يعصف بالسماء، ورشقات رصاص تُسْمَع متقطّعة في شاتيلا. سيّارات إسعاف تزعق وشاحنات تهدر، على متنها جنود إسرائيليّون وميليشياويّون كتائبيّون.

نساء وأطفال وبنات يجرون حفاة مذعورين باكين هاربين من مخيّمي صبرا وشاتيلا إلى حرج بيروت.

إسرائيليّون يطوفون في الأزقّة حذرين يراقبون ما حواليهم، في عيونهم خوف وعلى سيمائهم توتّر ورهبة.

جثث فلسطينيين ولبنانيين مكوّمة في أزقّة مخيّم شاتيلا، مكدّسة على الأرصفة في الحيّ الغربيّ: شباب وبنات وأطفال قطع الكتائبيّون رؤوسهم وأطرافهم بالسواطير والفؤوس، وكان الإسرائيليّون يمرّون بالضحايا من دون اكتراث، يخوضون برك الدم ونظراتهم معلّقة بنواصي الطرق والمنعطفات وأعالي البنايات.

وصلت سميرة مخطوفة الوجه مبهورة الأنفاس إلى الحيّ الغربيّ. أوقفها الحاجز الإسرائيليّ الكتائبيّ ومنعها من دخول الحيّ. قالت للحارس الكتائبيّ إنها ممرّضة وقادمة في مهمّة طبيّة. هدّدها بإطلاق النار عليها إن لم تنصرف من فورها.

جرّبت التسلّل عبر مخيّم الداعوق غير أنّها فوجئت بتجمّعات

مكتبة الفكر الجديد

للكتائب تحتلّ المخيّم وجواره، فقفلت راجعة مع النساء الباكيات الراكضات والبنات الفزعات الهاربات إلى العراء خارجاً صوب حرج بيروت، بينما المركبات العسكريّة تنهب الأرض نهباً والغبار يثور وضجيج القصف يصمّ الآذان، وفي الهواء رائحة بارود ودخان حرائق وعوادم آليّات.

كانت سميرة ترتعش مصدومة من مرأى الجثث المقطّعة والمسحولة في كلّ مكان، من مشهد الدم على الأرصفة، في الشارع، على الجدران، على الوجوه، على الثياب وعلى السيّارات.

على قارعة التخم القريب من حرج بيروت رأت أمّها جالسة بين النسوة وفي حضنها ابنها. رمت بنفسها عليها، عانقتها وانفجرتا بالبكاء، فقالت الأمّ بصوتٍ ناحبٍ متهدّج:

– بقي أبوك في البيت.

– منعوني من الوصول إلى البيت ماما.

– أنا عائدة إليه.

– لا جدوى من ذلك ماما.

وَمَضَت في بالها خاطرة لمّا تبدّت لها سيّارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر قادمة باتجاهها.

طلبت إلى أمّها أن تعطيها قلادة الصليب ثمّ وضعت الطفل بين يديها وسعت إلى إيقاف السيّارة مشيرة إلى السائق، فلزم جانبها وتوقّف قربها لمّا شاهد ثياب الممرّضات عليها.

حيّته سميرة بحرارة وأبرزت له بطاقة عملها ورغبت إليه أن يساعدها في جلب أبيها المسنّ المقعد والمريض من داخل الحيّ الغربيّ.

مكتبة الفكر الجديد

صفن السائق وقد بانت عليه أمارات الحيرة، ثمّ انفرجت شفتاه عن كلمات حذرة سائدة نمت على تردّده:

- ولكنّي الآن في مهمّة.

ترجّته سميرة وسعت إلى إقناعه قائلة إنّ البيت لا يبعد غير دقيقة واحدة وهي لا تقوى وحدها على بلوغه بسبب الحاجز الإسرائيليّ.

- وهل منعوك؟

فهزّت راسها أن نعم.

- إذاً سيمنعونني أنا في أرجح الظنّ.

- الصليب الأحمر غير ممنوع، وسيساعدنا هذا أيضاً.

وأرته قلادة الصليب.

ران الصمت بينهما فارداً ظلّه الجليديّ على لحظةٍ فاصلةٍ في خضمّ الهول المحيط بهما.

- لا بأس اصعدي!

قال كاسراً ذلك الصمت في نبرةٍ شجاعة.

دعت سميرة أمّها إلى المكوث حيث هي وطمأنتها إلى أنّها عائدة إليها مع أبيها في أسرع وقتٍ ممكن.

صعدت إلى جانب السائق وعلّقت القلادة فوق الزجاج الأماميّ. استدارت السيّارة وانطلقت مسرعة إلى شاتيلا فالحيّ الغربيّ.

تمهّلت عند الحاجز الإسرائيليّ الكتائبيّ، أطلّ الحارس من نافذتها ثمّ أومأ برأسه إلى السائق أنْ تابع سيرك، فتابع حتّى أوقفته سميرة تجاه منزلها، ثمّ نقلت وإيّاه أباها وقفلوا عائدين على وجه السرعة إلى حيث تجلس أمّها والولد في حضنها مع جمهرة النساء والأطفال.

مكتبة الفكر الجديد

قرّ عزم سميرة بعدما التمّ شملهم على المضي وحدها إلى منطقة الكولا لسهولة كراء سيّارة أجرة، وبالفعل فازت بواحدة كلّفتها مائة دولار.

قبل الظهر بقليل وصلوا جميعاً إلى نزل في منطقة كراكاس.

طلب المسلّحون المسيطرون على إدارة النزل أجرة قدرها خمسمائة دولار نظير إقامتهم في جناحٍ مكوّنٍ من غرفةٍ وصالةٍ لمدّة شهر.

المبلغ الذي دفعته الأمّ لهم كان بعضاً من المال الذي وفّرته من بيع البيت في البصرة، وكانت تصرّه في حزامٍ خاصٍّ شدّته على بطنها، تحت ملابسها.

خاتمة

في أعقاب ماجرى (٢)

الشمس ترسل أشعّتها، وريح حارّة تسفي الرماد وتذروه. راح رمزي وأحلام يضربان في الجهات النائية، متوغّلين في الأرض المحروقة، وعندما بلغا الشارع الإسفلتيّ العام الفارغ عبراه إلى الناحية الأخرى، ولّياه ظهرهما وجعلا يركضان إلى أن تدانيا من منخفضٍ ينداح على مرمى البصر، تتناثر فيه أشجار النخيل المحترقة بين البِرك.

في السماء أسرابٌ من الطيور تطير مذعورةً دفعةً واحدة: صقور وعقبان وهداهد وفواخت ولقالق وبجع، وعلى الأرض في الاتجاه ذاته تجري جماعات عديدة من الضواري، هزيلة جائعة، صارخة وعاوية: ذئاب وخنازير وضباع وقطط وحشيّة وكلاب مسعورة، تفرّ بعيداً من حريق يشتعل في لهيبٍ متواصل، يزحف، يأكل الأدغال مندلعاً في أغوارها، وألسنته تتناوش فضاءً عبوساً تغشاه سحابة من الدخان الأسود التي تكاد لشدّة اتّساعها أن تحجب أشعّة الشمس.

والحيوانات سواء أكانت أليفة أم متوحّشة تجري على الأديم

مكتبة الفكر الجديد

القاتم بين الجثث المتناثرة، ولكنّها تتريّث ما إن تستولي عليها غريزة الجوع فتقوم بنهش أقرب الأشلاء إليها.

فكنتَ ترى ضباعاً وذئاباً وكلاباً تهيم على وجهها وأشداقها الملوّثة بالدم مطبقة على أعضاء بشريّة.

ثمّ أخذت تظهر مرّةً بعد أخرى من خلال الدخان أرهاط من الناس وهم يصرخون من الألم، النار تلتهم أطرافهم والدماء تغمر وجوههم، رجال وأطفال ونساء يعولون ويستغيثون كأنّهم خرجوا للفور من جهنّم.

* * *

ابتعد رمزي وأحلام مستأنفين سيرهما في اتجاه آخر.

الساعات تكرّ، الغسق يحلّ، صفحة السماء الليلكيّة لا تزال مُنارَة بأضواء النيران المشتعلة في أحياء المدينة.

لمعت نجوم غامزة في دغش الغروب، وأطلّ قمرٌ باهتٌ تعاقبت عليه غمامات من الدخان حاجبةً نوره الأصفر الفاتر.

وصلا إلى مبنى مصنعٍ خربٍ تحيط به بركٌ آسنة وشجيرات بريّة شوكيّة، وفيما يليه انتصبت بنايات مصانع أخرى، نالتها يد الدمار وغلّفها الصمت والظلام.

انسلاّ عبر أنقاض بوّابة المصنع وهبطا إلى سرداب تنيره شمعة ترتعش، ترسل السخام في فجوةٍ تعتور الحائط. تجاوزا بوّابة حديد مفتوحة إلى مجازٍ تساقطت الحجارة من سقفه وحيطانه فدخلا ملجأً

مكتبة الفكر الجديد

وجدا فيه نفراً متجمّعين، منهم من يأكل، ومنهم من ينام، وبعضهم يحملق في الفراغ، ألقيا التحيّة عليهم وانتحيا مكاناً لهما تحت جدارٍ متصدّع.

أخرج رمزي من حقيبة ظهره خبزاً وعلبة لحم وقنّينة ماء، دعا الناس إلى المشاركة في الطعام، شكروه ولم يقدموا.

فأخذ مع أحلام يأكلان ويقلّبان نظرهما في المحيطين بهما من الهاربين الآخرين الذين جعلوا بدورهم يتحرّونهما بالنظر وقد لزموا الصمت.

في مطرحهما قضيا الليل قبل أن ينصرفا إلى ملجأ آخر، لا يعدو أن يكون ضرباً من الإقامة الموقّتة.

في ضوء الفجر وهما يلطيان في أحد منعطفات شارع بصرة ـ عشار غير مكشوفين للأنظار، بصرا بطوابير من الجنود الأميركان الشاكي السلاح يتقدّمون حذرين وراء مدرّعة تحميهم، يتصدّر برجها ضابط على عينيه نظّارات شمسيّة، يعتمر خوذةً ويتحدّث في هاتفٍ محمول.

على الطريق في محاذاة ذلك الفصيل المتقدّم يظهر حاجزٌ يتصدّره جنديّان مسلّحان أحدهما امرأة، وعلى قيد خطوات منهما تربض ملالة ترفع العلم الأميركيّ وراية سوداء بجمجمةٍ وعظمين.

وفي مجال رؤية سائقي السيارات رُفعَت يافطة معدنيّة زرقاء عريضة تقول باللغتين العربيّة والإنكليزيّة بأحرف بيض كبيرة: انتبه حاجز! قف!

وعلى مسافة دانية يربض عددٌ من العساكر الأميركان المعتمرين

مكتبة الفكر الجديد

طاقيّات مرقّطة، خلف رشّاشات سريعة الطلقات، تحميهم أكياس رمل مموّهة بشبكةٍ من الأوراق الصناعيّة، وفي وسطهم ينتصب مدفعٌ مضادٌّ للدروع.

دار رمزي وأحلام من وراء نقاط المراقبة وسلكا السبيل نحو شطّ العرب، وكانوا يبصرون في طرقهم من حينٍ إلى حين سيّارات وحافلات مفتوحة الأبواب، مخردقة بالرصاص، فيها ومن حولها جثث أطفال ونساء ورجال وملابس ورضّاعات وأحذية وأنعل وفوارغ طلقات وكوفيّات وأكياس نايلون وحقائب وتفّاح وكلّها ملطّخة بالدم المسودّ، بينما رائحة الموت تفوح في العراء، وذباب الجثث يحوم ويطنّ.

* * *

في الدرب المهجور المؤدّي إلى محلّة نظران، وقبالة الميتم الخالي الذي تداعى سياجه وعلت واجهته آثار الرصاص والشظايا، وعبثت بحديقته الأعشاب الطفيليّة، مرّت مركبات قوّات الاحتلال الأميركيّ تتعاقب الواحدة بعد الأخرى وتوقّفت في مطلع زقاق الصويلات.

شطّ العشّار يركد ملوّثاً بالنفايات ورائحة كريهة تنبعث منه، ونباتات من شوك وقصب وحلفاء وطرفاء تتطاول على المسناة المهشّمة متنامية ممتدّة على الرصيف الخرب المتصدّع.

تتناهى أحياناً أصوات عيارات ناريّة، من المرجّح أنّ رجال المقاومة ينشطون في الأطراف متحرّكين بين بساتين النخيل وأحياء

مكتبة الفكر الجديد

البصرة القديمة، قاطعين بين آونةٍ وأخرى طريق بصرة - عشّار بهجمات مباغتة.

دلف الغزاة إلى زقاق الصويلات يستكشفونه وتوجّه نفر منهم إلى أوّل بيتٍ إلى يمينهم. وكانوا جنوداً برفقة ضابطهم. ضربوا الباب الخشب بمهدّةٍ من حديد فانفتح على مصراعيه. دخلوا وجالوا بأبصارهم في الفناء.

البيت مهجور يجثم عليه السكون وتلفّه الوحشة. عاينوا حجرتيه الخاليتين إلاّ من أشياء متروكة يكسوها الغبار المرشوم بآثار زواحف وطبعات أقدام قوارض وطيور.

شاهدوا في زاوية المطبخ كدساً مغطّى بستارة، تقدّم نحوه جندي وتفحّصه بجهاز كشف الألغام.

- أخضر (غير خطر).

نبر ثمّ أزاح الغطاء فإذا الألوان تتوهّج في العيون.

- لوحات.

قال وأفسح المجال للضابط الذي انبرى يتناولها واحدةً واحدة متأمّلاً بعينين فضوليّتين نخيلاً عريض السعف، طيّارات ورقيّة، أسوداً بين أحراش، أنهاراً ساكنة، بطّاً سارحاً، أزهاراً بتويجات عملاقة، طيوراً في السماء، حيّات ضاحكة، قروداً مندهشة، نساء عاريات بأثداء كبيرة ومؤخّرات بارزة وأفخاذ ضخمة، خلاءً وسكوناً، وأشجاراً مثمرة بثمار زرق وأرجوانيّة وحمر وصفر.

كانت صوراً طفوليّة ساذجة، تنبض بأحلام وأخيلةٍ ورؤى مرسومة بألوان قويّة وخطوط واثقة، تضفي لمسة من السكينة والجمال الورع

مكتبة الفكر الجديد

على المشاهد، وفيما كان الضابط ينقّل عينيه من لوحةٍ إلى أخرى وقع بصره على مشهد شجرةٍ ضخمةٍ تحمل أغصانها كالثمار وجوه بدر وإسماعيل وأحلام ورزّاق الأحدَب وجمعة ونرجس وآوات وعنتر ووسام وسعديّة وفاتن الغزالي وجوني البحّار وجودي الأسود وحمزة مطر وشبل بن سوادي ورمزي ومهيدي المخبّل وصديقة وكنش وأسعد(سعّودي السعدان) وتومان وعلاّوي الأعرج ويوسف ومنصور خليفة وشيرين وإلياس وهندال وجنان جاسم حلاوي وسلوى ونادية وزهور وجواد وآشتي وأوميد وسميرة وأمّها وحسين العامل وكاتيا، وإلى جانب الشجرة وقفت أم يوسف تنظر إلى المشاهد وتشير بريشتها إلى الوجوه وتحتها في خطٍّ صغير وضعت توقيعها، وبخطٍّ أكبر قليلاً كتبت عنوان لوحتها (أهل النخيل).

بعد أن تفحّص اللوحات علّق الضابط قائلاً:

- لا يخلو هؤلاء المتوحّشون من ذوق.

ثمّ أمر جنوده بنقلها إلى الشاحنة.

عقب انصرافهم أوعز الضابط للقوّة الجويّة الأميركيّة بالشروع في مهمّتها. وما هي إلاّ دقائق حتّى انقضّ سربٌ من القاصفات الأميركيّة على المنطقة. عصف بالسماء فهدرت بصوت كالرعد، ودوّت انفجارات القذائف والقنابل والصواريخ ناشرةً الدمار والخراب والموت في حارات نظران والصبخة الكبيرة والصغيرة والبلوش وجبل خمّاس وصبخة العرب. تطايرت في الفضاء أشلاء المدرسة الثانويّة وجسر الغربان والميتم وقصر النقيب ودكان مسعود القزم وسينما الشعب ومأوى العجزة ومدرسة النبراس الابتدائيّة ومحطّة

مكتبة الفكر الجديد

القطار القديمة وقصر الباشا الشريف شرف والمستشفى والمحكمة والمبغى والسجن وكنيسة الكلدان وجامع أبي منارتين. اضطرمت حزم ناريّة في ما تبقّى من نخلٍ في بستاني ساهي ومحمود. اشتعلت الضفاف ولفّ مياه النهر الدخان. سال القير في الشارع من شدّة الحرارة، وتساقطت الطيور ميّتة من الأعالي. احترقت الحيوانات في أوكارها وجحورها. هبّت النار في بيوت القصب، وانهمرت الحجارة وكسر الخشب وقطع الحديد والصفائح وفتات الطوب والبلاط على الأرض مثل المطر من السماء. اكتسحت العاصفة الناريّة الأسواق والمتاجر والدكاكين وصيّرتها أثراً بعد عين، وماجت في الهواء دوّامات من الغبار تفوح برائحة الفسفور الأبيض والنابالم والدخان القاتم السامّ الذي ما لبث أن كوّن غمامة سوداء على مناطق البصرة القديمة، فهطلت السماء السوداء مطراً أسود أنشأ يأكل الهدم والردم والخراب مثل الأسيد، ينخره في خضمٍّ أغبر امّحت فيه المعالم والحدود.

باتت الطرق المخسوفة مسدودة بحطام البيوت والسيّارات المحترقة، والأنهار مقطوعة بالجسور المنهارة والأنقاض التي قذفها القصف في مياهها.

* * *

حدّق رمزي وأحلام من مكانهما على سِيف شطّ العرب إلى ذلك النور الوهّاج فأبصرا شعلةً عظيمةً من النار، قبضة من حريق تنعقد على

مكتبة الفكر الجديد

الأرض فتصبغ السماء بلونٍ برتقاليّ. أمست النيران لفرط ضراوتها تلمع في مياه الأنهار صفراءَ وذهبيّة، والنخيل يتلفّع باللهب، يتفحّمُ ثم يهوي على الأرض فيكسوها بشررٍ يطقطق، فيصير التراب رماداً ينبعث منه دخان، يلفّ أشباح ناسٍ يتراكضون في عتمة الغروب، وندف من النار تتساقط على رؤوسهم.

أخذت سحابة هائلة من الغبار السامّ والدخان الأسود واليورانيوم المنضّب والروائح الكيميائيّة النتنة تدنو مثل كرة عملاقة احتوت المدينة في عاصفةٍ ماحقة اكتسحت في طريقها كلّ شيء: البيوت والأسيجة والبشر والسيّارات والجسور والحقول والأنهار والنخيل. دار رمزي وأحلام على عقبيهما فارّين في اتجاه معاكس، شاردين في مسالك تكتنفها أنقاض البيوت والأسيجة وأكوام الحجارة والخشب والحديد، لم يكن في مدى النظر طريق وإنّما ممرّات بين الأنقاض قادتهما إلى نفقٍ، ولجاه وتوغّلا فيه حتّى نهايته ثمّ خرجا إلى العراء، فإذا أرض تمتدّ تحت سماء ليليّة هادئة تنفتح أمامهما، وفي مداها تبصّ أضواء نواحٍ مأهولة، عليهما الوصول إليها علّهما يجدان فيها مأوى يلوذان به الليلة بدلاً من الإقامة في الخلاء قبل البدء برحلة لجوء جديدة.

٢٠١١/٩/١٠

٢٠١٤/٧/٣١

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

وسط دويّ انفجارات تتداعى معه مدينة البصرة دماراً وموتاً، رمزي وأحلام يشقّان هذا الخراب: يركضان مذعورين نائيين عن الجند المتقدمين منهما، يلجآن إلى إحدى الغرف، يتعانقان ويدخلان في قبلة عميقة.

مدينةٌ تستعيدُ نسيجها روائياً في سردٍ راجعٍ، لتبدوَ نادية بتنورة بيضاء قصيرة وقميصٍ ورديٍّ بلا أكمام في ليلة زفافها، وليلفَّ جودي العجوزَ الميتَ المسجّى على حصيرة مهترئة في مأوى العجزة، ويتوجّهَ مهيدي المجنون إلى حيث قلب زهور سيشعُّ بنور الغبطة بين الأطفال في حديقة الميتم... مهيدي الذي سيطير إلى السماء في ما بعد... وزهور التي سيتنافس على الفوز بها جوني البحار والملاّ جعفر...

ليلة عاصفة لإخفاء منشورات حزبٍ سياسيٍّ، وحسينيّةٌ، وليالٍ أخرى لمطاردة بين أهوار القصب، وحيُّ المبغى يخترقه علاّوي بمسدسه، وأم يوسف برسومها الجميلة، بينما الثوّار يمارسون بين شعاف الجبال التمرُّدَ والعشق... كلّ ذلك ريثما نرى من جديد قيامة المكان الذي ضخَّت فيه الروايةُ ما يضجُّ في أهل النخيل من حياةٍ وموت في أحياء البصرة.

جنان جاسم حلاوي كاتب وصحافي عراقي. درس الهندسة الكهربائية في العراق. عضو اتحاد الكتّاب السويديين. يقيم في مدينة غوتنبرغ.

مكتبة
الفكر الجديد

ISBN 978-6-14425-834-7
9 786144 258347
DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com